

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران (1) أحمد بن بلة

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية

قسم التاريخ والآثار



مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ

الحديث والمعاصر

المه سة مة بـ

المشروع الاستيطاني الفرنسي بإقليم عين الصفراء العسكري
(1882-1914)

تحت إشراف

أ.د. دادة محمد

جامعة

جامعة

رئيسا

مقررا

مناقشا

مناقشا

2015/02/10

أعضاء لجنة المناقشة

أستاذ التعليم العالي

أستاذ التعليم العالي

أستاذ محاضر

أستاذة محاضرة

من إعداد الطالب:

الأستاذ:

بن قيطون حمزة

أ.د. موقفس محمد

وهران

أ.د. دادة محمد

وهران

د. حمادو بن عمر

جامعة وهران

د.ة. مجدوب كريمة

جامعة وهران

الموسم الجامعي

2015-2014.....1436-1435

كلمة شكر وتقدير

أتقدم بأسمى آيات التقدير والامتنان الجزيل إلى السيد المشرف المحترم

الأستاذ الدكتور دادة محمد على حسن توجيهه وحكيم نصحه

كما أوجه شكري إلى الأساتذة الأجلاء الذين ساهموا في تأطيري طوال

الفترة الجامعية وأخص بالذكر:

الأستاذ الدكتور: موفقس محمد

الأستاذ الدكتور: غازي الشمري

الأستاذ الدكتور: مهديد إبراهيم

الدكتور: عدة بن داهة

الدكتورة: سيفو فتيحة

كما أنوه بمجهودات جامعة وهران (1) وبالأخص كلية العلوم الإنسانية

والعلوم الإسلامية التي ساهمت مساهمة كبيرة في نجاح تأطيرنا طيلة مدة

التكوين.

وأشكر جميع من قدم لي يد العون من قريب أو من بعيد دون استثناء.

الإهداء

إلى الوالدين الكريمين أطال الله في عمرهما
إلى جميع إخوتي وأخواتي حفظهم الله
إلى كل من ساهم في تربيتي وتعليمي منذ طفولتي
إلى كل من أشرف على تكويني في مرحلة ما بعد التدرج
إلى كل صديق وقريب دعمني وكل فاعل خير أعانني
إلى كل هؤلاء جميعا أهدي هذا الجهد المتواضع

- قائمة المختصرات باللغة العربية:

- (ب.ت): بدون تاريخ.
(د.م.ج): ديوان المطبوعات الجامعية.
(ش.و.ن.ت): الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
(كلم): كيلومتر.
(ص): صفحة.
(ص.ص): صفحات.
(م): التاريخ الميلادي.
(ش.و.ك): الشركة الوطنية للكتاب.
(تر): ترجمة.

- قائمة المختصرات باللغة الأجنبية:

- B.C.A.F : Bulletin du Comité de l'Afrique Française.
B.S.G.A.O.B : Bulletin de la Société de Géographie et
d'Archéologie d'Oran.
B.S.G : Bulletin de la Société de Géographie.
R.A : Revue Africaine.
S.D : Sans Date.
P.P : Page.
S.C : Sénatus-consulte.
T : Tome.
Edit : Edition.
Ibid : Ibidem.
Vol : Volume.

مقدمة:

إن للجنوب الغربي الجزائري أهمية ومكانة عظيمة وذلك لموقعه الجيوستراتيجي فضلا عمّ يزخر به من ثروات، وهذا ما جعله عرضة للأطماع للاستعمارية الفرنسية، وأصبحت قضية التوسع بمنطقة الصحراء عامة والجنوب الغربي خاصة أهم القضايا التي شغلت السلطات الاستعمارية فسعت بكل جهودها وقواتها إلى تحقيق مشروعها الاستيطاني الخبيث على الأرض الصحراوية الطاهرة.

وقد نادى العديد من الضباط الفرنسيين وروجوا لفكرة غزو الصحراء وخلق إمبراطورية مترامية الأطراف، عن طريق ربط الصحراء الجزائرية بجميع المستعمرات الإفريقية الخاضعة لها وجعل الجنوب الغربي بوابة الولوج لهذه المملكة. ولاشك أن هذا الاهتمام قد تُرجم إلى حقائق على الأرض، خصوصا بعد ثورة الشيخ بوعمامة التي اندلعت سنة 1881م، وسارعت إلى دفع عجلة الاستعمار نحو الجنوب عن طريق مد خطوط السكة الحديدية، وتسهيل عملية التوغل في وقت قصير، بالإضافة إلى أن الغرض من مد تلك الخطوط هو استغلال المواد الأولية التي كانت تتزود منها الصناعات الأوروبية.

غير أن هذه المشاريع كان لها الأثر الكبير على المنطقة وسكانها، ما جعل الجنوب الغربي يشهد حراكا وصراعا حقيقيا بين المُستعمر الذي يسعى إلى بسط سيطرته وتوسيع دائرة هيمنته بشتى الطرق والأساليب، والمُستعمر الذي قاوم هذه المشاريع بشتى أشكال الكفاح، لذا فإن المشروع الاستيطاني بإقليم عين الصفراء أو الجنوب الغربي، موضوع جدير بالدراسة نظرا للاهتمام الكبير والمضطرد من طرف الساسة والعسكريين بل وحتى المستوطنين الأوروبيين، الذين تعاملوا بجدية وحزم مع هذا المشروع.

من الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع هو السبب الذاتي أولا كوني من أهل المنطقة وهو ما حفزني إلى أن أضيف ولو شيئا قليلا من خلال هذه الدراسة المتواضعة إلى الذاكرة الوطنية لكي يزيد ارتباط الأجيال القادمة بأصلها وأرضها التي ناضل أجدادهم من أجلها، ولاشك أن هذه الدراسة تتطلب صبرا وجلدا كبيرين حتى نتوصل من خلالها إلى حقيقة علمية موضوعية ومن بين تلك الأسباب أن موضوع الجنوب الغربي خاصة والصحراء عامة، لم ينل حظه الوافر من الدراسة كباقي المواضيع الأخرى فهذا لا يزال موضوعا خصبا لأي

باحث يريد تحري الحقيقة ونفض الغبار عن ما قام به الاحتلال الفرنسي في الصحراء الجزائرية، الذي حاول أن يصور نفسه من خلال مؤرخيه الذين ينتمون إلى مدارس الاستعمارية أنه صاحب الفضل في تنمية الصحراء وازدهارها. أما أسباب تحديد هذا الموضوع بالفترة الممتدة من (1882-1914) فهي كثيرة نذكر منها:

(1) أن بداية هذه الفترة (1882) تعتبر بداية تأسيس دائرة عين الصفراء العسكرية، وانطلاق عمليات التوسع في المغرب العربي، حيث تم احتلال تونس سنة 1881م وفي سنة 1912م عقدت الحماية المزدوجة على المغرب، وهكذا كان توسع الاستعمار الفرنسي في ثلاث اتجاهات هي تونس شرقا والصحراء جنوبا والغرب الأقصى غربا إلى غاية انطلاق الحرب العالمية الأولى.

(2) توسع الاحتلال الفرنسي في إقليم عين الصفراء العسكري، ومد سيطرته إلى تونس، ثم المغرب معناه تركيز حكمه، وتدعيم سلطته في الجزائر كقاعدة أمامية ارتكازية في المغرب العربي وإفريقيا معا.

(3) تبين لي أن هذه الحقبة من تاريخ أمتنا المجيدة، قد تناولها الغربيون من وجهة نظر لا تخدم الحقيقة التاريخية، وإن أهم ما يميز هذه الفترة (1882-1914) هو توسع الاستعمار الفرنسي نحو الجنوب.

ولقد واجهتني جملة من الصعوبات أثناء خوضي في هذه الدراسة ومنها البحث عن الوثائق والمصادر ثم جمعها ومقارنتها وترجمتها وصياغتها، إضافة إلى تداخل وتشابك المصطلحات الاقتصادية والقانونية التي تتطلب فهما دقيقا، أما على المستوى الإداري فلا يزال التعامل لا يرقى إلى مستوى البحث العلمي الأكاديمي، فمن أجل الاطلاع على الوثيقة فقط يظل الطالب منتظرا لمدة ثلاث أيام أو أربعة ليفاجئ بعدها بعبارة "ممنوع الاطلاع" أو "طلبك مرفوض".

وحرصا منا على استيفاء مادة البحث من أصولها الأساسية، فقد انتقلت في العديد من المرات إلى مراكز الأرشيف المتواجد بالولايات الكبرى، كوهان وبشار والبيض وتمكنت من الحصول على بعض الوثائق التي تخدم الموضوع، بالإضافة إلى الأرشيف الخاص بالأستاذ الباحث المهتم بتاريخ المنطقة خليفة بن عمارة الذي لم يبخل عليّ بالوثائق الأرشيفية ونصائحه النيرة.

وعليه يمكن القول أن هذا الموضوع الذي نحن بصدد معالجته، لم يدرس من قبل إلا في أشكال ضئيلة تتخللها ثغرات وفراغات تاريخية وبرؤى تخدم

المشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر، لذلك يدخل هذا البحث ضمن إطار وضع تاريخنا الوطني على مائدة البحث لإعادة كتابته بطريقة علمية تتوخى الدقة والموضوعية لإبراز الحقائق التاريخية النزيهة والبعيدة عن الأغراض والنوايا الخبيثة، وبذلك نحمي ولو الجزء القليل من ذاكرتنا من التشويه والتزوير والتحريف ونضمن إيصاله إلى الأجيال اللاحقة بكل أمانة وبلغة وطنية للتمكن الاطلاع عليه.

ومن خلال ما سبق، تشكلت لدينا تساؤلات وإشكاليات جديرة بالطرح ويمكن صياغتها بالشكل الآتي:

- ❖ ما هي الأسباب الكامنة وراء الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية عامة والجنوب الغربي خاصة؟
- ❖ هل نجحت الإدارة الاستعمارية الفرنسية من تحقيق مشروعها الاستيطاني بإقليم العين الصفراء؟ وما هو موقف المنطقة من هذه المشاريع؟
- ❖ ما هي الأهداف التي كانت ترمي لها سلطات الاحتلال من خلال توسعها بالجنوب الغربي؟
- ❖ كيف انعكس المشروع الاستيطاني الفرنسي على قبائل وقصور المنطقة؟ وما هي ردود الأفعال تجاهها؟
- ❖ كيف كانت هذه السياسة وما هي الأساليب والإجراءات التي اتبعتها فرنسا من أجل تنفيذ مشروعها؟
- ومن أجل الإجابة على هذه التساؤلات اتبعت خطة قسمت فيها هذه الدراسة إلى أربعة فصول وخاتمة.

● أولاً: الفصل الأول، وهو بمثابة فصل تمهيدي وأرضية تدخل منها للموضوع، وذلك بذكر الحيز الجغرافيا، من موقع ومساحة وظروف مناخية ونباتية وحيوانية ونشاط بشري وتقديم نبذة تاريخية عن المنطقة، وإظهار مدى اهتمام فرنسا المتزايد بالصحراء الجزائرية عامة والجنوب الغربي خاصة، فقد اهتمت فرنسا في البداية بما كتبه الرحالة (ج) العرب المسلمون عن الصحراء كابن حوقل وابن بطوطة والإدريسي وليون الإفريقي، ثم حاولت معرفة الطرق الصحراوية التي تخرقها من الشمال إلى الجنوب أو من الغرب نحو الشرق.

● ثانياً: الفصل الثاني، وقد تناولت فيه مراحل تشكل إقليم عين الصفراء في ظل المناطق العسكرية والظروف التي مر بها إلى غاية تأسيس الأقاليم الجنوبية

والتنظيمات الإدارية التي أحدثتها السلطات الاستعمارية من أجل جلب المستوطنين نحو الأراضي الصحراوية وتشجيع حركة الاستيطان الرسمي بالمنطقة، وأخيرا سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي التي مارستها فرنسا بالإقليم من أجل تحقيق مساعيها وبث عناصر أجنبية دخيلة على المجتمع القصورى.

● ثالثا: الفصل الثالث، والذي يعتبر جوهر الدراسة لأنه يوضح طرق ووسائل الاستغلال الاستعماري بالإقليم، عن طريق تسخير كل وسائل السيطرة والهيمنة الذي تمكن بواسطتها من استغلال خيرات هذه المنطقة الشاسعة والغنية بثرواتها الطبيعية والمعدنية.

● رابعا: الفصل الرابع، الذي وضحت فيه نتائج المشروع الاستيطاني تجاه الإقليم الاقتصادية والاجتماعية وردة الفعل ضد تلك السياسة الخبيثة، والمتمثلة خاصة مقاومة الشيخ بوعمامة الذي أعاق لمدة طويلة تحقيق المشروع الاستيطاني بالإقليم.

● خامسا: أنهيت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، ذكرت منها على الخصوص بأن إقليم عين الصفراء أو الجنوب الغربي منطقة إستراتيجية وبوابة نحو لمستعمرات الفرنسية شمال وغرب إفريقيا، فضلا عن كونها منطقة غنية بالموارد الزراعية والمعدنية تم انعكاسات هذه السياسة على الشعب وما ترتب عنه من حرمان وظلم للجزائريين العزل.

ولقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي الوصفي السردى كونه الأنسب لعرض الأحداث التاريخية وتتبعها حسب تسلسلها الزمني بالإضافة إلى المنهج الاستقرائي التحليلي.

وبإمكاننا القول بأننا اعتمدنا في هذه الدراسة على جملة من المصادر والمراجع، التي تناولت تاريخ المنطقة، منها منوغرافية الإقليم العسكري لعين الصفراء للنقيب (C. Meissner) وهي عبارة عن عرض تسلسلي للمشاريع الفرنسية بإقليم عين الصفراء من (1906-1912)، ومنوغرافية ملحقة عين الصفراء، للملازم ميزون (L. Meyson) رئيس الملحقة سنة 1957، ومنشورات الحكومة العامة التي عرضت (1903-1930)، بالإضافة إلى الرسائل الأرشيفية بين الضباط وبعض المراجع الفرنسية التي تناولت تاريخ المنطقة بشكل سطحي.

وبالرغم من المجهودات التي بذلت في هذه الدراسة فإنني أشعر، أن النتائج المتوصل إليها ليست كافية وأن بعض النقاط والوثائق لم تستغل بعد فهي تتطلب مجهودات أكبر ووقتاً أطول للإلمام بها وبكل جوانب الموضوع. وأخيراً نرجو أن تكون هذه الدراسة بمثابة لبنة جديدة في بناء صرح هذا الموضوع ومساهمة متواضعة في إعادة كتابة تاريخنا المجيدة وبطريقة علمية أكاديمية بحثية.

ولا يفوتني في ختام هذا المقال أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى كل من قدم لي يد المساعدة من قريب أو من بعيد في انجاز هذا البحث، وخاصة الأستاذ المشرف دادة محمد الذي بذل جهداً كبيراً في إشرافه على هذه الدراسة من خلال اللقاءات العديدة ومراجعة المذكرة وأفادتي بتوجيهات ونصائح سديدة وقيمة.

الفصل الأول: نبذة عن تاريخ وحدود عين الصفراء

- الإطار الجغرافي

إذا كانت دراسة البيئة الجغرافية لأي قطر ضرورية لضم تاريخه، فإنه أكثر ضرورة في فترة الاحتلال الفرنسي لإقليم عين الصفراء -الجنوب الغربي- خاصة وأن هذه البيئة تؤثر في الحياة القبلية أيما تأثير، فبدونها لا نستطيع التعرف على القبائل القاطنة بها ونوع النشاط الممارس وكذا المسالك المتواجدة بها، ولا بد من الإشارة إلى الجغرافية الاجتماعية لفهم النزاع الذائب بين سكان السهول الذين يحنون إلى الاستقرار بالمدن وبناء حضارة، وبين البدو الذين يمارسون تربية الأنعام (الإبل والغنم)، وبحثهم المستمر والدائم عن مناطق الكلا للظفر والاستتفاع بخيراتها.

ينحصر الإقليم العسكري لعين الصفراء بين دائرتي عرض (30° و 38°) شمالا وخطي طول (1° و 6°) غربا، فلا يمكن إيجاد أي عوائق أو حواجز طبيعية، مجمل حدوده إدارية محضة، حيث تقدر المساحة الإجمالية للإقليم بـ: 44,340,000 هكتار¹، منها 6/5 خاضعة للإدارة الاستعمارية الفرنسية.

كما أسفنا الذكر، فإن حدود الإقليم العسكري إدارية من وضع إدارة الاحتلال، حيث حددت في شكل خط يفصل بين الأقاليم المجاورة، فبدأ هذا الخط من ثنية الساسي بالشمال الشرقي، مرورا بجنوب العريشة وبيدو، ويمتد إلى غاية الجنوب الغربي، أي عند بوقرن، ويحادي ضفة الشط الشرقي الذي يقطع الجهة مرتين، ثم يمر بنحو 01 كيلومتر جنوب الخيتر^{*}، ويتجه بعد ذلك نحو عمي الشرقي، حيث يستغل للمرة الثالثة بين هذه النقطة وحامية الإبل، ثم يسير على خط مستقيم، يمين سيدي الناصر، ليعاود اتخاذ وجهته نحو الجنوب بضواحي "تولالا" مرورا "بالمایل" ثم بجزء منه عند واد المحيقن، ثم نتجه مباشرة نحو

¹ ED. Déchaud, la population de l'Oranaie d'après le dénombrement de 1911 Imp. L. Fouque, Oran, 1913, pp07-17.

* الخيتر: تقع بالقرب من الشط الشرقي وهي عبارة عن مضيق استغل في طريق السكة الحديدية، حيث يعد صلة وصل بين التل والجنوب، وبذلك تبعد عن عين الصفراء بنحو 185 كلم، يقطنها أبناء سيدي خليفة الأشراف، الذي يعود أصلهم ونسبهم إلى فاطمة بنت الرسول حسب بن علي حشلاف، وكانت تسمى هذه القرية في العهد العثماني بـ: "محمدية" واسم الخيتر يعود والد سيدي خليفة وهو محمد لشبور أو الخيتر. ينظر: خليفة بن عمارة، كتاب النسب الشريف، ترجمة بوداود عمير، مكتبة جودي مسعود، الجزائر، 2009، ص.ص 124-132.

الجنوب من أفليس والالتفاف للشمال إتباعا لواد أفليس من حاسي "بورباوة" بعدها تسير في خط مستقيم بجهة الجنوب الغربي وصولا لبئر "تاغماننت"¹ بمحاذاة الجانب المغربي (المملكة المغربية)، ففي هذه الأجزاء لم يتم رسم الحدود طبقا لمعاهدة لالة مغنية المبرمة في 18 مارس 1845، استنادا للمادة الرابعة حيث تنص على "عدم وجود أي حدود إقليمية معتمدة وذلك لأن الأرض مفتوحة وغير واضحة المعالم"²، كما تنص المادة السادسة من الاتفاقية على أن "الأراضي الواقعة جنوبا صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا سكان فهي جرداء قاحلة..".

وعلى هذا الاعتبار فإن كل من توات وقورارة وتيديكالت مناطق خارجة عن السيادة المغربية والسلطة الفرنسية، وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد أن المغرب قد غALT فرنسا في هذه المعاهدة، بهدف ضم تلك المناطق لأراضيه، بيد أن الإدارة الاستعمارية عملت كل ما في وسعها لإنهاء مشكلة الحدود التي كثيرا ما عانت من ويلاتها، خصوصا بعض اضطرابات قبائل بني يزناسن ما بين سنتي (1852 و1859)³.

هذا قد استمر الخلافات والمشاكل على الحدود ولم تهدأ الأمور، بالرغم من المحاولات المتكررة من طرف الحكومتين -المغربية والفرنسية- إلى غاية عقد بروتوكول 20 جويلية 1901⁴، الذي يتضمن إتمام معاهدة لالة مغنية 1845، تحت إشراف وزير الخارجية الجمهورية الفرنسية السيد دلكاسي (Delcassé) ووزير خارجية الحكومة المغربية.

وتتمت فيه أيضا تمديد خط الحدود من ثنية الساسي نحو الجنوب، ثم إخضاع القبائل القاطنة على الحدود خاصة دوي منيع وأولاد جرير، وبذلك الاعتراف المغربي لفرنسا شرعية تواجدها في واحات توات وقورارة⁵.

¹. C.Meissner, Monographie du Territoire d'Ain Sefra, Imp.-L.Fouque, Oran, 1914, p05.

². Renou Emilien Jean (1815/1902), Description Géographique de l'Empire de Maroc, Suivie et Renseignements Sur le Pays de Sous et Autres Parties méridionales du Maroc, Impropyale, Paris, 1846, p462.

³. إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية (1934/1837)، دار هومة، الجزائر، 2002، ص342-358.

⁴. وينص هذا البروتوكول على احترام معاهدة لالة مغنية وتنفيذها على وجه الذي جاء في البروتوكول وذلك في ناحية الجنوب الغربي، وتقوم الدولتان بتمتين روابط المحبة وتنمية حسن الجوار، وإبقاء أرض المملكة الشريفة على تمامها وتحسين أحوال القبائل المجاورة لها. ينظر: إبراهيم مياسي، المرجع نفسه، ص388-389.

⁵. إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص376.

هذا وبعد تأزم الوضع بين فرنسا وألمانيا التي حاولت الظفر يستعمر خاصة بها كمنظيراتها من الدول الأوروبية، فدعا الإمبراطور الألماني غيوم الثاني بطنجة سنة 1905 إلى عقد مؤتمر لبحث المسألة المغربية ووضع حد نهائي لإطماع الدولة بها.

عقد مؤتمر الجزيرة من طرف الدول الأوروبية بإسبانيا سنة 1906 والذي أقر باستقلال المغرب والملاحظ أنه بعد هذا المؤتمر أصبحت لدى السلطات الفرنسية أوسع الصلاحيات لمراقبة الحدود الجزائرية-المغربية، حيث قامت وزارة الحربية بتكليف النقيب بول آزان♦ (PAUL AZAN) بمراقبة الحدود خلال شهري نوفمبر-ديسمبر 1906.

وبالعودة إلى الدراسة الجغرافية، فإن الإقليم من حيث البنية التضاريسية ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية وهي:

1- منطقة السهوب (الشمال): تمتد هذه المنطقة من الشط الشرقي إلى غاية سلسلة جبل مكثر وتضم عدة سلاسل جبلية منها جبل عرعار وجبل بوخشبة وجبل عيسى الذي شيه كثيرا الخليج لذلك يطلق عليه أهالي الإقليم اسم البحر، حيث يصل عمقه حوالي 50 متر، مقسم إلى قسمين الطرف الغربي يعبر مسلك مشرية إلى فرطاسة عبر عين بن خليل، أما الطرف الشرقي فيمتد من مشرية إلى عين الصفراء عبر النعامة ومكاليس¹.

بين جبل مرغاد وجبل عيسى نجد سهل فيجات البطوم الذي يمتد بحوالي 10 كلم والذي يقدر ارتفاعه نحو 1550م، وينتهي عند جبل أمرق المتصل بالضفة

♦ بول آزان: كان المنتدب في اللجنة التاريخية لأركان الجيش وكلف بمراقبة الحدود سنة 1906، فقد جاب هذا الضابط من البحر إلى الجنوب الوهراني، وتوقف عند كل المراكز التي نصبت على الحدود وسجل كل الانطباعات السائدة حول الأمن والأوضاع القائمة بالمنطقة، وتحدث عن التطورات التي وقعت بالجنوب الغربي، وأوضح كيف عمّرت وتطورت بفعل التسهيلات التي منحت للمعمرين، كما تحدث عن صدى مؤتمر الجزيرة بفيقيق وقير، وعن التنظيمات العسكرية التي يقوم بها ليوتي في الجنوب الوهراني، كما تحدث كثيرا عن مكانة الشيخ بوعمامة في أوساط القبائل الحدودية، وعن تحركاته إلى عماله وجدة، كذلك أخذت السلطات الفرنسية كامل الاحتياطات اللازمة للمواجهة في حالة الهجوم على الحدود. ينظر:

Paul Azan, la Frontière Algero-marocaine au début de 1907, Tonnerre, Bally, Puffaces, 1907.

¹. MomocCarthy, Dictionnaire Géographique Economique Politique de l'Algérie, Alger, 1858, pp406-407.

الجنوبية لسبخة الشرقي¹، أما جبل مرغاد الذي يمتد بحوالي 24 كلم ويضم بامتداده هذا نحو الشمال عدة مصدات منها ضلعة العفرة والحجرات الطوال وجبل حرازة في الجهة الجنوبية لسفيسيفة وتنتهي بتقارب في ارتفاعها عند رأس الطويل بنحو 2105م².

بينما يمتد جبل بوعمود لمسافة 132 كلم من ثنية البقرة إلى سفيسيفة مشكلا قوس دائري، فهو جبل قاحل متوسط علوه 1650م، أما في الشرق نجد جبل الحيرش يفصله عن مرغاد ثنية الغزالة الذي يتصل بفאיحة البطوم سهل المحيزن، فهذا الأخير منحصر بين جبل مرغاد وبوعمود يقطعها واد بومباتة، فجبل الحيرش يتميز بغطائه النباتي المتوسط خاصة في السفح الشمالي، فيما تشكل البحيرة³ الجهة القاحلة بهذا الجبل.

عموما يمكن القول أن منطقة السهوب بالجنوب الوهراني، تتميز بخصائص تجعلها منفردة عن الجهة الشرقية للبلاد، حيث تقل نسبة التساقط بالجهة الغربية وهو ما ينعكس على الغطاء النباتي الذي يظهر بوضوح على السطح في شكل متقطع ومتباعد، وتكسوا هذه المناطق الحلفاء بشكل واسع الانتشار، بالإضافة إلى النباتات الرعوية، وبالتالي هي منطقة صالحة للنشاط الرعوي بامتياز.

2- منطقة جبال الأطلسية: تمتاز هذه المنطقة بطغيان الطابع الجبلي الذي يجمع عدة سلاسل متلاحمة فيما بينها، التي تمتد من سهل تاملالت المنحدر ومن جبال القصور إلى الراب مرور بجبال العمور وأولاد نايل، وفي هذه الأثناء تتواجد بمنطقة عين الصفراء عدة سلاسل هامة نذكر منها:

- جبال القصور: تمتد من فيقيق إلى جرفيل، وهي السلسلة الفاصلة بين الصحراء الصغرى والصحراء الكبرى، فالعديد من هذه الجبال في الحقيقة بمثابة حصون عسكرية محاطة بنوع من الأسوار⁴، وتضم جبال القصور السلاسل التالية:
- جبل مكثر الذي يقع في الغرب، وهو آخر جبل رئيسي في السلسلة يشغل حوالي 28 كلم من واد الصفراء حتى واد زويغي (فرع لواد البريج)، ارتفاعه

¹ C. Meissner, op.cit, p6.

² G.Quenard, Monographie du Territoire d'Ain Sefra, 1953, Dactylographiées (A.W.B) pp05-06. Voire Aussi, L.Meyson, Monographie de l'Annexe d'Ain Sefra (Mise a Jour 31/12/1957, Dactylographiées, Ain Sefra 1958, pp05-08.

³ C. Meissner, op.cit, pp06-07.

⁴ Flexy Jacquot, Géographique des Colonies Françaises, Cours Spécial Imp. Poussielgue Frères, Paris, 1887, pp32-34.

يقدر بـ 1950 متر، والملاحظ أن الكثير من نقاطه تقارب 2060 متر، منها رأس الشرقي حيث وضعته السلطات الفرنسية كمركز لمراقبة¹ تحركات القبائل في الجنوب الغربي.

• مير الجبال المنفصل عن مكثر بطرق الجبلية يرتفع نحو الشمال الغربي وينتهي تدريجا قرب "بن يخو" فعلوه يصل إلى 1850م، ولا يوجد به أي نقطة ماء².

• جبل أمزي المنفصل عن مير الجبال بطوق فوناسة شمال شرق وجنوب شرق ينتهي تدريجا عند "خنق تاسفونات"، على مسلك حجرة المقييل* المحاذي لقصر يش (ICH) يمتد بطول قدره 180 كلم ومتوسط ارتفاعه 1700متر، والملفت للانتباه فإن هذا الجبل كباقي جبال المنطقة لا توجد به نقاط مياه دائمة إلا بعض الأغادير التي تجف في فصل الصيف.

• طوف فوناسة، يقدر امتدادها بحوالي 12 كلم، معقدة التضاريس وصعبة المنحدرات، وقد هئئت بها طريق العربات التي كانت تربط عين الصفراء بجنين، بالإضافة إلى ذلك تتعرض منطقة الجنوب الغربي لهبوب الرياح الجافة الخفيفة ولكنها لا تلبث أن تتحول إلى زوابع رملية هوجاء، التي تعرقل جميع أنواع النشاط البشري منها السيروكو، والخماسين، والشهيلي، وتختلف شدة الرياح من منطقة لأخرى³ بضواحي إقليم عين الصفراء، كما يتميز الجنوب عامة بندرة سقوط الأمطار وعدم انتظامها، فقد قدرت الكمية المتساقطة في الفترة ما بين 1907 إلى 1912 من الأمطار من 8 إلى 312 ملم في محور المشرية، و 09 إلى 195 ملم بعين الصفراء ومن 01 إلى 321 ملم بالبيض⁴.

¹. Capitaine Meissner, Territoire Militaire d'Ain Sefra (Sud Oranais), S.G.A.O, Tome XXXIV, Imp. L.Fouque, 1914, pp32-33.

². Ibid, pp27-28.

• حجرة المقييل: تقع بالقرب من جنين بورزق التي تبعد عنها بحوالي (30 كلم) جنوبا باتجاه بني ونيف، وهي عبارة عن مركز اتخذها الفرنسيين قبل احتلال بني ونيف حيث تطل على الطريق الرابط ما بين فقيق الحدودية وبشار.

³. G. Malleterre et P. Legendre, Atlas Colonial et des Colonies Françaises, Librairie CH. Delagrave, Paris, 1902, pp11-12.

⁴. C. Meissner, op-cit, pp23-24.

بالإضافة إلى سقوط الأمطار تشهد منطقة الجنوب الغربي ارتفاع درج التبخر بفعل الحرارة وارتفاع المدى الحراري حيث قدرت نسبة التبخر بعين الصفراء بـ (2.773م/م بالبيض: 1500م/م ما بين 1907 إلى 1911م).

بينما تقل كلما اتجهنا أكثر نحو الجنوب، وهو ما ينعكس على الغطاء النباتي التي يتميز بالضالة وقلة الانتشار، إلا في بعض الواحات التي يسهر عليها أصحابها ويعكفون على زراعة أشجار النخيل[♦] التي تعتبر مورد مهم الأساسي بإنتاجها مادة التمر، والذي يعد الغذاء الأمثل لسكان الصحراء والجزائر عامة. كما تنتشر بالمناطق الشمالية للصحراء نبات الحلفاء التي تتواجد بكثرة في كل من عين الصفراء مشرية والبيض، فقد أضحت هذه المادة محل اهتمام كبير من طرف السلطات الاستعمارية¹، وبعض المؤسسات الإسبانية التي كثفت أشغالها بالإقليم لنهب واستغلالها لخدمة مصالحها، كذلك تزخر المنطقة بطابعها السهبي الرعوي الذي أهلها لأن تحتل الصدارة في تربية الأغنام، وهو ما أسال لعاب الضباط الفرنسيين وشجعهم بالتوسع نحو الجنوب الوهراني بهدف الظفر بالأرباح التي يسحبها المعمرين والعسكريين من هذه الثروة.

بورزق، فجبال القصور محاطة جنوبا بصف من السلاسل الأقل ارتفاعا منها شبكة تادمينة، وجبل قرداشة وجبل قريديشة ومرتفع زروقي وشبكة زروقي والحمام².

● جبل جارة: ينفصل عن جبل مشاك حاضرة المكثر عبر "رابية عين الحجاج"[♦]، ويخترق بذلك واد الصفراء عند مسلك السكة الحديدية عين الصفراء إلى بشار، متوسط ارتفاعه حوالي 1400 متر، ومن خصائصه أنه جبل قاحل لا تكثر به النباتات الرعوية، غير أنه يحتوي على بعض نقاط المياه التي تتردد عليها القطعان في أغلب الأحيان، وترعى إما في واد الصم أو سهل تيبوت³.

● جبل غنجاية الذي يقدر امتداده حوالي 23 كلم تقريبا ومتوسط ارتفاعه 1200 متر ويفصل بين جبل غنجاية وعين عيسى واد "تيورطلت" وهو يحتوي أيضا

♦. تعد واحات توات وقورارة بالإضافة إلى دائرة بشار وملحقة بني عباس الأكثر اهتماما بزراعة النخيل، حيث تقدر عدد النخيل بمركز قورارة نحو 757.000 نخلة، وبملحقة توات 441.925 نخلة.
1. أعلن الحاكم العام منذ سنة 1891 بمنع استغلال الحلفاء المتواجدة جنوب الشط الغربي بالمنطقة الشاسعة الممتدة من الخيثر ومشرية إلى غاية البيض شرقا، واعتبرها ملكية تابعة شرعا للشركة الفرنكو جزائرية التي لها امتياز استغلال الحلفاء مقابل إنشاء خط السكة الحديد إلى غاية بشار. ينظر: L'écho du Sud (Journal de l'Intérêt de Saïda et des Hauts Plateaux), N°9, Vendredi 2 october 1896.

2. L.Meyson, Monographie de l'Annexe d'Ain Sefra, op.cit, pp06-10.

♦. عين الحجاج: تقع بالقرب من مفرار التي تبعد بنحو 60 كلم عن عين الصفراء، وهي عين ماء كان يردها الحجاج القادمين من أقصى الجنوب وتعد ملتقى الحجيج بالمنطقة.

3. C. Meissner, op.cit, p09.

على بعض التلال الصخرية كحجرة سيدي عيسى وضلعة بولغفاد التي يصل ارتفاعها إلى 1350 متر، بالإضافة إلى جبل جابر، الجراوين، وجبل إبراهيم 1615 متر، وجبل بوسيت 1645 متر¹.

وباتجاهنا نحو البيض (جرفيل) مروراً بعين أوراك إلى الرباوات نجد العديد من السلاسل الجبلية المتصلة فيها بينها مشكلة طريقاً مستويًا منها جبل مأكنة وجبل طويلة وبن رضوان. أما من ناحية الشرق فتكتل الجبال يتوسع مشكلاً العديد من القمم المتوازية، كجبل بودرقة وجبل البيوض، حيث أن هذا النظام الجبلي يشبه كثيراً جبال العمور، فهذا التوازي يشكل أخدود ما بين جرفيل وسيدي الناصر على امتداد 20 كلم أكثر إلى الشمال ويدعى هذا الأخدود السكين² الذي تشكل السبخة حافته.

والملاحظ في المنطقة المحاذية للأطلس وجود بعض الكتلان الرملية التي تشبه كثيراً السهل المنبسط والمتموج الذي تخترقه الأودية العابرة للصحراء، ويظهر في هذه السهول الرملية أخاديد كبيرة معقدة الأشكال والتي يصفها فلاموند (M. FLAMAND) "بأنها تشبه قلعة مصرية أبوابها متجهة نحو الرياح وهي عبارة عن أنفورة أثرية، بأبعاد ضخمة"³، وعند ملك سليمان نلمح أعمدة تظهر بعلو 70 متراً⁴.

● جبل بشار: يمتد على طول 150 كم والأطراف المحيطة به من الشمال إلى الجنوب هي: الثنية، تاغانة، ثنية بني غيل، ثنية النخلة، وثنية الكريمة التي يصعب تجاوزها.

- المنطقة الصحراوية:

تختلف هذه الضاحية عن باقي المناطق الأخرى من حيث شكل التضاريس حيث نجد في جنوب بشار (كولومب) المنطقة الجبلية الشبكية، وهو اسم يطلقه العرب على هذه السلاسل باختلاف تضاريسها عن باقي الجبال، منها شبكة جيهاني، المنونة وشبكة الرواينة، عموماً هي صعبة التضاريس وتكثر بها الأودية

¹ L.Meyson, op.cit, pp12.

² C. Meissner, op.cit, pp11-12.

³ G.B.M. Flamand.

⁴ De la Martinière et N. Lacroix, Document pour Servira a l'Etude du Nord Ouest Africain, par ordre de M. Jules Cambon, Imp. G.G.A, Tome IV (les Oasis de l'Extrême-Sud), Alger, 1897, pp09-15.

والتعرجات الخطيرة، وتأتي بعدها منطقة "القور" التي تحد "الغير" حتى بحريات¹.

بينما الغور: هي عبارة عن صخور هائلة بشكل طوليات وموائد صحراوية ليست سوى بقايا "حمادة" قاومت لعدة سنوات التآكل والانجراف، حيث تتواجد "الغور" بالهضاب أو في جوانب السهول، بينما يتراوح علوها ما بين 60 إلى 100 متر². وتتشكل بينهما هضاب قاحلة هي في الحقيقة عبارة عن صحراء صخرية، أو ما يسمى بالحمادة³، وكلما اتجهنا نحو الجنوب يتضح جليا الكثبان الرملية مشكلة العرق الغربي الكبير على طول ضفاف وادي زوزفانة شرقا إلى حاسي بوزيد شمالا على رابية وادي سقور³، أما من الناحية الغربية يحده سهل ميزاب في المنبوعة أما في الجنوب فنجد تقرت ممتدا بنحو 600 كلم، بالقرب من وادي مقيدن تنتشر بعض العروق التي تمتد إلى سفوح هضاب تادميت مشكلة سهول عظيمة، تفصل وادي غير وواد الساورة⁴.

أخيرا في غرب الساورة، تظهر المنطقة الجبلية أو غرطا، يقطعها كل من جبل رايب، جبل الكحلة، جبل النعامة، وجبل غنومة، وباتجاه الغرب يتواجد عرق الراوي، أما من ناحية الجنوب فعرق الشاش.

الشبكة الهيدروغرافية (المياه):

من الناحية الهيدروغرافية، يمكن أن نميز بإقليم عين الصفراء ثلاث مناطق مختلفة تماما عن بعضها البعض من حيث توزيع وانتشار منابع المياه والأودية وهي:

أ- منطقة السبخات: حيث يتم فيها جريان المياه نحو الشمال، ففي هذا الركن لا وجود للوديان فالمنطقة تحتوي أحواضا صغيرة مالحة ويظهر ذلك جليا بعد عملية التبخر بفعل الارتفاع الكبير لدرجة الحرارة مقارنة بالمناطق التالية، ومن أهم تلك السبخات:

¹. Ibid, pp12-14.

². Camille Sabatier, Touat, Sahara et Soudan, Etd.Gego et Militaire Ed, Société Scientifique, Paris, 1891, pp 46-47.

• بعد العودة من بعثة فلاترس السيد برنارد وبيرني وروش ذكر بأن "الحمادة موقعها أسفل الكثبان الرملية (العرق)، وهي مساحات تفتقر للغطاء النباتي الذي يكاد ينعدم بها، ينظر: Camille Sabatier, op.cit, p48.

³. De la Martiniere, Lacroix, Nord Ouest Africain, Tome II, op.cit, pp20-26.

⁴. Ibid, pp14-17.

● سبخة الشرقي الواقعة في الحد الشمالي للإقليم تمتد بحوالي 200 كلم وبعرض نحو الشرق يقدر بـ 30 كلم¹، وتنقسم إلى حوضين بمضيق الخيثر الذي استغل كطريق السكة الحديدية التي تربط مشرية بسعيدة²، وتتغذى هذه السبخة من واد الشرفة الذي يجمع مياه جبل البيوض وجبل الكسل وواد الكاف الأحمر، ويلتقي بعدة مجاري لوديان مختلفة منها واد كريمة وواد كبوة "جيدات" القادم من شمال سفيشيفة.

● السبخة الغربية: تتكون من سبختين ثانويتين وهما سبخة المحايا وسبخة الحميان الواقعتان غرب مشرية وعين بن خليل، والتي تتغذى من عدة أودية أهمها واد بوعمود المتواجد بالقرب من سبخة التيقري، بينما في الهضاب المنفصلة الواقعة بين السبختين تظهر وديان جافة ونائمة، لا تجري إلا في زمن نزول الأمطار منها عقلة نجاية، حاسي بوضروس، عقلة مرة، عقلة مرسى، لذلك يمكن الجزم بأن السبخة الغربية لها أهمية كبيرة وخاصة في الجانب الرعوي³.

ب- منطقة المنحدر أو السفح الصحراوي:

تندفق مياهها مباشرة نحو الصحراء أو الجنوب وتكثر بها السلاسل والوديان العميقة والواسعة، وتضيق تدريجيا عند مدخل منطقة الكتبان الرملية، أي عند العرق الغربي الكبير ومن الأودية المستمرة في هذه المنطقة واد زوزفانة وواد الناموس، واد غربي، واد سجود، واد بني الفندي الذي تسقى منه واحات بويعلی وفندي، ثم تواصل المياه جريانها نحو تاغيت وإيقل⁴. بالإضافة إلى واد بني عباس الذي يحظى بأهمية كبيرة، حيث تتغذى منه عدة واحات ويشكل على ضفافه مراعي مخضرة وواسعة طول فترة التساقط.

ت- منطقة الحوض التواتي:

أخيرا في هذا الحوض، المياه تجري باتجاه شمال شرق وجنوب غرب، حيث القسم العلوي منه هو سبخة قورارة، فهاته الأخيرة تمتد باتجاه الجنوب الغربي عبر سبخة تسابيت، بودة تيمي، وسبخة فيتوغيل، وبعدها حدود الإقليم عبر سالي وأولاد رحو⁵.

¹ C. Meissner, op.cit, p13.

² M. Forestier, Notice sur les Chemins de Fer Algérien, Alger, 1900, p24.

³ C. Meissner, op.cit, pp13-14.

⁴ Capitaine Bert, Monographie du Poste d'Igli, Ministère du Sahara, (S.D), pp01-04.

⁵ C. Meissner, op.cit, pp18-19

تضم سبخة قورارة ثلاث أحواض وهي كالتالي: سبخة الظهراني والشرقي، والشبلي والتي تستقبل المياه القادمة من الشمال الشرقي عبر واد صالح الذي تنتشر على ضفافه واحات "تينركوك".

وبالإمكان القول أن سبخة الظهراني والشرقي، محفوفتان على ضفتيهما الشرقية بواحات عربية وأخرى لقبائل بربرية (زناتية-مقاطعة الخنافسة) وعلى الضفة الغربية تتواجد واحات أولاد سعيد بتميمون.

تنتشر بالمنطقة بعض الوديان الميتة التي تنشط إلا في فصل التساقط مثل واد الرمال، واد الساورة وواد الحمار، فهذه الأودية مفاجئة وتشكل خطرا على الواحات المنتشرة في المنطقة الصحراوية وعند جريانها تؤثر سلبا في بعض الأحيان على محاصيل الفلاحين، حيث أنه في عام 1907 أدى جريان واد قصر الحاج الذي بلغ إلى غاية أوقروت وقام بقطع واحات النخيل لقصر "تبيركامين" وقصر الحاج و"أقبور" و"أدفور" ولم يتوقف إلا عند واحات زاوية سيدي عومر مشكلا أغادير بلغ طولها 1500 متر، أما عرضها تراوح ما بين 300 متر و400م، فيها جرف العديد من أشجار النخيل وأتلف بعض المحاصيل الزراعية¹.

● المناخ: ينقسم بدوره مناخ إقليم عين الصفراء إلى أربعة وهي: -منطقة السهوب -المنطقة المحاذية للأطلس الصحراوي -المنطقة الجبلية، وأخيرا المنطقة الصحراوية، فكل منطقة من هذه المناطق لها مناخ خاص بها يميزها عن البقية، غير أنها تتشابه في بعض الأحيان، لكن القاسم المشترك هو الفرق في درجات الحرارة النهارية والليلية، سببه الأساسي غياب الغطاء النباتي وقلة التساقط وهبوب الرياح المختلفة وارتفاع درجة التبخر.

فبعد الاختبارات التي قامت بها محطة الأرصاد الجوية التابعة للسلطة الفرنسية، طبقا لهذه المعلومات الموضحة في الجدولين الآتيين:

الشهور السنوات	جانفي	فيفري	جويلية	أوت
1907	°7-°4	°13-°2	°43	°40
1908	°4-°0	°4-°0	°41	°40

¹. C. Meissner, op.cit, p19.

°39	°40	/	°0-°7	1909
°40-°6	°41	°0-°3	°0-°4	1910
°42-°2	°42-°8	°0-°1	°0-°7	1911
°45-°4	°44-°9	/	/	1912

جدول يوضح تطور درجات الحرارة ما بين 1907 إلى 1912 بالمنطقة السهبية¹.

أما الجدول الثاني خاص بالظروف المناخية واختلاف درجات الحرارة بين منطقتي عين الصفراء والبيض الواقعتين بالمنطقة الجبلية الأطلسية خلال ستة أشهر من جانفي إلى أفريل ثم نوفمبر وديسمبر².

1912	1911	1910	1909	1908	1907	
°48-°4	°46-°7	48-°7	°53	°47	°51	البيض
°51	°52-°6	°41-°9	°54	°50	°50	عين الصفراء

يتضح من الجدول بأن متوسط درجة الحرارة بالنسبة للبيض ما بين 49° و 1° وهو ما يدفع بالقول أن منطقة مشرية أشد برودة من مدينة البيض، بينما متوسط درجة الحرارة بعين الصفراء يتراوح ما بين 9° و 49°، لذا فالاختلاف الأقصى يظهر في الشهرين اللذين يليان الانقلاب الصيفي أي في أوت وجويلية، لكن متوسط درجة الحرارة تكون عالية في شهر جوان سبتمبر وأكتوبر. بينما في المنطقتين الحاريتين من الإقليم فتوضح نتائج الاختبارات الاختلاف الكبير في درجات الحرارة القصوى والدنيا كما هي موضحة في الجدولين³:

أكتوبر	سبتمبر	جويلية	جوان	الأشهر المناطق
°38-°8	°34-°7	°45	°36-°5	بني ونيف
°39	°36-°6	°46	°38-°7	بشار

¹. C. Meissner, op.cit, p21.

². Ibid, pp21-22.

³. Ibid, p22.

يتضح جليا أن الفروق درجات الحرارة الدنيا والقصى أقل من المنطقتين السابقتين لأنها أقل برودة، بحث لا تقل عن 46° في بني ونيف و47° بالنسبة بشار.

أما بالنسبة للمنطقة الصحراوية، فتبدو درجات الحرارة مرتفعة جدا مقارنة بالمناطق الأخرى فالمعلومات التي يحتويها الجدول والمأخوذة من مصلحة توات على سبيل المثال توضح هذه الفروق¹:

	1903	1904	1907	1908	1909	1910	1911	1912
جاند في	°2-°8	°2-°8	°1-°2	°1-°3	°6	°5	°5	°6-°0
فيفري	/	°1	°3-°1	/	/	°4	°3	/
جويية	°52-°3	°50°3	°52-°3	°50	°55	°52-°7	°49-°8	/

فالارتفاع درجة الحرارة خصوصا بالمناطق الصحراوية كأدرار وعين صالح وتوات إلى أكثر من 52° درجة والتي تنخفض في فصل الصيف إلى ما دون الصفر، يكون بهذا المدى الحراري كبير جدا.

أما بالنسبة للجانب البشري، فإن الجنوب الغربي يتميز بضالة السكان رغم المساحة الشاسعة، وينقسم السكان بذلك إلى قسمين البدو الحضر، فالبدو يمارسون النشاط الرعوي وتربية الأنعام لذلك يقومون بعملية الترحال بحثا عن الكأ والماء أو ما يسمى "حركة العشابة" ♦ أما الحضر فهم يعيشون داخل القصور أو القرى بحيث يمثل القصر الخلية الأساسية للتنظيم الاجتماعي وحتى السياسي في بعض الأحيان وملتقى الأسواق التجارية.

فسكان الجنوب الغربي عامة ينحدرون من ثلاثة أصول مثل أغلبية سكان المغرب العربي البربر أو الزناتيون القادمون من ضواحي تلمسان واستقروا

¹. Ibidem.

♦ هي تلك التنقلات والترحال الذي كانت تمارسه القبائل البدوية بالجنوب الغربي، للبحث عن الكأ والمراعي في فصلي الصيف والشتاء، فعلى سبيل المثال، قبيلة المرينات كانت تخيم في فصل الشتاء في كل من الفايحة والغويية وجنوب مغرار أما في الصيف فتخيم في مير الجبال وجبل أمزي، و أكثر أي جنوب عين الصفراء وسفيسيفة.

بتوات، بالإضافة إلى العرب البدو والقصوريين والزنوج والحراطين¹، وقد تواجد اليهود* بشكل واسع في الجنوب الغربي حيث كانوا يمتهنون التجارة والحرف التقليدية المتنوعة، إلى الجانب المزابيين والقبائل (زواوة). ومهما كانت أصول السكان مختلفة، فإنهم ارتبطوا بأرضهم وتأقلموا مع الظروف الطبيعية الصعبة، وتمكنوا مع مرور الزمن أن يشكلوا نسيجاً عمرانياً متآلفاً.

- نبذة تاريخية عن المنطقة

لا يكاد ينفصل تاريخ الصحراء الجزائرية عامة، والجنوب الغربي خاصة عن تاريخ الجزائر العام، الذي يشكل سلسلة ذات حلقات متصلة فيها إلا في بعض الظروف الاستثنائية، والحالات الطارئة التي كانت تحدث من حين لآخر. فقد شهد الجنوب الوهراني تعاقب العديد من الحضارات منذ العصور الحجرية، فالشواهد الأثرية التي عثر عليها من قبل الرحالة الألمان والضباط الفرنسيين أثناء توغلهم في المنطقة دليل واضح، خصوصاً الكتابات الجدارية المنتشرة بكثرة بإقليم عين الصفراء العسكري، من جنوب سعيدة إلى حدود توات، قورارة وعين صالح.

فأول عمل نشر حول الرسومات في الأطلس الصحراوي، كان من طرف النقيب مومني (C.MOMENY) سنة 1901 ثم تلتها عدة أعمال منها ما توصلت إليه بعثة ل.فرونيوس (L.FEROUNIOUS) سنة 1914²، حيث قدرت عدد المحطات الأثرية بحوالي 15 محطة حسب ي إليو بضواحي عين الصفراء والبيض³. كما لوحظت نقوش لعربات بكثرة، مما يوحي بأن الجنوب الغربي وخلال هذه الفترة كان منطقة عبور مع تسجيل كافة المسالك المرورية بين الشمال والجنوب والشرق والغرب.

¹. Ismael Hamet, les Musulmans Français du Nord de l'Afrique, Librairie Armand, Paris, pp84-11.

*. اشتهر إقليم عين الصفراء بتواجد عدد كبير من اليهود القادمين من المغرب وبالأخص من فتيق وتافيلالت الذين كانوا يمارسون الحرف التقليدية كصناعة الحلي والمجوهرات والبقالة، وقد قدر عددهم بعين الصفراء عام 1926 بحوالي 130 نسمة أما بمشرية بنحو 57 نسمة، والبيض 287 نسمة، أما ببشار 18 يهودياً وأخيراً بتيميمون نحو 7 يهود. ينظر:

G.G.A. Territoires de Sud de l'Algérie, 2^{ème} partie, l'Œuvre Accomplie 01 janvier 1903, 31 décembre 1929, Imp. Algérienne, Alger, 1929, pp638-639.

². خليفة بن عمار، تاريخ الجنوب الغربي الجزائري، ترجمة بوداود عمير، دار القدس العربي، الجزائر (2013)، ص17.

³. خليفة بن عمار، المرجع نفسه، ص17.

وقد أشار الزوجان كرونو فان (CRONEVIN) إلى أن ر.موني (MOUNY) هو الذي تمكن من تحديد طريق العربات¹ الذي كان ينطلق من الجنوب الوهراني والجنوب المغربي، ليعبر الصحراء الغربية وموريتانيا وصولاً إلى تشاد والنيجر، وذكر أيضاً ج.ب.فلاموند (G.B.FLAMAND) في دراسته الشهيرة حول الصخور المنقوشة في الجنوب الغربي الوهراني سنة 1892، والذي أوضح من خلالها مدى تقدم إنسان المنطقة الذي كان متحضراً لدرجة فاقت عصر النيوليتك².

وفي ربيع 1904 تمكن النقيب دوسنين (C.DOUSINIER) من اكتشاف جزئي للأنصاب المستديرة، وهي مقابر لجأ إليها الإنسان القديم لدفن رفات الأموات بطرق محترمة، وبعدها تم اكتشاف مقابر التومولوس (TUMULUS)، وهي نوع من المقابر الأكثر انتشاراً في الجنوب الغربي، وقد هتم عدد كبير من الباحثين بهذا النوع على غرار أف.غوتي والنقيب نورماند (NORMAND) الذي حدد وجودها من عين الصفراء إلى تاغيت جنوباً³.

ونظراً لأهمية الموقع الجيوستراتيجي للجنوب الغربي، فإنه شكل معبراً مميزاً للعديد من القبائل والأمم بداية من العصور الحجرية إلى الفتح الإسلامي، نذكر منهم الأمازيغ وهم السكان الأصليون، والفينيقيون، وإن كانوا لم يتوغلوا كثيراً نحو الداخل، ثم الرومان والبيزنطيون الذين عملوا على تشييد الحصون والقلاع المنيعة على التخوم الشمالية للصحراء.

وقد كان للعرب الوافدين من شبه الجزيرة العربية خلال الفتح الإسلامي الأثر الكبير في تعمير شمال إفريقيا عامة والمناطق الصحراوية الخاصة، حيث تمكنوا أن ينصهروا مع السكان الأصليين، مشكلين أمة واحدة يرجع الفضل في تماسكها وتأخيها للدين الإسلامي الحنيف.

ومن المعروف أن أول القادمين إلى الجنوب الغربي الجزائري، وبأعداد ضخمة قبائل البربر ♦ الأمازيغية المنحدرين من الفرع الزناتي، وهم فرع من البتر

¹ M. et E.Gouvion: Kitab Aymane el Marhariba, Imp. Orientale Fontana, Alger, 1920.

² G.B.M.Flamand, Note sur les Stations Nouvelles ou Peu Connues de Pierre Ecrites du Sud-Oranais, Académie des Inscription et Belles Lettres, Année, 1892.

³ M. Petit, Note sur la Tumuli d'Ain Sefra, Imp. L. Fouquet, Oran, 1905, pp1-12.

♦ البربر: عند العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة، ومنه يقال بربر الأسد إذا زار بأصوات غير مفهومة.

المنحدرين من مدغيس بن بر المدعو الأبتري، والذين عاشوا بالهضاب العليا والأطلس الصحراوي فحسب ابن خلدون، فإن "جانا" أو "شانا" هو الجد الأول لجميع زناتة الذي كان لديه ثلاث أبناء تفرعت منهم قبائل زناتة¹ التي وجدها الفاتحين الأوائل بالجنوب الغربي.

بعد دخول الإسلام وانتشاره بين قبائل زناتة باكرا، دفع بعضهم إلى الثورة ضد والي القيروان وشكلوا مملكة سجلماصة الصفرية في الواحات الغربية سنة 757م (140هـ) ومملكة زناتة بني يفرن في تلمسان مع أبي قرّة سنة 765م (148هـ) وهما مملكتان تابعتان للتيار الصفري بالإضافة إلى مملكة اياضي تيارت مع ابن رستم سنة 761م (144هـ)². وفي هذا الإطار وجدت منطقة الجنوب الغربي واقعة بين تلمسان وتيارت وسجلماصة* نفسها بين مثلث يتألف من ثلاث ممالك خارجية (خوارج)، هذا ما دفع بالسيد: أ.ه.نويل (A.H.NOËL) يصرح قائلا: "إن زناتة الجنوب الوهراني انضموا للتيار الصفري من مذهب الخوارج"³، وبذلك أصبحت المنطقة مركزا حضاريا وتجاريا هاما خلال هذه الحقبة.

هذا وقد توافدت العديد من القبائل على المنطقة والتي يذكرها بتفصيل المؤرخ ابن خلدون في كتابه، بالإضافة إلى القبيلتين العربيتين، بنو هلال وبنو سليم القادمين من الحجاز، ويذكر ابن خلدون الصراع الذي كان قائما بين المعز الزيري والخليفة الفاطمي بالقاهرة وتلك الظروف التي دفعت بقبائل عربية خاصة بنو هلال وسليم لدخول المغرب العربي انطلاقا من سنة 1051م فقد قاموا بحصار المعز بالقيروان⁴، كان لمجيء الهلاليين أثر كبير في تاريخ المغرب العربي حسب ما أكدّه شارل أندري جوليان قائلا: "هو بالتأكيد الحدث الأكبر أهمية عبر جميع العصور الوسطى المغاربية"⁵.

¹. عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، مراجعة سهيل زكار، ج6، دار الفكر للطباعة والنشر، ص11-125.

². Ismaël Hamet, les Musulmans Français, op.cit, pp73-102.

* سجلماصة: مدينة تاريخية اندثرت الآن أسسها بنو مدرار في القرن الثاني للهجرة، عاصمة الخوارج إلى أن فتحها قائد الفاطميين جوهر الصيقل وتأسست بها الدولة الفاطمية في أوساط القرن 4 هـ.

³. A.H.Noel, Documents Pour Servir a l'Histoire des Hamyan, L. Fouquet, Oran, 1916, p10.

⁴. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المرجع السابق، ص202-211.

⁵. شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس 1978، ص189.

هذا وبالإمكان القول أنه طيلة ثلاثين سنة استخدم الحماديون محاربين عرب ضد مغراوة وهو ما دفع بالحماديين إلى إسكان حلفائهم الجدد بالزباب وتنازلوا لهم عن عدة مناطق وأراضي فلاحية وبالرغم من جهودهم المبذولة لم يتمكن الحماديون وحلفائهم العرب من التغلب على زناتة¹.

غير أنه بعد قيام دولة بني عبد الواد بتلمسان واشتداد عودها خاصة في عهد يغموراسن بن زيان الذي تغيرت في عهده التركيبة العرقية للجنوب الغربي بشكل ملفت للانتباه، بإدخال مجموعات وقبائل عربية جديدة.

عقب محاولة يغموراسن الفاشلة لاحتلال المغرب في سنة 1259م، وهي الفترة التي صادفت وفاة الملك المريني، وظهور خلافات حول تولى عرش، استغل بن زيان الظرف إلا أنه انهزم أمام قوات المرينية².

بعد عودته من الغزوة الفاشلة قرر الاحتفاظ بالقبيلة الهلالية لبني عامر بهدف مراقبة منطقة الجنوب وتثبيت موقعهم بين تلمسان وبعض جيرانهم من عر المعقل ♦ الذين كثر عبتهم حسب ما جاء على لسان ابن خلدون.

"كثر عبت المعقل وفسادهم.. فجاء يغموراسن ببني عامر هؤلاء من مجالتهم بصحراء بني يزيد وأنزلهم في جواره بصحراء تلمسان كيذا للمعقل... وتبعتهم بعدها حميان من بطون بني يزيد (منحدرة من عقبة بن يزيد) بما كانوا بطونا ناجعة... فصاروا في عداد بني عامر لهذا العهد"³.

ويذكر ابن خلدون بتفصيل هجرة بنو هلال وسليم وتمركزهم بالمغرب العربي وكيف اعتمد عليهم يغموراسن خاصة عرب الزغبة ♦ (بني عامر وحميان) الذي منحهم إقطاعا واسعا، بغية تأمين حدود مملكته الجنوبية من جميع الأخطار المحدقة به، وادخار محاربين لديهم الجاهزية الكاملة للقتال وفي كل الظروف.

¹. ابن خلدون، المرجع السابق، ص227-236.

². قدور الورطاسي، معالم من تاريخ وجدة، مطبعة الرسالة، الرباط، 1972، تونس، ص28-30.
♦ من أوفر القبائل العرب حظا موطنهم بالمغرب الأقصى مجاورين لبني عامر من رغبة بالقرب من أحواز تلمسان، وهم ثلاثة بطون، دوي عبید الله، دوي منصور، ودوي حسان، فلما ملكت زناتة بلاد المغرب دخل هؤلاء للمعقل إلى البلاد وتكاثروا وأصبحوا يدفعون الضرائب للحكومة المغربية وبنو قصور وزرعوا النخيل بنواحي توات والسوس. ينظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ص77-79.

³. ابن خلدون، المرجع السابق، ص55-59.

♦. وهي فرع من أبي الربيع بن نهيق بن هلال والتي تنقسم بدورها إلى خمسة فروع أساسية وهي: اليزيد، الحسين، مالك، عامر وعروة. وبنو يزيد أحفاد اليزيد بن عيسى بن زغبة ينقسمون إلى عدة قبائل من بينهم قبيلة حميان بن عقبة بن يزيد، أما العمور فتنحدر من عامر بن زغبة.

وقد شهدت المنطقة صرعا بين القبائل العربية بنو هلال وحميان بالإضافة إلى زناتة وكانت في مجملها صراعات حول مصاعب الحياة من ماء وكلاً وملكيّات متنازع عليها، فكانت الغلبة في آخر المطاف لقبيلة بني عامر وحميان اللتان سيطرتا على الأوضاع بالكثرة والحمية¹.

ونظرا للعداء الشديد بين الإمارات الثلاث المنبثقة عن الدولة الموحدية ومحاولة كل إمارة توسيع مجال نفوذها على حساب جارتها، فقد شهدت منطقة الجنوب الغربي عدة محاولات من طرف المرينيين من أجل إخضاعها لسلطانهم، ففي سنة 1370م لحق المرينيون أبي حمو موسى وحلفائه من بني عامر إلى غاية الجنوب الشرقي بعد هروبه من الجنوب الغربي، حسب ما أكده ابن خلدون قائلا: "رجعت العساكر من هناك فسكنت على قصور بني عامر بالصحراء قبلة جبل راشد التي منها إلى أربا وبوسمغون، وما إليها، فنهبوها وخربوها وعاثوا فيها فسادا، وانفكوا إلى تلمسان"².

ويذكر يحيى ابن خلدون بدقة تفاصيل رجوع أبي حمو موسى إلى الجنوب الغربي بعد فراره منه وكيف عاقب عرب المعقل الذين تحالفوا مع المرينيين، ثم تمكنه من استرجاع سيطرته على المنطقة ما بين عين الصفراء إلى غاية مشرية والبيض.

بعد الهدوء النسبي الذي شهده الجنوب الغربي الجزائري خصوصا في فترات الفوضى التي مرت بها المملكة المغربية، وبالتحديد في الفترة الانتقالية لمملكة السعديين، فقد جهز مولاي محمد قوات ضخمة، وقرر اجتياح الجنوب الغربي سنة 1647م خصوصا بعد استيلائه على فكيك ثم مهاجمته لقصبة أولاد سيدي الشيخ³ والرافضين لسلطة مولاي محمد قرب قصر الحمام الفوقاني، الأمر الذي دفع بالعثمانيين للتدخل ومطاردة قوات الملك الذي تراجع إلى الجنوب المغربي بالتحديد إلى تافيلالت، وكلفت القوات الانكشارية مبعوثين حملوه رسالة تتضمن، جميع أعمال التخريب والنهب وتطالبه بعد تكرار الحادثة وقد التزم الملك مولاي محمد وتعهّد معاودة الاجتياح⁴.

¹. ابن خلدون، المرجع السابق، ص 63-73.

². ابن خلدون، المرجع نفسه، ص 68-72.

³. De la Martinière, Lacroix, Nord Ouest Africain, op.cit, pp37-44.

⁴. Ibid, p38.

ويذكر بعض المؤرخين المغاربة، أنه في عهد الملك الرشيد وبالتحديد سنة 1669م وقع اجتياح آخر للمنطقة، حيث لاحق إخوته الفارين من بطشه إلى غاية البيض مروراً بعسلة إلى أن تم القبض عليها ومصادرة أموالهما.

وفي عهد مولاي إسماعيل أي سنة 1679م حدث تدخل بالجنوب الوهراني إلا أن هذه المحاولة كانت كسابقاتها فاشلة، وبالرغم من تلك المحاولات من طرف العرش العلوي^١، إلا أن هذا الأخير كان يلقي تأبيدا واحتراما بل وتبعية اسمية من طرف سكان المنطقة وخاصة مقاطعة توات لأن السلطة العلوية تعتبر أقرب مركز إسلامي.

كما أسفنا الذكر بأن الجنوب الغربي كان ملجأ للعديد من القبائل المهاجرة على غرار بنو هلال^١ وسليم، فقد حلت نوى عربية أخرى متمثلة في قبيلة أولاد سيدي الشيخ التي ينحدر أصلها من أسرة الخليفة أبي بكر الصديق "رضي الله عنه"^٢، وقد سكنت هذه الأسرة بمكة المكرمة في بداية ظهور الإسلام، ثم هاجرت متجهة إلى مصر وتستقر بها بضع سنوات، ثم انتقلت للاستقرار بتونس. لكنه في سنة 1370 مرت الدولة الحفصية بأزمة خطيرة، أطاح خلالها أبو العباس بحاكم بجاية ابن عمه واستولى على تونس مباشرة بعد توليه مقاليد الحكم، الذي انصبت اهتمامه على تفكيك قوة القبائل العربية بنزعمهم جميع قطاعاتهم الممنوحة لهم، ومن بين هذه القبائل أولاد سيدي الشيخ تحت قيادة معمر أبي العالية^٣، الذي فضل الهجرة بعيدا عن تونس.

في نهاية 1370م غادر معمر أبو العالية رفقة اثني عشر فردا بالإضافة إلى أفراد عائلته، وتوغلوا إلى الجنوب القسنطيني ومكثوا فترة معينة، ثم اتجهت القبيلة

١. في سنة 1801 أرسل جيش مغربي انطلاقا من السوسن وتافيلالت إلى غاية الساوره لإخضاعها بدفع الضرائب ثم بعد عامين أي 1803 عين مولاي سليمان عامل الصحراء دحمان السويدي الذي أرسل أيضا واد الساوره لجمع الضرائب وكان آخر تدخل بالمنطقة عام 1808 من طرف السلطات سليمان الذي زار توات وقورارة وأرغمها على دفع الضرائب. ينظر:

De la Martinière et Lacroix, Ibid, pp41-43.

١. أسهم بنو هلال في تغيير الوجه الجغرافي والطبيعي للجنوب الغربي، بإدخالهم عادات البداوة والترحال التي لم يألفها سكان القصور بالجنوب الوهراني، حول الموضوع، ينظر: محمد بوسماحة، رحله بني هلال إلى المغرب وخصائصها التاريخية الاجتماعية والتاريخية، ج1، دار السبيل، الجزائر، 2008.

٢. C.Trumelet, les Français dans le Désert, Garnier Frères, Libraires, Paris, 1863, pp80.

٣. F.Gourgeot, Situation Politique de l'Algérie, Et. Challamel, Paris, 1881, pp30-31.

البوكرية نحو الجنوب الغربي الجزائري لتستقر نهائياً¹ به حوالي 1382م، وقد حضيت الأسرة البوكرية بزعامة سيدي معمر بلعاليا باستقبال حار وترحيب من طرف قبائل بني عامر والحميان، فاستقروا في بادئ الأمر بواد القليئة التي شيّدوا بها المباني والقصور منها أربا التحتاني وأربا الفوقاني، وأقاموا القباب والأضرحة تخليدا لأرواح أجدادهم الصالحين.

بعد مرور عدة سنوات اتجه بعض أفراد العائلة، وفضلوا المكوث بأربا، بينما فضل سيدي سليمان بن بوسماحة الاتجاه نحو فيقيق واستقر بها، بينما ابنه الأكبر سيدي محمد بن سليمان، فقد أرجعه الحنين إلى بلاد أجداده، فاستقر بمنطقة الشلالة التي مكث بها حتى وفاته، فيما استقر أخوه سيدي أحمد المجذوب بعسلة غرب قصر الشلالة الظهرانية، والذي رزق بولد لازمته البركة والتقوى وحضي بالتقديس والاحترام في بعض الأحيان، ألا وهو سيدي عبد القادر ♦ الذي ذاع صيته في كامل الجنوب الغربي بـ"سيدي الشيخ"، فأسس الطريقة الشيعية، التي تستمد أصولها من القادرية والشاذلية التي نهلها عن شيخة ومعلمه سيدي محمد بن عبد الرحمن السهلي².

خلف سيدي عبد القادر -سيد الشيخ- ذرية كثيرة فضلا على أبنائه الأربعة الكبار، وهم سيدي التاج، سيدي الحاج أحمد، وسي الحاج عبد الحاكم، الذين دخلوا في نزاع وخصومات شديدة فيما بينهم من أجل الزعامة الدينية والقيادة السياسية بعد وفاة والدهم، فانقسموا إلى قسمين هما:

- قسم بزعامة الابن الأكبر الحاج بوحفص الذي فضل الاستقرار بقصر الأبيض حول ضريح أبيهم.
- قسم آخر استقر في الناحية الغربية من القصر بزعامة الابن الثالث سيدي عبد الحاكم والملفت للانتباه أن عددهم كان أكبر من القسم الأول³.

¹. De La Martiniere, et Lacroix, op.cit, pp760-763.

♦ هو عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة، تعلم مبادئ اللغة العربية والفقه والقرآن على يد فقهاء من بني عمومته عندما شب أصبح مولعا بالتصوف فدرس على يد سيدي الحاج بن عامر شمال أربوات وسيدي عبد الجبار وأحمد بن موسى الكرزازي وغيرهم، توفي في عام 1616م بستيتين ثم دفن بالحاسي الأبيض الذي حمل اسمه، ينظر: عبد القادر خليفي، الطريقة النسخية، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، 2006، ص16-22.

². عبد القادر خليفي، المرجع نفسه، ص16.

³. إبراهيم مياشي، المرجع السابق، ص29.

هذا وبعد انضمام المغرب الأوسط إلى السلطنة العثمانية سنة 1518م فإن سكان الجنوب الوهراني لم يكن لهم أي اتصال بالأتراك غير أنهم كانوا مؤيدين لهم، حكام إيالة الجزائر، كانوا يخشون سكان القبائل الجنوب الغربي لنزعتهم الاستقلالية لذا وضعوا في حقهم إجراءات مشددة.

ونظرا لعقيدة الأتراك التي كانت تحترم وتبجل الأولياء والصالحين خصوصا قبل طرد الإسبان من وهران، فقد وفدت إلى الجنوب الغربي بالأخص إلى إقليم عين الصفراء ذرية الولي الصالح سيدي عبد القادر الجيلاني التي غادرت العراق واستقرت في البداية بمصر خلال القرن 14م ثم توجه البعض منهم إلى المغرب العربي وفضلوا الإقامة بمنطقة تيارت وبالتحديد في زمورة¹ (90 كلم شمال غرب تيارت) تزعم هذه القبيلة سيدي محمد الدخيل[♦]، الذي فضل الاستقرار بقصر أربا بجوار أولاد سيدي الشيخ، فعكف على تلقين تعاليم القادرية بمنطقة الجنوب، بالرغم من الصراعات القبلية خاصة بين بني عامر وسكان أربا من جهة والبوكربيين وحلفائهم من جهة أخرى، هذا الأمر لم يثن سيدي الدخيل عن نشاطه، فقام بربط علاقات وطيدة بين جميع أصناف المجتمع المنتشرين بالمنطقة، فتطورت علاقاته مع ممثلي الشاذلية، خاصة سيدي سليمان بن بوسماحة التي كللت بالمصاهرة، بتزويج ابن هذا الأخير من كلثومة ابنة سيدي بوتخيل سنة 1525م².

منح هذا الزواج للزاوية القادرية رواجا بالجنوب الوهراني، خاصة بعد فقدان البوكربيين نفوذهم عقب وفاة سيدي سليمان بن بوسماحة المقدم الأكبر للشاذلية سنة 1539م بلغت زاوية سيدي بوتخيل أوج إشعاعها سنوات الأربعينات من القرن 16م، حسب ما صرح به "رين" (L.RINN) قائلا: "أما عن انخراط عدد كبير من أولاد سيدي الشيخ للطريقة القادرية، فتعتبر بالإقامة القديمة بالأبيض

¹. خليفة بن عمارة، تاريخ الجنوب الغربي الجزائري، ترجمة بوداود عمير، دار القدس العربي، الجزائر، (ب.ت)، ص80-81.

[♦]. هو جد الشرفة بقصر عين الصفراء، ووليه الصالح وهو بن حسين بن شعيب بن علي بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن لقمان (وهم أهل زمورة) بن محمد بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلاني ينتهي إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. ينظر: الإمام محمد العشماوي المكي، السلسلة الوافية والياقوتة الصافية في أنساب أهل البيت المطهر أهله، مخطوط مطبوع، 453 صفحة، (ب.ت)، صص308-309.

². خليفة بن عمارة، المرجع السابق، ص81.

لأحد أحفاد سيدي عبد القادر الجيلاني، وهو سيدي بوتخيل الذي كان يمثل قبل سيدي الشيخ النفوذ الديني المهيمن على كل منطقة جرفيل...¹.

بعد تزويج كلثومة من سيدي أحمد المجذوب وعدها والدها بالتنازل لها عن حقوقه الملكية في حاسي الأبيض²، وتتمثل هذه الحقوق في ملكيته على الآبار وبعض المراعي التي تعد الشرط الأساسي لتطوير قطاع الماشية، نتيجة هذا التنازل بدأت بوادر الصراع تلوح في الأفق، واشتدت الخصومات بشكل واضح بعد وفاة سيدي سليمان بن بوسماحة بين البوبكريين والقادريين من أحفاد سيدي بوتخيل ♦ وحلفائهم من بني عامر، دون تدخل سيدي أحمد المجذوب، باعتباره صاحب الملك.

فتطور الصراع واشتد بعد وفاة سيدي بوتخيل سنة 1565م، ودخلوا مع البوبكريين في حرب ضروس دامت أكثر من 14 سنة³ أي من (1565 إلى 1580)، وانتهت بطرد أبناء الدخيل وحلفائهم إلى "البنود" الواقعة على بعد 80 كلم جنوب حاسي الأبيض.

حوالي سنة 1580م، اتجهت القبيلة وحلفائها نحو عين الصفراء التي لقيت ترحيبا من طرف بني عامر، الذين تنازلوا لهم بمقابل ألف رأس من الغنم عن قطعة أرض من 12 كلم على حافة الوادي من "السخونة" إلى "الرصاص"، فأسسوا هناك قصرا وبنو زاوية عكفوا فيها على تعليم القرآن ومبادئ القادرية، فأصبحوا بذلك محل احترام وتبجيل سكان العمور والحميان وبعض القبائل التي تقطن بالمنطقة.

هذا وحينما تعرضت الجزائر للغزو الفرنسي الغاشم، قام سكان الجنوب الغربي بالدفاع عن أراضي البلاد وانضموا إلى مقاومة الأمير عبد القادر خصوصا عندما التجأ إلى المناطق الحدودية بالجهة الغربية، وسعيا من الجنرال بيجو لتضييق الخناق على الأمير وتجريده من حلفائه قامت السلطات الاستعمارية

¹. L.Rinn, Marabouts et Khouan, Etude sur l'Islam en Algérie A-Jourdan, Alger, 1884, pp173-198.

². De la Martinière et Lacroix, op.cit, p765.

• توفي سيدي بوتخيل حوالي 1565م بأربا تاركا وراءه أربعة أبناء وهم: أحمد، بوتخيل، محمد الحسين ومحمد بوشنافة، بينما تتحدث مصادر أخرى على أنه ترك 7 أبناء.

³. مخطوط القائد، أربع صفحات، (21×16) مستخرج من دفتر أرشيف أعيان أولاد سيدي بوتخيل، مأخوذ من كتاب خليفة بن عمارة، المرجع السابق.

الفرنسية بمعاقبة سلطان المغرب وبعض القبائل إثر هزيمتهم في موقعة إيسلي خلال صيف 1884م، والتي انتهت بتوقيع معاهدة طنجة يوم 10 سبتمبر 1884، والتي نصت في بندها الرابع على محاصرة الأمير عبد القادر بالحدود المغربية الجزائرية من طرف قوات المخزن غربا والقوات الفرنسية شرقا من أجل وضع حد للخلاف¹ المغربي الفرنسي.

تم عقدت معاهدة لالة مغنية يوم 18 مارس 1845 بين الدولتين من أجل تحديد الحدود، فتتص المادة الخامسة بأن قصور فيقيق ويش تابعة للمغرب، أما عين الصفراء، سفيشيفة، عسلة، تيوت الشلالة، الأبيض، بوسمغون تابعة للجزائر، كما تتص المادة السادسة على أن الأرض الواقعة جنوب هذه القصور صحراء لا ماء فيها ولا سكان فهي عبارة عن فيافي قاحلة جرداء وتحديدها غير واضح المعالم².

فبموجب هذه الاتفاقية أصبح الفرع الشرقي لأبناء سيدي الشيخ تحت إدارة السلطة الاستعمارية التي حاولت أن تجعل منهم وسيلة لتوسعها بالجنوب الغربي، فعينت سيدي حمزة ولد أبي بكر بعد مشاورات ومساومات، خليفة على الجنوب الجزائري من البيض غربا إلى واحات ورقلة شرقا سنة 1850م. شغل سيدي حمزة هذا المنصب لمدة ثمانية سنوات، ثم ارتابت منه السلطات الفرنسية خصوصا بعد أن بلغها أنه وقع بينه وبين ابن عمه، الشريف محمد بن عبد الله سلطان ورقلة اتصالات فأصبحت تراقب تحركاته إلى أن أُلقت القبض عليه بوهران وزجت به في السجن لمدة سنتين³، وبعد سبعة أشهر قضاهما الخليفة في الأسر أخلت سبيله ثم أعادته إلى منصبه خليفة على الجنوب، فقام على إثرها بعدة أعمال⁴ مع الفرنسيين ضد الأهالي بالمنطقة.

فرغم جميع الخدمات التي قدمها سي حمزة للسلطات الفرنسية، لم تشفع له، حيث ارتابت منه لتطور نفوذه بالصحراء، فقد أصبح يضاهيها، لذلك لجأت إلى عزله

¹. إسماعيل حامت، الحكومة المغربية واحتلال الجزائر، تقديم وإعداد علي تابلت، ثالة للنشر، الجزائر، 2011، ص 69-74.

². De la Martinière et Lacroix, op.cit, pp45-48.

³. Trumelet, les Français dans le Désert, op.cit, p95.

⁴. شارك سي حمزة بإخلاص مع العقيد دوريو (Durrieu) لمعاقبة القبائل الثائرة على الحدود المغربية، أهمها، حميان الشفاعة وصادرت منها حوالي 20 ألف جمل و30 ألف رأس من الغنم، كما أسندت له مهمة انتقامية ضد سلطان ورقلة، لضمه إلى صفه ومنع جهاده مع محمد بن عبد الله الشريف. ينظر:

C.Trumelet, Note Pourservire a l'Histoire de l'Insurrection dans le Sud-Oranais en 1864, In R.A, N°20, 1876, p80.

واستدعائه إلى العاصمة للتحقيق معه حول بعض الشكاوي المقدمة في حقه من قبل بعض القبائل، إلا أنه لقي حتفه يوم 15 أوت 1861م، ادعى الفرنسيون أنه مات إثر مرض الكوليرا.

أثار نبأ وفاته غضبا كبيرا لدى سكان الجنوب، مما اضطر الشاعر الصحراوي الشيخ يوسف الشعاني بنظم قصيدة طويلة لراثائه نذكر منها:

سلطان الصحراء درق حسسه ما بان.....خل النجع ومر غادي

ديك الليلة شبيت كل العربان.....راحت ميخودة دادي

غاب شليل القوم دباب الدهشان.....حرم النجع نقار صدى

غدروا فيه الروم شينين الديوان.....غدروا والفعل رادي¹.

خلف سي حمزة أخوين وهما سي الأعلى وسي الزوبير وستة أبناءهما، بوبكر، سليمان، محمد أحمد، قدور، والدين، الذين لعبوا أدوارا هامة في الثورة.

عينت السلطات الفرنسية بوبكر مكان أبيه برتبة باش آغا وهي أقل رتبة من رتبة أبيه الخليفة السابق، فتفانى سي بوبكر في خدمة الفرنسيين خاصة بعد قضائه على ثورة الشريف محمد بن عبد الله، لكنه سرعان ما قتل هو الآخر مسموما من طرف أتباعه، فعينت إدارة الاحتلال سي سليمان بن حمزة خلفا لأخيه، وعزلت القائد سي الزوبير من آغاوية ورقلة، بسبب أوضاعه الصحية² المتردية، ثم عينت شقيقه سي الأعلى بن بوبكر مكانه، وكان هذا الأخير صاحب طموح ونشاط معادي لفرنسا بتوسعها في الجنوب، فسعي جاهدا إلى دفع أخيه سي سليمان إلى الثورة والتمرد ضد الفرنسيين مستغلا في ذلك عدة ظروف وعوامل أشغلت قوات الاحتلال الفرنسي بعيدا عن الجزائر.

بعد جهود متواصلة تمكن السي الأعلى³ من إشعال فتيل الثورة عام 1864م وساهمت عدة عوامل باندلاعها منها ما هو سياسي وديني وآخر اقتصادي بالدرجة الأولى.

بينما السبب المباشر لاندلاع الثورة هو الحادثة التي وقعت لسي الفضيل الذي اقتادته فرقة من الصبايحية بعد مشاجرة وقعت أثناء اللعب في ساحة البيض وقاموا

¹. إبراهيم مياشي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، المرجع السابق، ص217.

². إبراهيم مياشي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881/1992)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص30.

³. C.Trumelet, Histoire de l'Insurrection des Ouled Sidi Ech-Cheikh, Sud Algérien de 1864, Seconde Partie, Adolphe Jourdan, Alger, 1884, pp128-144.

بمعاقبته بأمر من الملازم بوران (BORIN)، فلما علم سي سليمان بالحادث اتجه نحو المكتب العربي وأخلى سبيل سي الفضيل وتوعد بمعاقبة الضابط على فعلته لأنه اعتبر الحادثة إهانة وله ولعائلته¹.

لم يمض شهر فيفري من عام 1864 حتى تمت الاستعدادات لاندلاع الثورة التي اشتعلت شرارتها الأولى يوم 08 أفريل، حينما قامت قوات أولاد سيدي الشيخ بالهجوم على مخيم للجيش الفرنسي في هضبة عين بوبكر الواقعة شرق البيض، فأحدث هذا الهجوم المفاجئ اضطرابا وفوضى في صفوف القوات الفرنسية، تسلل على إثرها سي سليمان إلى مهجع الضابط وقام بقتله، ولكن حراسه قاموا بقتل سي سليمان أيضا، إلا أن معركة حققت نتائج باهرة مما أثار إعجاب العديد من القبائل التي راحت تنضم واحدة تلو الأخرى إلى أولاد سيدي الشيخ.

وقد شارك فرع أولاد سيدي الشيخ الغرابية في أحداث هذه الثورة تارة مع الثوار ومآزرة إخوانهم في أرض المعركة وتارة أخرى إلى جانب القوات الفرنسية بهدف تصفية حسابات شخصية مع أبناء عموماتهم، وفي خضم سير الثورة التي مرت بمرحلتين:

المرحلة الأولى ما بين (1864-1867) المرحلة الثانية تمتد من (1867-1881). برزت عدة شخصيات بوبكرية لعبت أدوارا هامة في سير العديد من المعارك أهمها:

- 1- سيدي الشيخ بن الطيب زعيم الغرابية الذي توفي عام 1870م.
 - 2- سيدي سليمان بن قدور شقيقه سيدي الشيخ بن الطيب الذي خاض خصومات شديدة مع الفرع الشرقي، بالإضافة إلى سي معمر بن سيدي الشيخ بن الطيب الذي قتل عام 1874 إثر معركة ضد القوات الفرنسية².
- هذا وقد بقيت نيران الثورة ملتهبة، ولم تتمكن السلطات الاستعمارية من إخمادها إلا بعد تعيين سي سليمان بن قدور زعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابية آغا البيض وحميان سنة 1868م ثم إرسال عدة بعثات إلى الجنوب للقضاء على فلول الثوار، كبعثة ويفن (WIMPFEN) وشانزي (CHANZY) إلى وادي قير سنة 1870م³.

¹. إبراهيم مياشي، الاحتلال الفرنسي للصحراء، المرجع السابق، ص221.

². L.Voinot, la Situation sur la Frontière Algéro-Marocain du Tell Lors de l'Insurrection des Oulad Sidi Cheikh dans le Sud-Oranais (1864/1870) in R.A N°300, Alger, 1919, pp5-6.

³. للاطلاع أكثر على تفاصيل الرحلة التي قام بها ويمفن وشانزي، ينظر:

ثم أقدموا على عزل سي سليمان من منصبه في نهاية عام 1871 واعتقلوه بضاحية عين تيموشنت، بيد أنه لاذ بالفرار مع أفراد عائلته إلى المغرب يوم 12 أفريل 1873م¹.

وفي الختام يمكن القول أن هذه الثورة لم تحقق هدفها الأساسي والجوهري المتمثل في طرد الاستعمار والحد من توسعته بالجنوب الكبير، إلا أنها خلدت أحداثها في صفات من ذهب في تاريخ المقاومة الشعبية الجزائرية، لأنها تشكل وبكل اعتزاز حلقة من حلقات التاريخ المضيء لبطولات شعب أبي ومكافح، ومهدت الطريق الصحيح للحركة الوطنية والثورة المسلحة التي اعتمدت على تجارب الثورات الشعبية السابقة واستلهمت من مبادئها لتحقيق النصر.

- الاهتمام الفرنسي بالجنوب الغربي الجزائري

اهتم الأوروبيون عامة والفرنسيون خاصة بالصحراء، وسعوا بكل الوسائل من أجل التوسع فيها وإخضاعها لسلطانهم ويظهر ذلك جليا من خلال البعثات الاستكشافية الهائلة والمتتالية نحو البحث في أعماق الصحراء والتحري، وجمع المعلومات التي تتعلق بهذه المناطق الشاسعة.

وبالإمكان القول إن الأوروبيين أدركوا أهمية الصحراء من خلال علاقاتها التجارية المزدهرة مع بلدان شمال إفريقيا خلال القرون الوسطى الحديثة، وهذا بناء على ما جاء في العديد من مؤلفات الرحالة العرب المسلمين² بالإضافة إلى الأوروبيين³.

بعد القضاء على ثورتي الأمير عبد القادر وأحمد باي وإحكام السيطرة على القسم الشمالي للجزائر عمدت الحكومة الفرنسية إلى إتباع سياسة الاحتلال الشامل على يد الماريشال بيجو ♦ (BEGEAUD)، الذي كان يسعى دائما إلى بسط نفوذه على

Achille Fillias, l'Expédition de l'Oued-Guir, Bouyer, Alger, 1880.

¹. CR AGERON, les Algériens Musulmans et la France, Tome 1, Paris, 1968, p63.

². من بين الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين زاروا الجنوب الغربي، ابن حوقل صاحب صورة الأرض، والشريف الإدريسي نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وابن بطوطة في مؤلفه تحفة النظار، حسن الوزان صاحب وصف إفريقيا بالإضافة إلى البكري والعياشي في مؤلفه رحلة العياشي.
³. ومن بين الرحالة الأوروبيين الذين تحملت نفقات رحلاتهم الجمعية الإفريقية، الألماني هورن مان، ولوكاس، وليد بارد 1788 ورحلة الميجر هيوتون سنة 1790، ومونغز بارك سنة 1795، بالإضافة إلى النقيب غوردن لان سنة 1825.

♦. الماريشال بيجو: ولد بفرنسا عام 1784، عين حاكما عاما بالجزائر وهو يناهز عمر 56 سنة في الفترة ما بين (1840/1847) وترقى إلى الرتبة ماريشال يوم 31 جويلية 1843م، وقد انتصر في 14

المناطق التي كانت خاضعة للأمير خاصة مناطق الجنوب الغربي، حيث تمركز بها قبائل عديدة كان لها التأثير الديني والسلطة الدنيوية وما جاورها، فمن بينها قبائل أولاد سيدي الشيخ التي استقرت بهذه الجهة¹. فمن بين العوامل التي دفعت عجلة الاستكشافات وشجعتها بالصحراء خصوصا بالجنوب الغربي الجزائري نذكر منها:

1- إيجاد مبررات للاحتلال والتوسع الاستعماري عن طريق الاستكشافات أي التعرف على هذا المجال الواسع وما يحتويه من إمكانيات اقتصادية وبشرية بهدف استغلالها مستقبلا لخدمة المشروع الاستعماري، وكذلك الاطلاع على المظاهر الجغرافية كالتضاريس والمناخ والطبوغرافية، ومصادر الخصب والمياه، كما اهتموا أيضا بدراسة المجموعات السكانية عاداتهم وقيمهم الحضارية والثقافية.

2- التفكير في بناء إمبراطورية تجارية مترامية الأطراف في الصحراء ذات أبعاد إستراتيجية، ويتضح ذلك جليا من خلال كلام وزير الحربية الماريشال سولت الذي وجهه إلى الملك لويس فليب سنة 1845: "يجب أن تؤلف الصحراء الجزائرية والمناطق الواقعة بعد التلال صنفا ثالثا من الجهات الإدارية، ففي هذه الجهات لا أثر للمعمرين، ولا تطوؤها الجيوش عرضا لقمع الفوضى أو لإعداد ظروف ملائمة لإقامة العلاقات التجارية وتوسيعها، وهي مناطق ستفسح لنا المجال لطرق هامة بالحركة التجارية المؤمنة، ومن علامات سيطرتنا إن جلالتم تقضي بتعيين قواد من الأهالي في هذه الأراضي"².

3- وضع وإنجاز شبكة من طرف المواصلات البرية ومد خطوط السكة الحديدية وربط مختلف المناطق الصحراوية ببعضها لتسهيل مهمة عبور العسكريين والمستكشفين، لذلك شرعوا في دراسة المظاهر الطبوغرافية والتضاريسية

أوت 1844 على المغرب في معركة إيسلي التي انعقدت بعدها معاهدة لالة مغنية لتحديد الحدود ووضع حد للتدخل المغربي، توفي بفرنسا عام 1849.

¹ F.Gourgeot, Situation Politique de l'Algérie, Challanet Ainé, Ed, Paris, 1881, pp28-29.

² أندري برينان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة رابح اسطنبولي وآخرون، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص.ص 384-385.

لتحديد مراكز مد خطوط السكة الحديدية وشق الطرق البرية لتوسيع دائرة الهيمنة الإمبريالية في الأراضي الصحراوية¹.

4- جعل الجنوب الغربي بوابة ومنفذاً لاختراق المستعمرات الإفريقية وخاصة السنغال ومالي²، وهذا ما يمكن أن نستخلصه من خلال ما جرى في قرار الجمعية الجغرافية في باريس سنة 1855 والقاضي بتقديم مبلغ 6000 فرنك لكل من يقوم برحلة من الجزائر إلى السنغال أن يمر على تومبوكتو ويأتي بمعلومات دقيقة حول القوافل التي تجوب الصحراء³.

5- تحول الواحات الصحراوية إلى معازل للثوار والمجاهدين الذين كانوا يفرون إليها للاعتصام والاستعداد لمواجهة العدو، هذا ما دفع الفرنسيين للتوسع في أعماق الصحراء، خاصة بعد ثورة الزعاطشة ببسكرة سنة 1849م، وحركة محمد الشريف بن عبد الله بالأغواط وورقلة وتوقرت، وثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني عام 1864م، وقد تعرضت بعض الحملات الفرنسية إلى هجمات المقاومين الجزائريين بالصحراء.

من خلال ما صرح به الرحالة الألماني جيرهارد رولف (GERHARD ROHLFS) الذي زار إقليم توات عام 1864م: "قبل كل شيء على الفرنسيين أن ينقلوا حدودهم إلى نهاية وادي الساوره فمن هناك بالضبط تبدأ كل المصاعب وكل الفوضى، وما دام الفرنسيون لم يستولوا على هذه الحدود الطبيعية، فلن يكون هناك أي هدوء دائم في جنوب مقاطعة وهران"⁴.

ومن بين هذه الرحلات الاستكشافية التي اهتمت بمنطقة الجنوب الغربي أو ما يعرف بصحراء أيلة وهران نذكر منها:

- رحلة روني كايي* (RENE CAILLIE) ما بين سنتي (1824/1828)، الذي يعد أول المغامرين والمكتشفين للصحراء، حيث بدأ رحلته إلى تومبوكتو سنة

¹. يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج1، منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1996، ص309.

². عبد القادر بوباية، دور الرحالة والمستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، مجلة عصور، العدد 05/4 ديسمبر، جوان، 2004، ص171.

³. إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص64.

⁴. يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص310.

* روني كايي: رحالة فرنسي ولد سنة 1799، كان مولعا منذ صغره بالسفر والمغامرة، حيث سافر لأول مرة إلى السنغال وهو في سن 16، وفي سنة 1824 عاد للمرة الثالثة للسنغال، بدأ رحلته في أعماق الصحراء سنة 1827 باتجاه تمبوكتو، توفي سنة 1838م، ينظر:

1827 فوصل نهر النيجر عام 1828، ثم دخل مدينة تمبوكتو في 20 أبريل فبذلك يعد أول أوروبي يصف بشكل دقيق المدينة ومنها عاد عبر الصحراء إلى مدينة طنجة، فمر بمنطقة توات وتافيلالت التي دخلها في شهر جويلية. لقد جمع "روني كايي" معلومات هامة ومتنوعة حول الصحراء سهلت مهمة العدو الفرنسي للجنوب الجزائري وفتحت شهيته نحو التوسع والاستقرار بها¹.

- بعثة إيجان دوماس* (EUGENE DAMAS) خلال (1843/1845)، كانت له عدة رحلات منظمة نحو الصحراء الجزائرية لاكتشاف ما تزخر به من خيرات جمة، فانطلق من الجزائر سنة 1843م متوجها نحو ورقلة وصولا إلى أولاد نايل²، بعدما تعرف دوماس على الجنوب الشرقي وجه أنظاره نحو الجنوب الغربي، فقام برحلته الأولى من مدينة الجزائر إلى عين صالح واستكشف مناطق جبال العمور وجبال القصور التي لم تستكشف بعد، ثم اتجه إلى سيدي بوزيد ومنه نحو الجنوب الغربي، فدخل منطقة جبال العمور التي وصف مدنها وقراها وأوديتها، ثم عبر جبال الكسال وصولا إلى سنتين، فبوعلام، الغاسول ومنه إلى بريزينة³ واصفا تلك المناطق وقبائلها، وفي اليوم التاسع عشر من رحلته وصل إلى الأبيض سيدي الشيخ التي تحدث عنها وذكر قبائلها، ثم سلك طريقا نحو فيقيق، فعبر قصور الأطلس الصحراوي وواحاته منها أرباوات، الشلالة القبيلة والظهرانية، عسلة، بوسمغون، تيوت، عين الصفراء، مغرار التحتاني والفوقاني، ومن سفيسية ثانية توجه إلى إيش* (Ich) ومنها إلى فيقيق⁴.

Jonard.Am Notice Historique sur la Vie et les Voyage de René Caillé, B.S.G. de Paris, 2^{ème} Série, Tome 10, 1838, pp330-358.

¹. René Caillé, Voyage d'un Faux Musulman a Travers l'Afrique « Eugène Ardant Editeur, paris, (S.D), p108.

*. إيجان دوماس: فرنسي من مواليد 1803، جند في الجزائر سنة 1835 بمنطقة معسكر ثم تلمسان، إلى أن بلغ رتبة جنرال، إلى جانب وظيفته العسكرية، كان كاتبا له عدة مؤلفات حول الجزائر، توفي سنة 1871م، فيما بين 1843 و1845، قاد عدة بعثات متتالية من مدينة الجزائر باتجاه مناطق مختلفة من الجنوب الجزائري. ينظر:

Nareisse Fancon, Livre d'Or de l'Algérie Tome 1, Challamel, Paris, 1889, pp222-223.

². يحي بوعزيز، اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء، مجلة الثقافة، العدد 6، الجزائر، 1986، ص18.

³. Eugène Damas, le Sahara Algérien, Etudes Géographique et Historique sur la Région au Sud des Etablissement Français, Paris, 1845, pp15-90.

*. يقع على بعد 30 كلم جنوب غرب عن سفيسية، يرتبط بطريق مباشر بفيقيق تتواجد بهذا القصر قبة سيدي عبد الله الولي الصالح.

⁴. Ibid, pp143-153.

تمكن دوماس بفضل رحلته من وصف تلك القصور والواحات والقبائل المتواجدة بها خاصة أولاد سيدي الشيخ والقبائل المجاورة لها مثل حميان والعمور وغيرها¹، ومن فيقيق توجه دوماس إلى تيميمون عبر بلاد دوي منيع إلى أن دخل مناطق بلاد توات محارزة، قورارة، أوقروت، زاوية كنتة، ثم تيميمون وفي اليوم الثامن والأربعين دخل عين صالح².

- بعثة لويس إيجان كافينياك[♦] (LOUIS EUGENE CAVAIGNAC)، عام 1847م الذي كلفت بعثته بمعرفة ما تحتويه الصحراء الجزائرية من ذوي الاختصاصات العلمية³.

انطلقت البعثة من تلمسان في أفريل 1847، باتجاه الضاية، ثم توجهت إلى منطقة الغور، وبلغت الشط الشرقي في 16 أفريل، وهي المنطقة الفاصلة ما بين نهاية التل وبداية الصحراء، في 16 أفريل بلغت عين المالحه⁴. وفي أواخر شهر أفريل شرع في اكتشافات جبال الأطلس الصحراوي، وقصور الجنوب الوهراني وواحاته، دخل واحة عسلة في 22 أفريل سنة 1847م، وشق طريقه نحو واحات تيبوت، ثم مغرار الفوقاني فيما بين 25 و 29 أفريل من نفس السنة ثم عاد إلى تيبوت⁵.

في الخامس من ماي توجهت القافلة نحو عين الصفراء، ثم سفيسيفة، ومنها توجه كافينياك مباشرة نحو سبدو التي دخلها يوم 21 ماي 1847م، ثم غادرها في اليوم الثاني إلى المنصورة، فتلمسان التي أنهى بها رحلته يوم 23 ماي 1847م⁶.

تمكنت بعثة كافينياك من دراسة ووصف الشطوط والمرتفعات التي اجتازها، وسجلت الرسومات المنقوشة في كل من تيبوت ومغرار التحتاني، كما وصف قصور الجنوب الوهراني والأطلس الكبير كما سماها، منها قصر عسلة، تيبوت،

¹. Ibid, pp209-225.

². Ibid, pp260-275.

[♦]. كافينياك: ولد سنة 1802 بفرنسا، جند في الجزائر بمقاطعة وهران سنة 1832 إلى أن بلغ رتبة جنرال، أصبح حاكما عاما للجزائر سنة 1848، ثم نائبا ووزيرا للدفاع، توفي بباريس سنة 1857.
ينظر:

Narcisse Fougou, op.cit, 10-118.

³. Félix Jacquot, Expédition du Générale Cavaignac dans le Sahara Algérien en Avril et Mai 1847, Gide et J. Baudy Lib.Edi, Paris, 1849, pp1-9.

⁴. Ibid, pp10-118.

⁵. De la Martiniere et N. Lacroix, op.cit, 412-413.

⁶. F. Jacquot, op.cit, pp237-232.

قصري مغرار الفوقاني والتحتاني وسفيسيفة، ودعم كتابه برسومات لتلك القصور وخريطة لمسلك رحلته¹.

كثف الفرنسيون من نشاطهم الاستكشافي في نصف الثاني من القرن 19م، حيث قام القائد الأعلى لدائرة البيض دوكولومب (DE COLOMBE) برحلة استكشافية إلى قصور الجنوب الوهراني، بعدما تحصل دوكولومب الإذن من الجنرال دوريو (DURRIEU) قائد شعبة معسكر في ديسمبر 1856م²، باشر رحلته واستدل الطريق من قبل الخليفة سيدي حمزة خليفة الصحراء وبعض الشعانبة، ثم سافر في مستهل شهر جانفي 1857م قصد استكشاف قصور توات وتيديكالت وقورارة التي وصفها بأنها جزر خضراء وسط محيط من النار³، فقد استغرقت هذه الرحلة خمسة وعشرين يوما.

بعد رحلة السيد دوكولومب وقع اختيار السلطات الاستعمارية الفرنسية على الشاب الموهوب والمتحمس هنري دوفيرييه* (HENRI DUVEYRIER)، وقد اختير بإلحاح من الوالي العام للجزائر، بهدف تمهيد لعملية التوسع الشامل للنفوذ الفرنسي في منطقة توات وتاسيلي.

بدأ "دوفيرييه" رحلته من سكيكدة يوم 08 ماي 1859، متجها مباشرة إلى بسكرة عبر قسنطينة وباتنة⁴، وما لبث أن غادرها في يوم 13 جوان ليصل إلى الميزاب، الميزاب، ثم انتقل إلى غرداية، ودخلها في الواحد والعشرين من جوان وقام بزيارة لجميع نواحي منطقة غرداية. وعند دخوله إلى المنيعية التي لم يرحب به سكانها، كاد أن يلقى حتفه خصوصا بعد احتجازه من قبل سكانها.

رجع "دوفيرييه" إلى غرداية ومنها إلى الأغواط ليتوجه إلى اكتشاف توات والتوارق ولكن عدم اطمئنانه لهذا الطريق، جعله يتجه إلى الصحراء الشرقية،

¹. Ibid, pp340-344.

². Louis Joseph de Colombe, Exploration des Ksours et du Sahara de la Province d'Oran, Paris, Challamel, 1858, p10.

³. Ibid, p59.

*. هنري دوفيرييه: رحالة وجغرافي فرنسي ولد سنة 1840 زار الجزائر وعمره 21 سنة، استكشف الصحراء مدة سنتين استطاع الوصول إلى أوساط بلاد السودان، له عدة مؤلفات حول الصحراء الجزائرية والإفريقية، توفي ببباريس عام 1892م.

ينظر: الطاهر موساوي، الاستكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية خلال القرن 19م، مذكرة ماجستير، تخصص تاريخ معاصر، جامعة بشار، 2012/2011، ص24.

⁴. Paul Vuillot, l'Exploration du Sahara, Etude Historique et Géographique, Librairie Coloniale, Paris, pp59-60.

فغادر الأغواط في شهر نوفمبر 1859م قاصدا توقرت ثم اتجه إلى مبكرة ومنها إلى قسنطينة.

وفي أواخر 1860 كلف الوالي العام "دوفرييه" بأن يقوم برحلة نحو التوارق من أجل ربط علاقات تجارية بين فرنسا وبلاد التوارق. وقد باشر رحلته بمساعدة الشيخ عثمان وبعض التوارق¹، تمكن "دوفرييه" من هذه الرحلة أن يجمع العديد من المعلومات الهامة حول المنطقة التي تضمنها كتابه "توارق الشمال".♦

وفي نفس الفترة من عام 1860م قام الرائد كولونيو (COLONIEU) والملازم بوران (BURIN) التابعان لدائرة البيض بمحاولة فاشلة لاكتشاف قورارة وتوات، فانضما إلى القافلة السنوية التي تنطلق من دائرتي سعيدة والبيض، ومن أجل جلب التمور مقابل بيع الحبوب والمواشي، تتجمع القوافل بالأبيض سيدي الشيخ، انطلقت القافلة متجهة جنوبا في أواخر شهر نوفمبر برفقة كولونيو لذلك كانت أبواب القصور الجنوبية تغلق في وجهه حتى يبتعد كولونيو ورفيقه عن أسوار القصر² وحين دخل تيميمون فإن جماعة القصر لم تفتح أبوابها للقافلة حتى يبتعد الضابطان الفرنسيان ومن معهما من جنود. حينئذ غادر تيميمون إلى تاورسيت ثم تيمي وتوات، وقد لقيا نفس الاستقبال أينما حلا، الأمر الذي أجبرهم بالعودة إلى الشمال.

وفيها بين (1862/1867م)، قام الرحالة جرهارد رولف³ (GERHARD ROHLFS) بعدة رحلات لاستكشاف الصحراء، فقد انضم إلى اللفييف الأجنبي الفرنسي التي كانت تعمل في الجزائر، وتعلم العربية، ثم اتجه في البداية إلى المغرب الأقصى فوصل إلى السوس، ثم واد درعة ومنه إلى تافيلالت، ثم فيقيق،

¹. Ibid, p66.

♦. للاطلاع أكثر على المؤلف ينظر:

Henri Duveyrier, Exploration du Sahara, les Touareg du Nord, Challamel, Aîné Libraire-Ed, Paris, 1864.

². Vallat Gustave, A la Conquête du Contient Noire, Mission Militaires et Civiles, de 1892 a 1900, J.Le Fort, Imp. Editeur, Paris, 1901, pp33-36.

³. جرهارد رولف: رحالة ألماني ولد سنة 1832، وبعد أن أنهى دراسة الطب، انتقل إلى الجزائر أين انظم إلى اللفييف الأجنبي ثم غادره سنة 1861 فيما بين سنتي (1862/1864) حاول استكشاف الصحراء انطلاقا من الجزائر. ينظر:

Gerhard Rohlfs, Mein Erster Aufenthalt in Marokko und Reise studliche vom, Atlas Durchidie Oasen Draa Und Tafilet, Verlagvon J.Kuhtmann's Buchaudl Bremen, 1873, pp1-32

فوهران، وفي الرحلة الثانية انطلق رولف من طنجة إلى واد زيز عبر الأطلس، ومن هناك إلى وادي الساورة، فايجلي، بني عباس، واحات توات وتديكالت وعين صالح وغدامس، ومنها إلى طرابلس وقام برحلة ثانية التي انطلق فيها من طرابلس إلى تشاد ومنها إلى لاغوس. وقد تمكن رولف من استكشاف بعض الواحات في صحراء ليبيا بذلك يكون أول رحالة أوروبي يعبر إفريقيا الغربية من ساحل البحر المتوسط شمالا إلى ساحل غانا جنوبا¹.

في نفس الفترة نشطت حركة الاستكشافات خاصة الفرنسية منها، حيث اقتحم الجنرال قاليفيه (GALLIFFET) مع قوة عسكرية، مسافة 600 كلم التي تفصل مدينة بسكرة عن القليعة من 20 ديسمبر 1872 إلى 24 جانفي 1873، للتعرف على المنطقة ثم احتلالها وإخضاعها لإدارة الاحتلال الفرنسي².

هذا وقد قام في نفس الفترة الرحالة بول سولييه ♦ (PAUL SOLEILLET) الذي غادر مرسيليا يوم 06 ديسمبر 1872 متجها إلى الجزائر العاصمة ثم إلى عين صالح³، اتجه سولييه إلى الجنوب عن طريق الأغواط وغرداية ثم دخل متليلي التي مكث بها عند ضيافة الشيخ سليمان وفي يوم الأربعاء 04 فيفري 1873 غادر متليلي نحو ورقلة.

تبدأ رحلة الاستكشاف الحقيقية لبول سولييه يوم الخميس 19 فيفري 1873 حيث يذكر في مذكراته: "اليوم أبدأ الرحلة الاستكشافية الحقيقية، حيث سأواجه في أصقاع ليست معروفة كثيرا وسوف أجتاز أرضا لم تطؤها قدم أوروبي"⁴.

تحركت البعثة ♦ من متليلي إلى عين صالح، وفي الثالث والعشرين من فيفري، وصلت القافلة إلى المنيعه، ثم غادرتها يوم 27 فيفري لتتجه جنوبا إلى عين

¹. موساوي الطاهر، الاستكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية خلال القرن 19م، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير، تخصص تاريخ، جامعة بشار، 2012، ص.ص 16-18.

². إبراهيم مياشي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881/1912)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد الجزائر، 1996، ص.59.

♦ بول سولييه: ولد بفرنسا سنة 1812، زار الجزائر عام 1865، كان مولعا باستكشاف الصحراء الإفريقية، حيث استكشف القليعة وعين صالح، توفي سنة 1888 بمدينة نيم الفرنسية. ينظر:

Narcisse Fancon, op.cit, pp526-527.

³. Paul Soleillet, l'Afrique Occidentale, Algérie, Mzab, Tidikelt, Paris, Callamel, 1877, p1.

⁴. Ibid, p205.

♦ كانت تضم الشيخ أحمد بن أحمد الشعانبي مع أخويه موسى وعبد القادر وخادمي بول، وكاتبه بافو، وقدور خادم الشيخ أحمد و14 من الحراس المسلمين بالبندق والعصي، والشريف مولاي محمد الطيب.

صالح، التي بلغ إلى غاية مشارفها ولم يتمكن من الدخول إليها، حيث سدت في وجهه جميع الأبواب الأمر الذي اضطره للعودة.

ورغم ذلك فقد ندم سولييه في كتابه عدة معلومات هامة، خاصة حول هضبة تدمائيت وما جاورها، استفادت منها سلطات الاحتلال الفرنسي في توسعاتها بالصحراء.

استمرت الاستكشافات وامتدت في هذه الفترة بشكل واسع لمعرفة خبايا الصحراء وما تحتوي أراضيها، غير أن أنشطة هذه البعثات، كان من قبل الآباء البيض والمبشرين الذين استقروا بمدينة غدامس بأمر من الكاردينال لافيغري (LAVIGERIE) من أجل تمسيح المسلمين، وهذا رغم إعدام بعضهم من طرف أدلائهم أمثال بوليمييه (PAULMIER) مانوري (MANOREL) سنة 1876م¹.

في سنة 1879م، قام الأب ريشارد (RICHARD) مع زميله كيرمابون (KERMABON) برحلة استكشافية ضمن بعثات الآباء البيض للتعرف على أسرار بلاد الأزجار، فانطلقت البعثة من غدامس إلى وادي تيكاملت شمال غرب غات مستغرقة خمسة وخمسين يوما، جمعت خلالها معلومات هامة وربطت علاقات ودية مع فصائل الأزجار².

هذا ويمكن الإشارة إلى رحلة الدكتور أوسكار لانز (OSKAR LENZ) من طنجة إلى تمبوكتو بتكليف من الجمعية الإفريقية لألمانيا في خريف 1879، مهمة دراسة مختلف مرتفعات الأطلس المغربي والمناطق الجنوبية، خاصة تيندوف وتمبوكتو، فانطلقت من الغرب الأقصى إلى تيندوف ومنها إلى تمبوكتو، ثم اتجه إلى السنغال من شواطئ المحيط الأطلسي³.

نظرا للصعوبات التي شهدتها البعثات الاستكشافية، تكونت لدى الساسة والضباط الفرنسيين فكرة تمديد خط حديدي يعبر الصحراء، من أجل تسهيل عمليات

• لافيغري: رجل دين فرنسي برتبة كاردينال ورئيس أساقفة الجزائر، ولد سنة 1825 وتوفي في 27 نوفمبر 1892 بالجزائر، يعد من مؤسسي العديد من المراكز التنصيرية وخاصة جمعية الآباء البيض في الجزائر سنة 1868، وقد لعب دورا كبيرا في تنصير الشيوخ والأطفال في مجاعة (1867-1868). ينظر: Narcisse Faugon, op.cit, pp304-311.

¹ O.Meynier, la Pacification du Sahara et la Pénétration Saharienne (1852/1930), Publication du Comite, N.M du Centenaire de l'Algérie, Alger, 1930, pp12-14.

² J.Canal, les Martyrs du Sahara, In Bul.Soc.Géog, d'Alger et de l'Afrique du Nord N°35, 1930, p83.

³ Vuillot, op.cit, pp153-154.

الاستكشاف والبحث، لهذا اتجهت الأنظار إلى إرسال البعثات العلمية للبحث عن أنجع السبيل لتحقيق هذا المشروع.

فانطلقت بعثة فلاترس ♦ (FLATTERS) التي انقسمت إلى بعثتين الأولى من ورقلة إلى الأغواط وتضم هذه الرحلة عشرة أعضاء وهم: فلاترس، موسون (MUSSON) نقيب أركان الحرب وبرانجار (BERINGER) مهندس الجسور والطرق و روش (ROCHE) مهندس المناجم وبرنار (BERNARD) وغيرهم، وقد تم تعيين هؤلاء الأعضاء خلال شهر ديسمبر 1879م¹.

اتجهت البعثة من ورقلة يوم 21 ماي 1880 بحوالي مائة بعير نحو منطقة ميزاب وقدم فلاترس معلومات وافية حول المناطق التي مر بها واصفا الكثبان الرملية والأودية والصخور ووحدات واد ميزاب. ثم اتجهت إلى غرداية ثم إلى الأغواط التي دخلها يوم 03 جوان، وبعد هذه الرحلة ذهب فلاترس إلى باريس، حيث استقبله إداريون من مصلحة الطريق الصحراوي وسلمت له الأموال اللازمة من أجل إعادة الاستكشاف في الشتاء المقبل².

رجع فلاترس إلى ورقلة في رحلة ثانية إلى أقصى الجنوب واكتشاف بلاد التوارق ودراسة مشروع مد خط حديدي، وتضمنت البعثة إحدى عشر فرنسيا وسبعة وأربعين جنديا من الأهالي وثمانية رجال من الشعانبة للاستدلال عن المسالك وأربعة توارق³، انطلقت البعثة من ورقلة في ديسمبر 1880 متجهة إلى السودان، وبعد أيام من السير استقرت بإيزامن، التي غادرها يوم 30 جانفي 1881م، للبحث والتعرف على سبخة أمادقور.

عند تنقلات البعثة في بلاد التوارق بدأت تتعرض لبعض التحرشات من طرف التوارق، إلى غاية تماسينت، واستقر بها يومين، وتقابل فلاترس في هذه المنطقة مع العديد من التوارق، الذين توعدوه بالقتل لعدم إظهار الاحترام لهم⁴.

♦ فلاترس: ولد بباريس عام 1832، كلف بالشؤون العربية سنة 1856 والمكتب الفرعي بقسنطينة، تم قائد المكتب العربي بتبسة سنة 1860، ثم بسعيدة 1863م، ثم قائد أعلى للأغواط سنة 1876، ارتقى إلى رتبة عقيد، توفي في بلاد التوارق عام 1881. ينظر: Narcisse Faugon, op.cit, pp247-250.

¹. Henri Brosselard, les Deux Missions Flatters, au Pays des Touareg Azedjer et Hoggar Librairie Fume, Paris, 1889, p4.

². Paul Flatters, les Deux Missions du Colonel Flatters en Afrique, Librairie Drey fous, Paris 1884, pp2-168.

³. Grammont, le Colonel Flatters, Revue Africaine N°26, 1882, p78.

⁴. Flatters, op.cit, 238-241.

وفي الرابع عشر من فيفري استأنفت البعثة سيرها تائهة بين التضاريس الوعرة إلى غاية وصولها لسهل رملي شاسع فقامت بنصب خيامها هناك، وعلى إثرها تعرضت البعث لهجوم من طرف التوارق قرب بئر الغرامة، قتل على إثرها فلاترس وبعض أعوانه، لم ينجوا منهم سوى بعض الجنود الأهالي الذين رجعوا إلى بلادهم وحكوا تفاصيل هذه الرحلة¹. فبعد مقتل فلاترس أصبحت عمليات الاستكشاف في الصحراء محفوفة بالمخاطر لذلك توقفت لبعض الوقت، وما لبثت أن انطلقت من جديد بالرغم من مخاطرها. فقد قام الملازم مرسال باللات (MARCEL PALAT) باكتشاف قصور تيديكالت لكنه قتل سنة 1886 قرب عين صالح، كما قتل المغامر الإنجليزي كامبيو دولس (CAMILLE DOULS) جنوب توات 1888م².

وأدى نجاح البعثتين الفرنسييتين إلى مجرى نهر النيجر، وهما توتيه (TOUTEE) وبعثة هورست (HOURST) الذين تمكنا من دراسة المجرى وإمكانيات الملاحة النهرية فيه من أجل الأبعاد التجارية والاقتصادية لهذا النهر³ مستقبلا. شجعت بعثة فورو (FOUREAU) ولامي (LAMY) على اكتشاف بحيرة تشاد فانطلقت البعثة من ورقلة يوم 23 أكتوبر 1898 لتقع حوالي 2000 كلم عبر الصحراء وتصل إلى تشاد⁴ بعد سنة كاملة، لذلك تعتبر هذه الرحلة أول عبور من الجنوب الجزائري إلى تشاد، وختم القرن التاسع عشر ببعثة فلامون (FLAMAND) التي احتلت عن طريقها فرنسا عين صالح، فقد انطلقت البعثة يوم 28 نوفمبر 1899 من ورقلة، رفقة قوم الشعانبة بقيادة النقيب بان (PEIN) رئيس المكتب العربي لورقلة، وكلف وزير الحربية النقيب جرمان بالتحرك مع فرقة من الصبايحية باتجاه البعثة لحمايتها⁵، في يوم 09 ديسمبر وصلت البعثة إلى حاسي أنغل، أما في 15 من نفس الشهر بلغت حاسي سوقي، وفي 18 بحاسي المقر، ومنه إلى رق أجمار ووادي مسين، أما يوم 26 ديسمبر بلغت إلى فقارات الزواه بعد أن تنبه الأهالي للنوايا الخبيثة لهذه البعثة، لجئوا إلى مهاجمتها وذلك يوم 28

¹. إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص.ص 333-336.

². إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، المرجع السابق، ص.ص 426-427.

³. A. Perie, les Touareg et les Mission Toutée et el Hourst, B.S.G d'Alger, 1897, pp143-146.

⁴. H.Simon, Occupation et Organisation des Régions Sahariennes, R.A.N°49, 1905, p244.

⁵. L.Bauey, la Pénétration Saharienne (1899/1905), Editeur Militaire, Paris, 1908, pp16-18.

ديسمبر بقيادة الحاج المهدي باجودة^١، فاستمرت المعركة مدة طويلة، تمكنت القوات الفرنسية من إخمادها وقتل الشيخ المهدي واقتحام القصر الكبير والمكوث به، ثم مواصلة الزحف نحو عين صالح^١.

وفي الختام يمكن الجزم بأن البعثات الاستكشافية ساهمت بشكل كبير في دعم المشروع الاستعماري بالصحراء عامة وبالجنوب الغربي خاصة، حيث زودتها بالمعلومات اللازمة والبيانات والخرائط والرسومات التي يسرت لهم التحرك في الصحراء الجزائرية بكل حرية، فهذه المعلومات كانت موجهة أساساً لخدمة الاستعمار الفرنسي، وإلا كيف يمكن أن تفسر الدعم المادي والمعنوي الذي قدمه الحكماء العامون بالجزائر ومختلف الهيئات الحكومية الفرنسية العسكرية والسياسية ومن هذا المنطلق لا يمكن موافقة الرأي الذي يقول بأنهم قاموا برحلاتهم واستكشافاتهم لأغراض علمية فقط.

• الحاج المهدي باجودة: هو المهدي بن الحاج عبد القادر بن محمد سي الحاج بن باحمو بن عمر، رئيس قبيلة باجودة ومقدم الزاوية السنسية بعين صالح، ولد حوالي 1854 بعين صالح وينتمي إلى الأسرة السنوسية بنواحي مستغانم والتي تنحدر من أصول عربية. قاد الحركة الإصلاحية وقاوم التوسع الفرنسي بالصحراء. ينظر: إبراهيم مياشي، الاحتلال الفرنسي للصحراء، مرجع سابق، ص505.

¹. G.Tillon, la Conquête des Oasis Saharienne, Ed. Militaire, Paris, 1903, pp13-14.

الفصل الثاني: المشروع الاستيطاني بإقليم عين الصفراء

بعد أن تمكنت السلطات الفرنسية من إحكام سيطرتها على مناطق الشمال، اندفعت نحو توسيع دائرة هيمنتها بالمناطق الجنوبية التي كثيرا ما كانت تأوي العديد من الثوار الفارين من التل غير أنها لم تتمكن من اختراق المنطقة بسهولة، كما كان يتوقع ضباطها وعساكرها، لذلك فقد مر أثناء الأقاليم الجنوبية بعدة مراحل وهو ما سنتطرق له في هذا الفصل.

- تشكل الإقليم في ظل الإدارة العسكرية:

بتاريخ الخامس جويلية من عام 1830 استسلمت الجزائر للجيش الفرنسي، وسقطت في يد الاستعمار الغاشم، فأثر هذا الانهزام في نفوس سكان وأهالي الجنوب الغربي وشعروا بأن هزيمة نوع من الإهانة، لذا سارعت العديد من قبائل الجهة الوهرانية خصوصا بعد سقوط بايلك الغرب في أيدي الفرنسيين، إلى مبايعة الأمير عبد القادر ♦ أحد شيوخ الطريقة القادرية بمنطقة معسكر بصفته رائد الكفاح ضد الغزاة.

انطلقت مقاومة الأمير عبد القادر في الشمال مقتفية أثر الفرنسيين في الجهة الغربية، وفي هذه الأثناء كان يقيم الأمير اتصالاته مع سكان الجنوب والسلطات المغربية، من خلال العديد من المراسلات لسلطين المغرب، حيث تلقى الدعم والمساندة في البداية دون أي شرط أو قيد إلى حد منحه اللجوء إلى المغرب سنة 1846، عندما شددت عليه الضغوطات الاستعمارية الخناق، وبعد ذلك أخذ يتخوف منه السلطات إلى درجة مطاردته نحو الصحراء للتعجيل باستسلامه¹.

بعد انهزام المغرب في معركة إيسلي سنة 1844 أمام الفرنسيين، بدأت تتغير نوايا السلطات من الجزائريين خصوصا بعد الضغط على المخزن من أجل تحديد حدود الدولتين²، والتي انتهت بعقد معاهدة لالة مغنية في 18 مارس 1845 التي

♦ الأمير عبد القادر: بن محي الدين من أسرة عرفت بتصوفها، حيث كانت لديهم زاوية بالقيطة (معسكر)، ببيع سنة 1832 وعمره 24 سنة، قاد النضال ضد قوات العدو لمدة 15 سنة تمكن فيها من تحقيق انتصارات إلى أن استسلم سنة 1847 بعد وصل للجزائر الجنرال بيجو، ثم سجن بفرنسا وبعدها نفي إلى سوريا إلى أن توفي سنة 1883. ينظر: Narcisse Faucon, op.cit, pp01-05.
¹. إسماعيل حامت، الحكومة المغربية واحتلال الجزائر، نز: على تايلبت، ثالة للطباعة، الجزائر، 2014، ص93.

². إسماعيل حامت، المرجع نفسه، ص.ص72-80.

بموجبها رسمت الحدود، وأصبحت عين الصفراء وجميع القصور المحيطة بها مناطق فرنسية حسب المادة (05).

وبعد أمر من الجنرال لامورسيار ♦ (DE LA MORCIERE) قائد مقاطعة وهران إرسال الجيوش الفرنسية إلى مناطق الجنوب لإخضاعها للاحتلال الفرنسي، خصوصا بعد الاتفاقية المبرمة بين الجانبين المغربي والفرنسي حول الحدود، وكان هدف هذه البعثة التعرف على الأراضي الفرنسية في منطقة القصور الوهرانية، وجمع أكبر عدد ممكن من المعلومات حول القبائل¹ والملكيات والثروات.

انطلق طابور من معسكر بقيادة العقيد جيرى ♦ (C.GERY) بتاريخ 14 أبريل 1845 قوامه 2000 رجل لتبليغ الخط الرابط بستيتين، وبدأت أولى التحضيرات لإخضاع قبائل الترافي وأولاد سيدي الشيخ، ففي 24 من أبريل بلغت القوات ستيتين فأخضعتها وتم كذلك إخضاع قبائل العكرمة والدراقة، وأولاد عبد الكريم، وقام العقيد بنهب جميع ما ادخره أهالي القصر من قمح وشعير وتمور ثم خرب القصر، سارت السرية نحو بريزينة ثم إلى الغاسول التي تم احتلالها.

وبعد تزايد نشاط الأمير عبد القادر بالجنوب الغربي، خصوصا بعد الدعم المغربي الذي لقيه الأمير من حكومة المخزن، دفع الجيش الفرنسي إلى شن عملية أخرى على المنطقة، ففي 22 ماي 1846 وبعد أن علمت الإدارة الاستعمارية بوجود الأمير بالقرب من ستيتين انطلقت من معسكر سرية تتكون من 3000 جندي تحت قيادة العقيد رينو (RENAULT)، وفي 27 ماي أقامت بالقرب من ستيتين وقامت بتمشيط جبال الكسل ومرت بسيدي الحاج بن عامر ثم أرباوات ثم توجهت نحو الشلالة الظهرانية التي وصلتها في بداية جوان²، مما اضطر قوات الأمير مغادرة القصر والذي تعرض للنهب من قبل قوات الاحتلال.

♦ لامورسيار: ولد بنانت الفرنسية في 15 فيفري 1800 وزاول دراسته بنانت ثم انتقل إلى مدرسة مينز التطبيقية. وتخرج بدرجة ملازم في الفيلق الثالث للهندسة في 31 جانفي 1829، عين وزير للحربية من 28 جوان 1848 إلى غاية 20 ديسمبر، ثم قاد مقاطعة وهران إلى أن توفي في 1865م.

ينظر: Narcisse Faucon, op.cit, pp354-362

¹. De la Martinière, et Lacroix, Tome II, op.cit, p73.

♦ جيرى: يعد أول الضباط الذين قادوا الجيوش الغازية لإخضاع منطقة الجنوب وخاصة أولاد سيدي الشيخ وقد سميت عليه البيض تخليدا لذكوره.

². De la Martinière, et Lacroix, op.cit, pp75-78.

وبعد أن بلغ مسامع السلطات الفرنسية أن الأمير عبد القادر متواجد بين قبائل حميان والعمور وقبائل أخرى بالجنوب، قرر الفرنسيون في بداية سنة 1847م، إرسال سرايا جديدة لملاحقته وإخضاع تلك القبائل، ففي 21 أبريل وصلت إلى عسلة فرقة عسكرية تتألف من 2800 جندي فرنسي قادمة من شعبة تلمسان بقيادة الجنرال كافينياك، أين تم إرغام الجماعة بتسديد الضرائب المقدرة بـ: 2000 فرنك¹، ويذكر المقرر جاكو التابع لحملة كافينياك (CAVAIGNAC) قائلاً: "كانت موسيقى أفواجنا تعزف مثل الأيام الاحتفالية عندما نمر تحت جدران عسلة..."² كما نقل ديريسون (DERISSON) مرت السرية القادمة من معسكر للجنرال رونو (RENAULT) مباشرة بعد السرية الأولى لعسلة، بالشلالة القبلية ثم ببوسمغون، ففر السكان ونهب القصر... ثم أتلقت المكتبة واستولى العقيد أوكيف على الخزانة التي تحتوي المخططات الثمينة³.

في الرابع والعشرون من أبريل بلغت سرية كافينياك تيوت* والتي فر كل سكانها خوفاً من الجنود الفرنسيين الذين أمهلهم الجنرال مدة أيام للعودة إلى منازلهم ثم توجهوا نحو مغرار التحتاني الذي تعرضت كل منازل وبساتين القصر للهدم بعد أن أقدم السكان على قتل ثلاثة من الجنود الفرنسيين، حيث يصرح جاكو قائلاً: "أمر الجنرال بنهب القرية أخذت التمور، الشعير والخيام"⁴.

لقد تمكن الجنرال كافيناك أن يحدث بحملته هذه هلعاً في أوساط السكان بإقليم عين الصفراء بعد تخريب وهدم جميع القصور التي مر بها غير أنه لم يحقق هدفه الأساسي وهو احتلال المنطقة ذلك أنه سرعان ما انسحب قررت القبائل القاطنة بالإقليم الخروج عن طاعتها وخضوعها لسلطات الاحتلال الأمر الذي دفع

¹ Félix Jacquot, Expédition du Général Cavaignac dans le Sahara Algérien, en Mai 1847, Librairie Editeur, Paris, pp119-120.

² Ibid, pp121-122.

³ Ibidem.

* تيوت: أحد قصور الجنوب الوهراني يضم 100 إلى 105 منزلاً وبه مسجد ومدرسة قرآنية، وبه واحات النخيل ويضم العديد من السكان القصوريين، الأحلاف وأولاد رحمون ورحو، بالإضافة إلى الشرفة والحميان. ينظر:

Duc Dalmatie, le Sahara Algérien, Paris, 1845, p248.

⁴ F. Jacquot, op.cit, p143.

بالفرنسيين إلى إرسال بعثة جديدة إلى منطقة القصور بقيادة الجنرال بيلسي[♦] (PELISSIER) قائد مقاطعة وهران في عام 1849م، الذي تحرك بسرعة إلى غاية منطقة القصور الوهرانية من أجل إخضاعها، انطلق الجنرال بسريته المتكونة من 2300 جندي وقد تابع نفس مسار الجنرال كافينياك، حيث مر بعسلة وفي 06 أفريل بلغوا تيوت أين وجدوا القصر خاليا من السكان خصوصا بعد أن دبت في أرجائه المجاعة جراء ما أحدث كافينياك سنة 1847م باستيلائه على جميع المخازن وحرق البساتين وقطع النخيل، نفس الشيء بالنسبة لمغرار التحتاني ومغرار الفوقاني¹.

طيلة السنوات السابقة، حاول الفرنسيون وبصعوبة فرض سيطرتهم على منطقة الجنوب الغربي وإخضاعها لسلطتهم، قامت كإجراءات أولية بتعيين قادة جدد لجماعة القصور والقبائل الرحل والذين أصبحوا موظفين عند السلطة الفرنسية، وطبقا للقرار الوزاري المؤرخ في 6 جانفي 1851 تم إلحاق قصور الجنوب الوهراني وكذلك القبائل البدو الرحل، من الحميان والعمور بالدائرة العسكرية لسبدو²، وفي السنة الموالية تم إنشاء مركز جرفيل سنة 1852م الذي سيسمح بمراقبة تحركات القبائل المحيطة به، وعين قائد جديد على هذه القبائل الذي سيسهل التسيير الحسن للمصالح الفرنسية بالمنطقة.

غير أن المشكلة التي طرحت كثيرا وأتعبت الضباط الفرنسيين هو بقاء بعض القبائل خارجة عن السلطة الفرنسية خصوصا الواقعة بالمنطقة الحدودية، منها قبائل بني غيل ودوي منيع وأولاد جرير وبهذا الصدد فكرت سلطات الاحتلال في إرسال بعثات تفقدية إلى منطقة القصور بهدف إعادة تنظيمها وإخضاعها من جديد حيث تم تكليف القائد الأعلى لدائرة سبدو سنة 1861 بهذه البعثة والذي زار بالأخص عين الصفراء، تيوت، مغرار الفوقاني والتحتاني وسفيسيفة، وقام إثرها

♦. بيليسي: ولد بفرنسا في 6 نوفمبر 1794، درس بالمدرسة الحربية ستانت كري وتخرج منها في 18 مارس 1815 بدرجة ملازم، ثم ترقى إلى درجة نقيب في 1828، تعرض لهجوم لأول مرة في معسكر عام 1842. توفي في 09 جوان 1864. ينظر: Narcisse Faucon, op.cit, pp486-492.

¹. De la Martinière et Lacroix, op.cit, p414.

². Dictionnaire des Communes de l'Algérie, Ville, Village, Douars, Postes Militaires, etc., 1903, Pierre Fontana, Alger, 1903, p12.

بتسوية عاجلة للمشاكل التي حدثت بين القصور والبدو الرحل¹ بالجهة الجنوبية الغربية.

وبعد انطلاق مقاومة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864م ضد الوجود الفرنسي بالمنطقة وسياسته التعسفية ضد الأهالي، كثفت السلطات العسكرية من بعثاتها نحو الجنوب على غرار بعثة العقيد دوكلومب عام 1866م وبعثة العقيد كولونيو (COLONIEU)، وفي عام 1870م وضعت الحميان تحت قيادة سي سليمان بن قدور والذي عين قائدا على البيض والحميان من أجل تهدئة الأوضاع بالجنوب الغربي وإخماد مقاومة أولاد سيدي الشيخ²، بيد أن الوضعية السياسية بالقصور ازدادت سوءا خصوصا بعد حادثة مقتل قايد تيوت المعين من طرف الفرنسيين وهو مصطفى ولد الحاج السهلي سنة 1872م وتوتر العلاقات بين الشرفه والأحلاف* وهم السكان الأصليين للقصر إلى جانب أولاد رحو، لذلك أمرت السلطات الاستعمارية الفرنسية بتكليف الجنرال كارثري تريكورت (G.CARTERET TRECOURT) قائد شعبة تلمسان، بالتوجه نحو القصور رفقة سرية للحماية حيث بلغ أسوار سفيسيفة في 27 مارس 1875، واستقبله القائد مامون ولد العيرج³، الذي غادر مركزه في السنة الموالية خصوصا بعد مقتل أحد القياد المحترمين بالقصر. فجمع الإجراءات والتدابير التي وضعها الجنرال (CARTERET) بقصور الجنوب الغربي كانت جد صارمة، وآتت أكلها، حيث أضحت كل القصور تدفع الضرائب بانتظام، لكن الملفت للانتباه أثناء تواجد الجنرال وقواته بمغرار الفوقاني تجمهر كبير لقبيلة العمور بالقرب من ضاحية مغرار والتي قررت هذه القبيلة الدخول في تمرد⁴ وعصيان ضد الإدارة الاستعمارية وهو ما استحسنه المخزن المغربي، حيث وصلت بعض الخيالة إلى

¹. De la Martinière et Lacroix, op.cit, p416.

². F.Gourgeot, Situation Politique de l'Algérie, op.cit, pp29-30.

*. الأحلاف: هم من عرب المعقل الذين هاجروا إلى تيوت في نهاية القرن 14م عقب وفاة الملك الزياني أبي حمو موسى الثاني والذين كانوا من حلفائه، وقد بني الأحلاف قصرهم بتيوت بداية من القرن 16م وبالتحديد سنة 1505م.

³. De la Martinière et Lacroix, op.cit, p417.

⁴. عند حضور قائد مغرار إلى تيوت من أجل دفع الضريبة المفروضة على هذا القصر أبلغ السلطات الفرنسية بأن العمور هم أسياد دون منازع لهذا القصر.

المنطقة الحدودية وقامت بجولة تفقدية ♦ للقصور يقودها عامل وجدة الذي شاهد عدد كبير من الأهالي المعارضين للتدخل الفرنسي، هذا الإجراء الذي صدر من الحكومة المغربية، أقلق الإدارة الاستعمارية التي سارعت في إرسال الجنرال دي فلوني (DE FLOGNY)، قائد شعبة تلمسان على رأس طابور مكون من 3 سرايا من المشاة وسريتين من الخيالة، بحيث غادروا العريشة في 15 فيفري 1877م ووصلوا في 22 فيفري إلى عين الصفراء وتمكنوا بعدما دخول تيوت ونصّبوا بها حامية من الليفيف الأجنبي ثم اتجهوا نحو عسلة التي دخلوها في 28 من نفس الشهر ثم بلغوا مغرار الفوقاني في الخامس من مارس¹.

وقد فرض الجنرال الضرائب على المناطق التي أخضعها، غير أن القبائل لم تلتزم بدفعها في الوقت المحدد، الأمر الذي أجبره على قصف قصر مغرار بالمدفعية وتخريب جميع منازلهم، وقد واجه الجنرال دفاعا مستميتا من طرف العمور².

بعد الحملة التي قام بها الجنرال دي فلوني إلى القصور الوهرانية من أجل إخضاع المنطقة الجنوبية وبث الاستقرار والأمن بها، لم تكن في مستوى المطلوب، حيث اندلعت من جديد شرارة الثورة والعصيان في وجه السلطات الاستعمارية، حيث يظهر مدى فشل جمع الضباط الذين تعاقبوا على إدارة مقاطعة وهران في تسوية الأوضاع بالجنوب الغربي وكذلك يوضح مدى استقلالية قبائل المنطقة وعدم رضوخهم للاحتلال الفرنسي، حيث أقدمت السلطات الفرنسية في بعث الملازم دوكاستري (DE CASTRIES) للقيام بجولة حول القصور بالجنوب الغربي بصحبه سرية حماية تكون من 35 من الخيالة، وقد خلصت هذه الزيارة إلى غاية نهاية جوان 1880 تمكن فيها الملازم من زيارة جميع القصور وجمع المعلومات حول القبائل³ الثائرة، وقد قدمت له جميع الشكايات خاصة مسألة العمور مع القصور والشرفة.

• تعود الأسباب الحقيقية لهذه الزيارة من طرف السلطات المغربية إلى الرغبة الملحة لإحداث تغيير للقائد أحمد بن بلقاسم والذي بدأ البحث في إنشاء علاقة وطيدة مع القائد الأعلى لدائرة سبدو والذي تمكن من الاتصال به عبر رسالة بعث بها سبتمبر 1876م.

¹. De la Martinière, et Lacroix, op.cit, p422.

². Ibid, p423.

³. Ibid, pp425-427.

هذا وبعد تعيين ألبير قريفي حاكما عاما على الجزائر، بدأ في إجراء تعديلات سياسية هامة في جميع النواحي، بحيث كلف قائد مقاطعة وهران بأوامر إلزامية وأكثر صرامة في معالجة قضية الحدود والالتزام حرفيا بمعاهدة لالة مغنية 1845م من أجل الفصل في قضية القبائل التي تثير بعض الفتن داخل منطقة النشاط الفرنسي، وقد أمر ألبير قريفي (ALBERT GREVY) بإقامة مركز عسكري جديد بالمنطقة الحدودية ما بين ثنية الساسي الواقعة قبالة قصر يش وهو آخر قصر تابع للمغرب وعين سفيسيقة القصر الأول التابع للجزائر¹.

تقرر إنشاء المركز العسكري بالجنوب الغربي بعين بن خليل، الذي تم احتلالها في عام 1854 وأنشأ بها دار القيادة (MAISON DU COMMANDEMENT) من قبل الجنرال كوزا منتوبان (CAUZA MONTAUBAN) لتسهيل عليه مراقبة تحركات قبائل الحميان الثائرة والتابعة إداريا لدائرة سبدو، في سنة 1878م، ظهرت فكرة إنشاء مركز آخر بالمشربية، لكن اعترضتها جملة من الصعوبات من بينها قلة المياه، وصعوبة التزود بالمؤن من العريشة، بيد أن النتائج الجيدة التي حققتها زيارة دوكاستري (DE CASTRES) بالجنوب الغربي، أظهرت أهمية وضرورة احتلال نقطة دائمة بالجنوب الوهراني وهي الفكرة التي تبناها الحاكم العام ألبير قريفي منذ توليه المنصب بهدف فرض السيطرة، وتثبيت الاحتلال، وللأسف نفس الأسباب التي طرحت في سنة 1878 أجبرته بالتخلي عن الفكرة².

إن انطلاق ثورة الشيخ بوعمامة سنة 1881 والتفاف العديد من القبائل حوله، حتم على السلطات الفرنسية إعادة احتلال مركز عين بن خليل وإنشاء مركز بالقرب منه -المشربية- بعدها تقرر رفع الاهتمام بهذه الأخيرة أكثر وربطت عبر طريق الخيثر ويتم تموينها بسهولة عن طريق خط السكة الحديدية التي ستمدد من سعيدة إلى غاية الخيثر ثم إلى المشربية³.

بني المركز الاستيطاني بمشربية قرب الحامية العسكرية، وصلت القوة المكلفة بإنشاء المركز إلى المشربية في 08/08/1881م⁴، وأصبح يضم 67 أوروبيا ما

¹. Ibid, pp428-430.

². C. Meissner, op.cit, p30.

³. Alfred G.Martin, l'Action Française dans le Sahara, R.A.A Jourdan, Alger, 1893, p344.

⁴. C. Meissner, op.cit, p31.

بين سنتي (1906/1911) ولكن في الإحصاء الذي يليه سجل انخفاضاً محسوساً بسبب تحويل مخزن الآلات والوسائل إلى مركز عين الصفراء. أنشئ مركز عين الصفراء مع نهاية 1881م عقب اندلاع المقاومة بالمنطقة، ثم تحولت إلى دائرة عسكرية بقرار 20 مارس 1882م، قصد الحراسة والسيطرة على منطقة القصور بشكل مباشر يضمن الاستقرار، خاصة موقعها القريب من الحدود المغربية -مدينة فيقيق- التي كثيراً ما اتخذها الثوار مصدر إمداد بالمؤن والجنود وقاعدة خلفية للدعم المادي والعسكري، ومن الملفت للانتباه أنه قبل اختيار هذا المركز وقع تردد كبير حول المكان الأنسب، إما بتيتوت أم سفيسيقة لذلك أرسل الملازم الأول دوبنيار (DE BANNIERE) إلى منطقة القصور قصد إيجاد مكان ملائم الذي وقع اختياره على قصر تيتوت، غير أن الجنرال ديلباك (DELEBACQUE)[♦]، هو الذي قرر إنشاء المركز بالعين الصفراء، ويتضح أن اختيار هذا الموقع لم يكن وليد الصدفة، وإنما ضرورة فرضها الموقع الإستراتيجي للمدينة، فهي تغطي كامل المسالك بالجنوب الغربي، ونقطة عبور من الشمال نحو الجنوب بالإضافة إلى الارتفاع والموقع المحصن، حيث تحيط بها المرتفعات الجبلية من كل مكان، وهي عبارة عن حصن طبيعي لا تحتاج إلى تكاليف من أجل تحصينها¹.

أصبح مركز عين الصفراء بعد إنشائه من طرف الإدارة الاستعمارية إلى أربعة أجزاء:

- 1- الحي الأوروبي: يشرف على الضفة اليمنى لواد البريج، يتكون سكانه من حوالي 658 فرنسيا و199 إسبانيا، و54 إيطاليا و64 أوروبيا² من جنسيات مختلفة، وعدداً آخر من اليهود والأهالي.
- 2- الحامية العسكرية: التي أقيمت على الضفة اليسرى لواد البريج، وقد أحيطت بجدار حجري حامي من فيضان الوادي، والذي بدأ العمل بتشيد يوم 14 ديسمبر

♦ ديلباك: قائد الفيلق 19 للجيش، ولد بدوي في 28 مارس 1824 وتخرج من المدرسة الحربية "سانت كري" برتبة ملازم، عمل إلى جانب بيجو في القضاء على الأمير عبد القادر، صاحب الجنرال كافينيك أثناء حملته على القصور في 1882م أصبح قائد لمقاطعة وهران. ينظر: Narcisse Faucon, op.cit, pp200-202.

¹. De la Martinière, et Lacroix, op.cit, p107.

². G.G.A. Exposé de la Situation Général des Territoire du Sud de l'Algérie, Présenté par M.CH.Lutud, Année 1911, Alger, 1912, pp170-172.

1881م وساهم في بناء جنود من الجيش الفرنسي إلى جانب الأهالي من العمور والحميان والقصور.

3- القصر: وهو الذي كان يحمل اسم عين الصافية، موقعه ما بين سفوح الكتبان الرملية يأوي ساكنيه الذين ينتمون إلى أولاد سيدي بوتخيل الذين تمكنوا من شراء هذه الأراضي على أولاد عامر، وأسسوا زاوية وقبة تأوي ضريح جده سيدي أبو الدخيل المتوفي بأرباوات، قرب محلة أولاد سيدي الشيخ.

4- حي السود (VILLAGE NEGRE): بني على التماس مع الحي الأوروبي، يضم قبائل عربية بالإضافة إلى الزوج القادمين من قورارة، تيديكالت والسودان، الذين فضلوا الاستقرار والعمل بعين الصفراء، وعرف الحي بالاسم المحلي "القرابة"¹، وشهد الحي توسعا في مطلع الثلاثينيات للقرن 19م، بعد حركة مصادرة الأراضي الشاسعة من قبل الآباء البيض الذين أقاموا كنيسة لافيغري في مداخل الحي الجنوبية.

بعد الدمار الذي لحق بالبلدة الأوروبية في 21 أكتوبر 1904 ♦ بفعل الفيضانات تم إعادة تشييدها من جديد بفضل دعم الحكومة العامة ليصبح امتدادها ما بين الوادي ومحطة القطار مشكلا حيا صغيرا يضم بعض المنازل مع أزقة وشوارع واسعة².

كما يضم مركز عين الصفراء بعض المناطق الأهلية التابعة لهم والموضوعة تحت إدارته تنظيميا منها: تيوت، عسلة، مغرار التحتاني والفوقاني، وسفيسيفة.

ونظرا للتطورات الخطيرة التي شهدتها منطقة الجنوب الوهراني بالخصوص قطاع عين الصفراء حيث اشتدت هجمات ثوار الشيخ بوعمامة ضد القبائل المساندة لقوات الاحتلال، خصوصا بعد انضمام سي سليمان بن حمزة رئيس وزعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابة إلى صفوف الشيخ بوعمامة على رأس 300 فارس، واتجه رفقة فرسانه إلى جنوب غرب عين الصفراء وبالأخص منطقة إقامة البكاكرة (حميان)، ثم غادر المنقب يوم 16 نوفمبر إلى جبل عمران لمعاينة القبائل المنضوية تحت الاستعمار الفرنسي، فاضطرت القوات الفرنسية بوضع حد لقوات

¹. C.Meyson, op.cit, p31.

♦. إثر الفيضان الذي ضرب عين الصفراء، والذي خلف العديد من الخسائر خاصة الحي الأوروبي وفي هذه الأثناء توفيت إيزابيل إبيرهارد وزوجها على الساعة الثانية زوالا بعد خروجهما من المنزل، حيث جرفتهما مياه الوادي ودفنت بمقبرة سيدي بوجمعة بعين الصفراء.

². C. Meissner, op.cit, p.

سي سليمان والانتقام منه، كما ركزت السلطات الفرنسية قوتها وعززت تواجدتها في كل من عين الصفراء وعين بن خليل والعريشة ورأس الماء، مشرية، البيض، وسبدو، والضاية، وخيثر، وفرندة وتيارت لوضع شبه حاجز على التل الوهراني من أجل حمايته¹.

فمنذ مطلع عام 1884م اهتمت سلطات الاحتلال الفرنسي، بإنجاز العديد من المشاريع بعد أن حصلت على مساعدات مالية من مجلس النواب الفرنسي من أجل فرض سيطرتها بالمنطقة² هذا بعد إلحاق منطقة الميزاب بنفوذها في نهاية سنة 1882م، وإيصال الخط الحديدي بعين الصفراء وعلمت على شق الطرق وإقامة الجسور وربط المناطق الجنوبية الغربية ببعضها البعض.

كما عملت الإدارة العسكرية بإقليم عين الصفراء على زرع الحصون والمراكز العسكرية في مختلف المناطق بعد أن اتضح لها النقص الفادح في الحاميات ما بين البيض والأغواط وغرداية، فقرر الجنرال ديلباك في شهر مارس 1885، إقامة مركز محصن بجنين بورزق من أجل تأمين الاتصالات بين عين الصفراء وفيقيق، وحراسة الواحات المغربية، ولذلك تم احتلاله بصفة رسمية في جويلية 1885³، كما قرر تعزيز هذا الحصن عن طريق ربطه بخط حديدي يربطه بعين الصفراء الذي انتهت الأشغال به عام 1887م⁴ وكل ذلك من أجل مراقبة تحركات بوعمامة والقبائل الداعمة له مثل دوي منيع وأولاد جرير وعشائر بني مقييل. فمنذ سنة 1889 لاحت في الأفق فكرة جديدة، وهي احتلال الصحراء بالطرق الهادئة، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق إقامة المؤسسات الاقتصادية وإنشاء المراكز التجارية في كل من توات وتيديكالت حتى تخضعها لنفوذها وبدأت تكثف من البعثات الاستكشافية نحو هذه المناطق القاحلة للتعرف أكثر على إمكانياتها الطبيعية والبشرية وقد أرسل بهذا الصدد الأستاذ فلاموند (FLAMAND) لإتمام أبحاثه حول الجنوب الكبير⁵.

¹. إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، المرجع السابق، ص300.

². إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار في الجنوب الغربي، المرجع السابق، ص105.

³. C. Meissner, op.cit, p29.

⁴. Ibid, pp30-31.

⁵. موساوي الطاهر، المرجع السابق، ص.ص77-80.

وفي نفس الوقت لم تتخلى الإدارة العسكرية عن أسلوبها العنيف والقهري في التوسع فأنشأت سنة 1891 مركزا عسكريا دائما بالمنيعة تحسبا لاحتلال توات التي وصفها الحاكم العام جول كامبون (JULE GAMBON) "بأنها ملجأ للثوار ولبوعمامة الذي التجأ إليها بحثا عن الدعم والمساعدة وتأليب القوات ضدها"¹، والتي كثيرا ما حاولت السلطات المغربية ضمها لبابلك المخزن غير أنها فشلت في العديد من المرات، الأمر الذي دفع بفرنسا أن تكون السبابة، وقامت بتحذيرات مستمرة لسلطات فاس بأنها لن تسمح بأي عمل من شأنه أن يجعل هذه المنطقة تحت سلطة العرش المخزني، وفي هذا الصدد صرح السيد ريبو (RIBOT) وزير الشؤون الخارجية يوم 26 أكتوبر 1891 "إن توات لم تعد قضية مغربية أكثر منها شأن أوروبي والحوادث الجديدة، تبرهن أن السيد فلاموند قد حسم هذه العقدة الغوردية وسوف يجعل هذه الأرض المرتقبة أرضا فرنسية"².

شرعت الإدارة الاستعمارية منذ عام 1893 في تشديد الرقابة على القبائل الصحراوية والتخوم من خلال تشييد الحصون المنيعة والمراكز العسكرية في قلب الصحراء، منها حصن ميربال (FORT MIRIBEL) في حاسي الشيابة عن بعد 135 كم جنوب المنيعة على الطريق الرابط بين عين صالح عبر تادميت، وحض مكماهون (FORT MAC-MAHON) في حاسي العمار عن بعد 165 كم جنوب غرب المنيعة في وادي مقيدن على طريق قورارة، كما تم احتلال الأبيض سيدي الشيخ وجنين بورزق بإقليم عين الصفراء في حدود سنة 1895م وفي سنة 1897م نقل مركز دائرة أقصى الجنوب من غرداية إلى المنيعة³.

بالرغم من جميع الإجراءات الاحترازية التي اتخذتها السلطات الفرنسية لتسديد الرقابة على تحركات القبائل الصحراوية وخاصة المتاخمة للحدود المغربية والتي كثيرا ما أتعبت وزعزعت الكيان الفرنسي⁴، وبعد تعيين الحاكم العام الجديد السيد لافاريار (LAFARIERE) أبدى اهتماما كبيرا بتوسيع دائرة النفوذ الفرنسي

¹ Jules Cambon, le Gouvernement Général de l'Algérie (1891/1897), Librairie Jourdan, Alger, 1819, p413.

² Maurice Maunoury, le Transsaharien et la Pénétration Française en Afrique, Paris, 1901, p41.

³ Jules Cambon, op.cit, p414.

⁴ L.Voinot, le Retour Incessant des Difficultés des Frontière avec le Maroc (1893/1896) Extrait du B.S.G.A. d'Oran, Tome 52, Oran, 1930, pp4-12.

بالجنوب الغربي وخاصة منطقة توات، وعمل على إزالة كل العراقيل لإتمام هذا المشروع، وخاصة مشروع تمديد السكة الحديد الرابط عين الصفراء بجنين بورزق¹ والتفكير بمشروع خط يربط هذا الأخير بدوفربي (الزربية) ثم إلى إيقلي، وبعدها إلى توات وبفضل خط جنين بورزق تمكنت القطار أخيراً أن يقطع الأطلس الصحراوي ومستعد أن يتجه نحو واحات الجنوب الغربي.

وقد تم احتلال واحات توات بفضل البعثة العلمية التي ترأسها فلاموند إلى عين صالح وأشرفت عليها وزارة المعارف العمومية والمستعمرات على هذه الرحلة ودعمتها الحكومة بميزانية إثر طلب الوالي العام لافاريار، وانطلقت البعثة من ورقلة يوم 28 نوفمبر 1899م متجهة نحو عين صالح وقد تعرضت البعثة لهجوم مستمر من طرف السكان بقيادة الحاج المهدي باجودا والتي انتهت بمقتل المهدي باجودا وسيطرة النقيب بان (PEIN) على الوضع خاصة بعد الدعم الذي تلقاه من النقيب جرمان².

هذا وتميزت سنة 1901م، بإخضاع منطقة وادي الساوره وتنصيب الحاميات العسكرية فقد نصبت قبل هذا التاريخ مركز الشؤون الأهلية بجنان الدار في 20 ديسمبر 1900م³، ثم نصبت حامية تاوريت وتاغتيت تحت القيادة العليا للعقيد بيبه (BILLET)، وتم احتلال بني عباس يوم 01 مارس 1901، ونقل مركز مكتب الشؤون الأهلية من إيقلي إلى بني عباس، وقد أشرف على هذا الاحتلال الجنرال ريسبورغ (RISBOURG) قائد الناحية العسكرية لوههران، الذي استقر ببني عباس وأرسل العقيد BILLET لملاقاة الجنرال سارفيار (SERVIERE) حتى تتلاحم القوتان وقد حدث ذلك في قصابي يوم 13 أبريل 1901⁴.

بعد إخضاع مناطق الجنوب الغربي، قام الجنرال سارفيار قائد ناحية الجزائر بجولة تفقدية للمناطق المحتلة حديثاً للاطلاع عليها بنفسه، ثم تنظيماً وتنصيب الحاميات العسكرية والدوائر والملحقات.

¹. إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء، المرجع السابق، ص311.

². إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي، مرجع سابق، صص108-109.

³. Hubert Lyautey, Ver le Maroc, Lettres du Sud Oranais (1903/1906) Librairie Armand Colin, Paris, 1937, p47.

⁴. Ch.Mourey, Louis Brunel, l'Année Coloniale, 3^{ème} Année (1901), Paris, 1902, pp09-13.

عقب هذه التنظيمات عينت السلطات الفرنسية على رأس هذه المراكز السيد لابيرين (LA PERRINE)، قائداً أعلى للوحدات الصحراوية¹ بحكم خبرته الميدانية، كما قام بتنظيم الفرق الصحراوية للقيام بعمليات التوسع وفقاً لتضاريس المنطقة وأنشأ الأقاليم الجنوبية.

- التنظيم الإقليمي: بموجب قانون 24 ديسمبر 1902 الخاص بتنظيم وإنشاء الأقاليم الصحراوية والذي سوف يفصل عن الشمال ابتداء من 31 ديسمبر 1902 ويكون حراً في تنفيذ وإنجاز مشاريعه²، فحسب النصوص والموارد المحددة لصلاحيات واختصاصات الحاكم العام للجزائر بهذه الأقاليم، فإن الصحراء قسمت إلى أربع أقاليم وهي (إقليم عين الصفراء، إقليم الواحات إقليم غرداية، تقرت) وتخضع جميعها إلى نظام الأقاليم القيادية حيث يوجد كل إقليم تحت إدارة القائد العسكري وضباط الشؤون الأهلية والذي يخضع بدوره إدارياً إلى الحاكم العام للجزائر وعسكرياً للجنرال قائد الفيلق 19 للمشاة، ومما يميز هذه الإدارة الجديدة إزدواجيتها، حيث أوحى بوجود إدارة عسكرية ومدنية في نفس الوقت، وإن كانت أقرب إلى العسكرية لأن الإدارتين تتبعان ضباط الشؤون الأهلية³، وتعتبر هذه السياسية التي اتبعتها فرنسا في الأقاليم الجنوبية منذ إحداثها مميتة لها ببطء مستعجلة في ذلك الإرهاب والفقر والطغيان بجميع أشكاله وصوره، فأصبحت الصحراء ثكنة كبيرة يخضع كل من بداخلها إلى قوانين عسكرية صارمة⁴.

فإقليم عين الصفراء عوض الشعبة العسكرية لنفس المركز والتابعة إدارياً لمقاطعة وهران، التي أنشأت بموجب قرار 09 ديسمبر 1894⁵، والتي وضعت تحت تصرفها كل من دائرة المشرية دائرة جرفيل ودائرة عين الصفراء، ملحقة جنان الدار، ملحقة زوزفانة والساوره، غير أنه بعد إتمام السيطرة على مناطق الجنوب

¹. إبراهيم مياشي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي، المرجع السابق، ص115.

². G.G.A, Exposé de la Situation Générale des Territoire du Sud de l'Algérie, Année 1903-1929, p01.

³. محمد بن دارة، السياسة الفرنسية في الصحراء ما بين (1962/1952)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ تخصص تاريخ الثورة، معهد التاريخ، الجزائر (1999/1998)، ص05.

⁴. جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994، ص151.

⁵. C. Meissner, op.cit, p.

الأقصى عوض الإقليم العسكري الشعبة العسكرية لعين الصفراء بقرار 12 ديسمبر 1905م، وضعت تحت قيادة الجنرال قائد الحامية والذي يخضع بدوره للحاكم العام إداريا وللجنرال قائد الفليق 19 للمشاة عسكرياً¹، فمن الناحية القيادية قسم الإقليم إلى ثلاث دوائر عسكرية وهي مشرية، البيض (جرفيل)، بشار (كولومب) وملحقي بني ونيف وبني عباس، وتوات- قورارة.

وبالإمكان القول أن التنظيم الإقليمي الذي مس مناطق الجنوب الجزائري، قد أثار مخاوف المستوطنين بشكل كبير لذلك لم تطبق قوانين إنشاء هذه الأقاليم إلا بعد التعديل الذي طرأ على قانون 24 ديسمبر 1902م، بقرار آخر صدر في 15 أوت، وآخر في 12 ديسمبر 1905م الذي شمل عدة تحفظات وجاء مستجيباً لمطالب المستوطنين ومن جملة المخاوف التي أثارت حفيظة العمرين نذكر منها:

- الخوف من هذا التنظيم الجديد فمن المناطق الجنوبية الذي سيمنح صلاحيات كبرى للضباط الفرنسيين.
- الخوف من محاصرة حركة الاستيطان الأوروبي وغلق أبواب الجنوب أمامها.
- الخوف من تحمل خزينة مستعمرة الجزائر نفقات القوات المتمركزة في الجنوب².

وقد جاء هذا القانون من أجل:

- التقليل من نفقات الاحتلال العسكري بالجنوب.
 - الموازنة بين نفقات المدنية والإمكانيات والمحلية.
 - اعتماد أساليب حكيمة في إدارة هذه المناطق والدفاع عنها³.
- لقد بقي العمل بهذا النظام في أراضي الجنوب التي كثيراً ما كانت تعترف بهذه السلطات الفرنسية على أنها جزء لا يتجزأ من الجزائر، وهذا ما يؤكد وحدة الأرض الجزائرية فالضرائب والرسوم التي كانت تجبى في أراضي الجنوب شأنها شأن الضرائب المفروضة في جزء آخر من الجزائر⁴.

¹. G.G.A. Exposé de la Situation du Territoires du Sud, op.cit, p80.

². فصل الصحراء في السياسة الفرنسية، سلسلة الملتقيات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ص143.

³. G.G.A. Exposé de la Situation du Territoires du Sud (1903/1929), op.cit, p1-5.

⁴. صديقي بلال، المشاريع الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1962/1956)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، معهد التاريخ وهران (2010/2009)، ص06.

وقد استمر العمل بهذا القانون حتى غداة الحرب العالمية الثانية، حيث وفي إطار الإصلاحات السياسية، لصالح الأهالي صدر دستور الجزائر في 20 سبتمبر 1947 والقانون الأساسي الذي ينص في مادته الخمسين على إزالة الحكم العسكري عن أراضي الجنوب، وتعتبر هذه الأراضي ولايات تتحدد بقانون بعد استطلاع رأي الجمعية الجزائرية بالشروط التي بمقتضاها تتشكل هذه الأراضي أو بعضها ولايات متميزة أو ولايات مندمجة في الولايات الموجودة أو التي ستنشأ، ويلغي المرسوم الصادر في 3 سبتمبر 1903 وتدمج ميزانية أراضي الجنوب في ميزانية الجزائر بداية من أول جانفي 1948¹.

- التنظيم الإداري:

شهدت منطقة الجنوب تنظيما إداريا والذي كثيرا ما ارتبط بالتطورات التي كانت تحدث في الشمال، فبعد اندثار حلم ومشروع المملكة العربية الذي أفرح المستوطنين الأوروبيين في الجزائر، فعكفت لجنة راندون وبيهيك إلى إصدار مرسوم 29 مارس 1871 الذي تضمن البنود التالية:

- 1- تقسيم الجزائر إلى إقليمين شمالي مدني وجنوبي عسكري.
 - 2- يحكم الإقليمين حاكم عام مدني واسع السلطات يخضع بدوره إلى وزير الداخلية.
 - 3- يتم إنشاء مجالس بلدية وعمالية وفق ما يجري في فرنسا².
- وبعد هذا المرسوم صدر مرسوم آخر في 24 أكتوبر 1870 يمنح حق التجنس لليهود، بهدف تكثير العنصر الأوروبي والذي قدر عددهم بـ 38 ألف نسمة وقد بذل كريستيان اليهودي جهدا كبيرا لتحقيق هذا المشروع³.
- منذ ذلك شعر الأهالي بخطورة الوضع والعواقب الوخيمة التي سيتجرع مرارتها العزل، حيث استغلت الإدارة الاستعمارية مرحلة الثورات التي نشبت في عام

¹. فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية، سلسلة الملتقيات، ص40.

². يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية للكتاب، 1954-1830م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص27.

³. يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية للكتاب، المرجع نفسه، ص28.

1871 بزعامة المقراني والحداد والصبايحية وغيرهم لتقوم بمصادرة أراضي القبائل الثائرة وتفرض عليهم غرامات مالية باهظة وأحكام قضائية جائزة¹. وبعد وصول ألبير قريفي (ALBERT GREVY) إلى الحكم ما بين (1881/1879) وهو أول حاكم مدني صرف، عمل على إلغاء القسم الأكبر من الإدارة العسكرية، وأخضع منطقة الشمال إلى سلطة المحافظين ورؤساء البلديات الأوروبيين، ولم يبق في يد سلطة العسكريين سوى نصف مليون نسمة، حيث بلغ سنة 1881 عدد البلديات الكاملة الصلاحيات إلى 196 بلدية ثم انتقلت إلى 209 عام 1884 ثم 261 عام 1900 والتي يمونها الأهالي الفقراء الذين لا يستفيدون من خدماتها² وهذا باعتراف جول فيري (JULES FERRY) "هذه البلديات استغلال مكشوف لابن البلد الأصلي"³.

وقد حاول جول كامبون (JULES CAMBON) بعد أن تم تعيينه حاكما عاما على الجزائر تطبيق سياسة معتدلة لصالح الأهالي، خصوصا بعد التقرير الذي أعدته لجنة "جول فيري" لكن المستوطنين قاوموه بشتى الأساليب وتمكنوا من إبطال جميع مشاريعه الإصلاحية بالجزائر، ولم يحقق سوى إصدار قانون إلغاء الملاحقات وتعزيز سلطة الحاكم العام وذلك في 31 ديسمبر 1896م ونص هذا القانون أو المرسومة على إعادة سلطة الوالي العام على جميع الإدارات في الجزائر ما عدا الخزينة العامة، والجمارك والقضاء الفرنسي⁴.

هذا وبعد إقرار قانون 24 ديسمبر 1902م، الذي نص على إنشاء الأقاليم الجنوبية في الجزائر وفصل الصحراء عن التل خصوصا بعد توسع الإقليم المدني في الشمال، فعملت الإدارة الاستعمارية على تطبيق جميع القوانين والتشريعات التي كان معمولا بها في الشمال في ظل الحكم العسكري قبل سنة 1870م، والذي تدعم في سنة 1902 وهو حكم عبارة عن بوثقة تلتئم تحت نفوذ استثنائي واحد، تلك المناطق التي عزلت عن الجزائر قهرا وهي المناطق التي كانت إلى غاية 1900 ضمن المجال الجزائري الشاسع.

¹. الطاهر أوصيف، ثورة 1871، ترجمة جياح مسعود، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص104-105.

². Jules Cambon, G.G.A, op.cit, pp132-133.

³. Ibid, p228.

⁴. يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري، المرجع السابق، ص31.

وأصبحت الأقاليم الجنوبية تحت حكم شبيه بما وجد في الأراضي العسكرية قبل سنة 1870م¹ حيث صار العسكريون المكلفون بالشؤون الأهلية يحلون محل المكاتب العربية، وظل ضباط الشؤون الأهلية يلعبون دورا بارزا في توسيع حركة الاستيطان الرسمي بتطبيق جميع القوانين والتشريعات العقارية التي كان معمولا بها في الشمال بهدف غزو الرمال واستغلال خيرات الصحراء الواسعة²، ولم يطرأ على أقاليم الجنوب أي إصلاح من الإصلاحات المعمولة بها في الشمال، وبقيت إدارة الشؤون الأهلية تطبق القوانين التي تم العمل بها في الشمال. فمن الناحية الإدارية قسم الإقليم العسكري لعين الصفراء إلى ثلاث بلديات مختلطة وبلدتين أهليتين يديرها ضباط الشؤون الأهلية باعتبارها مناطق عسكرية صرفة³ وتحول الكثير منها إلى بلديات مختلطة بعد استقرار بعض العناصر الأوروبية فيها، وبلغ عددها 12 بلدية عام 1900 في الأقاليم الجنوبية⁴. أما البلديات المختلطة (COMMUNE MIXTE)، والتي يتم تسييرها بواسطة مجلس بلدي يتكون من القائد السامي للدائرة والملحقة العسكرية، ومكتب الشؤون الأهلية، وضباط المكتب العربي كما يعين نائب خاص فرنسي، وعليه يتكون المجلس من باش آغا جرفيل (البيض)، وآغا العمور والقصور (سي مولاي بن ميلود) والذين ينتمون بدورهم إلى اللجنة الموجودة في البيض وعين الصفراء⁵، وإثر التنظيمات المستمرة التي سيشهدها إقليم عين الصفراء، فقد استحدث منصب لنائب خاص بيوقطب بقرار 07 جوان 1904⁶. وبالتالي فبلديات إقليم عين الصفراء تشكلت كالتالي:

أ- بلدية عين الصفراء المختلطة: أنشأت البلدية المختلطة قرار 4 جويلية 1885م، وكانت في البداية تتألف من فرع عين الصفراء، وفرع مشرية، غير أنه بعد صدور قرار مؤرخ في 19 جانفي 1904 الذي بموجبه ألحقت بلدية عين

¹. أندري برينان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، المرجع السابق، ص397.

². أندري برينان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، المرجع نفسه، ص398.

³. C. Meissner, op.cit, p75.

⁴. يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص29.

⁵. C. Meissner, op.cit, p75.

⁶. Ibidem.

الصفراء بالبلدية المختلطة لمشرية، ليتم بعدها فصل بلدية عين الصفراء نهائيا عن بلدية مشرية¹ بعد ضم ملحقة بني ونيف، وأصبحت تتكون من فرعين:

- فرع ومركز عين الصفراء الذي يضم قبائل العمور والقصور بالمنطقة.
- فرع أو المركز الاستيطاني لبني ونيف بالإضافة إلى الملحقة الحاملة لنفس الاسم.

وفق هذا التقسيم أصبحت بلدية عين الصفراء تتربع على مساحة قدرها حوالي 2,500,000 هكتار ذات حدود إدارية صرفة².

ب- بلدية المشرية: منذ احتلال عين بن خليل من طرف الجنرال "كوزا مونتوبان" (G.COUSIN MONTAUBAN) وإنشاء مركز بها من أجل حماية تحركات قبائل الحميان المعارضة للتوسع الفرنسي بالجنوب الغربي الوهراني، ظهرت فكرة إنشاء مركز أقرب وبالتحديد بمشرية سنة 1878م لكن العراقيل التي اعترضت المشروع كانت أقوى، بانطلاق مقاومة الشيخ بوعمامة، تم احتلال مشرية وإنشاء مركز في خريف 1881، والذي تحول في سنة 1885 إلى ملحقة تابعة لدائرة عين الصفراء³، وسرعان ما استقلت مشرية وأصبحت تشكل دائرة مستقلة خصوصا بعد تحويل دائرة عين الصفراء إلى شعبة عسكرية سنة 1894م⁴، والتي ألحقت هذه الأخيرة بدائرة المشرية بعد أن أصبحت ملحقة عسكرية، غير أنه بعد التنظيم الجديد الذي مس الإقليم العسكري لعين الصفراء حولت مشرية إلى بلدية مختلطة سنة 1904، تضم مركزين⁵:

- مركز عين الصفراء وقبائل العمور.

- مركز المشرية وقبائل الحميان.

أما بلدية البيض فهي تتماشى مع الدائرة العسكرية الحاملة لاسم جرفيل.

ت- بلدية بشار الأهلية: أنشأت بموجب قرار 19 جانفي 1904، وتحتوي هذه البلدية كل من ملحقة بني عباس التي تضم حوالي 300 خيمة و150 فارسا من المخزن الذين عوضوا السرية الصحراوية الملغاة ببشار⁶، وقصور وادي

¹ L.Meyson, op.cit, pp59-60.

² C. Meissner, op.cit, p78.

³ De la Martiniere et Lacroix, op.cit, p300.

⁴ Ibid, pp316-318.

⁵ L.Meyson, op.cit, pp.

⁶ G.G.A. Exposé du la Situation du Territoire du Sud, op.cit, pp25-27.

الساورة، وبالتالي يتكون المجلس البلدي من القائد السامي للدائرة أو الملحقة رئيسا، ورئيس مكتب الشؤون الأهلية لبشار وقائد ملحقة بني عباس وقائد مركز تاغيت وتالزارة، ونائب خاص ومستشارون بلديون، وممثل عن أولاد جرير ودوي منيع، وقائد بني قومي، وقائد من ملحقة بني عباس¹، بموجب الإجراءات التنظيمية التي كانت تحدثها الإدارة العسكرية بالإقليم تحولت البلدية الأهلية لبشار-كولومب- إلى بلدية مختلطة بتاريخ 08 جانفي 1919م.

ث- بلدية تيميمون: أنشأت هذه البلدية منذ 1900 بعد احتلالها من طرف قوات الاحتلال ومن نوفمبر 1903 إلى 01 جانفي 1908 تم إلغاؤها، وفق التنظيمات التي مست الأقاليم الجنوبية عامة وإقليم عين الصفراء خاصة، حيث شكلت كل من توات، قورارة، وتيديكالت "الواحات الصحراوية"، أما توات-قورارة انفصلتا لتشكلا البلدية الأهلية لأدرار وفق التنظيم الذي أحدث سنة 1909، فإن مقر البلدية حول إلى تيميمون، فحدودها نفس حدود مركز توات-قورارة والمجلس البلدي يتكون من قائد ملحقة توات-قورارة، قائد مركز أدرار، ضابط الشؤون الأهلية، وقياد ثلاثة يمثلون قبائل توات وثلاثة يمثلون قبائل قورارة².

يمكن القول أن البلديات الأهلية والمختلطة التي أنشأت بالأقاليم الجنوبية، وهي صورة مطابقة للنظام العسكري الذي تقرر إتباعه بالصحراء منذ 24 ديسمبر 1902م، حيث وضعت جميع الصلاحيات تحت إدارة مجموعة من الضباط والعسكريين الذين لا يمثلون الأهالي إلا بواسطة "القائد" المعين من طرف الحاكم العام، وكانت الجماعة تتألف في حد ذاتها من فئة "الكبار" أو الشيوخ الذين يعينون بدورهم أو يخلعون حسب أوامر الحاكم العام³، وليس لديهم أي صلاحيات في إدارة شؤون العروش والدوار، بل كان القائد العسكري يجمع السلطة الإدارية والتشريعية والعسكرية.

هذا وأنشأت الفروع والمراكز البريدية في جميع المراكز الاستيطانية بإقليم عين الصفراء العسكري بهدف تأمين سير الخدمات بالنسبة للعسكريين والمدنيين بالمنطقة وتأمين الاتصالات ما بين الفروع والدوائر، على غرار المركز البريدي

¹. C. Meissner, op.cit, p76.

². Ibib, p76.

³. أندري برينان، المرجع السابق، ص396.

الذي أنشئ بجنين بورزق في فيفري 1900¹، والذي تم إلغاؤه واستبداله بمركز بريدي مستعجل يؤمن خدمات عسكريين فرنسيين والذي أقره تعديل في 09 نوفمبر 1907م، بالإضافة إلى إنشاء مركز بريدي مختلط في 8 جانفي 1906 ببشار الذي يؤمن وصول الطرود البريدية لأصحابها والتي تولته الشركة المدنية للنقل التي تربط الاتصالات ما بين جميع المراكز العسكرية من بوزنيب إلى غاية أعالي القير².

بالإضافة إلى تزويد الإقليم بخطوط التلغراف والهاتف لتأمين الاتصالات ما بين المناطق البعيدة والحدودية، وسرعة التدخل للقضاء على التحرشات التي كانت تتعرض لها القوات الاستعمارية من حين لآخر من طرف قبائل البربرية وبني مقيل المغربية³.

وحرصا من الإدارة الاستعمارية وخاصة في عهد الحاكم العام ألبير قريفي الذي قام بإصلاحات جذرية في جميع التنظيمات المعمولة بها في إدارة الجزائر وخاصة توسيع دائرة الأقاليم المدنية التي كادت أن تدخل إقليم توقرت وورقلة ضمن القطاع المدني رغم تعالي الأصوات المعارضة لهذه التنظيمات، فقد قام قريفي وبمساعدة وزير العدل السيد ديمول (DEMOLE)، بإنشاء محكمة عين الصفراء للنظر في شؤون القضايا الإسلامية بالرجوع دوما إلى سلطة القائد العسكري للإقليم لإصدار الحكم، حيث تأسست محكمة عين الصفراء في 1881م متكونة من قاضي وباش عدل وعدل⁴، وفي هذه الفترة كان يشهد القضاء الإسلامي ضجة كبيرة وتعالى الأصوات داخل البرلمان من أجل الحد من القضاء الإسلامي ودمجه ضمن القضاء الفرنسي وجعل القضاة المسلمين خاضعين للتشريع الفرنسي⁵ بهدف خدمة المصالح الاستعمارية وخاصة مصالح المستوطنين في الجزائر.

وقد حددت عدة مراسيم منها مرسوم 10 ديسمبر 1886 و17 أبريل 1889م ومرسوم 25 ماي 1892 وقرار الحاكم العام في أوت 1895 صلاحيات القاضي

¹. C. Meissner, op cit, p77-78.

². G.G.A. Exposé du la Situation du Territoire du Sud, op.cit, pp310-312.

³. Ibid, p315.

⁴. C. Meissner, op.cit, p88.

⁵. بليل محمد، تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر وانعكاساتها على الجزائريين بين (1914/1881)، القطاع الوهراني نموذجا، رسالة لنيل شهادة الماجستير، معهد وهران، 2006، ص32.

المسلم والتي اقتصرت على الأحوال الشخصية الإسلامية¹، وتحرير العقود والمواثيق الخاصة بالميراث والطلاق والزواج وقد أجبر القاضي المسلم في الكثير من الأحيان على تطبيق الأحكام القضائية التي تخضع للتشريع الإسلامي، لكن في عهد الحاكم العام جوناو سنة 1892م تحرر القضاء الإسلامي بشكل كبير وأعطيت صلاحيات واسعة للقاضي المسلم، خصوصا بعد التوصيات التي قدمها المؤتمرين والتي تدعو إلى ترقية القضاء الأهلي وترك حرية اختيار للأهالي لتوعية القضاء الذي يرغبونه².

بينما اختلف النظام القضائي المعمول به في الشمال عن الأقاليم الجنوبية فبعد تأسيس محكمة عين الصفراء في سنة 1881م، تلتها محكمة المشرية التي ضمت محكمتين، واحدة للحميان الشفاعة والحميان جمة التي تم إنشائها سابقا بدائرة سبدو حينما كان حميان تابعين لهذه الدائرة³، ولكن بعد تأسيس دائرة المشرية استقلت هذه المحكمة وأصبحت تابعة لدائرة المشرية، حيث تأسست الأولى في 1 ديسمبر 1888 والثانية في 28 جويلية من نفس السنة، ثم تلتها عدة محاكم بإقليم عين الصفراء والجدول التالي يوضح تاريخ إنشاء محاكم الصلح بالإقليم العسكري ومجالس التأديب الملحقة بها⁴:

مجلس القضاء	تاريخ الإنشاء	دائرة الاختصاص

¹. بليل محمد، المرجع نفسه، ص33.

². Ain Sefra, (Journal), Congrès Colonial N°457, 15 mars 1890.

³. C. Meissner, op.cit, p88.

⁴. Ibid, p87.

تابعة لمجلس قضاء معسكر	ألحقت بها كل المراكز إلى غاية حجرة المقيّل.	27 جانفي 1883	- عين الصفراء.
	كل الدائرة (المشريعة).	27 جانفي 1883	- مشريعة.
	كل دائرة البيض	10 أوت 1875	- البيض.
	إلى غاية حجرة المقيّل.	20 أكتوبر 1901 ¹	- بني ونيف.
	تضم توات، قورارة ومركز بني زيرق.	28 جوان 1906	- بشار.
	خاص بمركز أدرار.	17 أكتوبر 1908	- أدرار.
	يمتد إلى غاية ملحقة قورارة.	01 جانفي 1910	- تميمون.

ومن الواضح أن النظام العسكري القهري الذي فرض في الأقاليم الجنوبية، منذ بداية احتلال هذه المناطق والتوسع بها، قد منح للقائد العسكري والضباط السامون كامل الصلاحيات في التصرف، حيث كان يجمع قادة الدوائر والملحقات العسكرية بالجنوب السلطة الإدارية والتشريعية والعسكرية في آن واحد ولهم كامل التصرف المطلق في اتخاذ التدابير والإجراءات التي يراها مناسبة لخدمة مصلحة الإدارة الاستعمارية، وقد ترك للمحكمة الإسلامية بأقاليم الجنوب إدارة الشؤون الأهلية والمدنية والنظر في القضايا الاجتماعية، كعقود الزواج والطلاق وفض الخصومات بين المواطنين غير أن القضايا العالقة وخاصة مشاكل العقار والأرض فإن الفصل فيها يرجع إلى المحاكم الجهوية²، ثم يتدخل القائد العسكري والمخول بكل الصلاحيات للنظر في شؤون الشكايات، والتي يقضي فيها غير مكترث بالرجوع إلى القانون، في حين أن الأوروبيين كانوا يرجعون إلى المحاكم المدنية بالشمال لحل مشاكلهم العالقة بالجنوب كان الأهالي بمنطقة الجنوب يرتبطون بطغيان المحاكم الظالمة تحت الإدارة العسكرية³، وهي إدارة تتكون من مجالس عسكرية حربية تنظر في المخالفات والجرائم العامة كما تنظر في المخالفات الغابية والجمركية، والتي وصفها أحد المشرعين بأنها عبارة عن "مؤسسة لا تنتمي إلى هذا العصر"⁴، وتتفرع عن المجالس لجان التأديب تقترح

¹. Ibid, p87.

². محمد بليل، المرجع السابق، ص36.

³. أندري برينان، المرجع السابق، ص398.

⁴. أندري برينان، المرجع السابق، ص397.

على الحاكم العام العقوبات لكل أعمال العنف التي لا يمكن إحالتها على المحاكم المدنية أو العسكرية لأنها لا تعتبرها من المخالفات. ومن خلال هذه الإجراءات تسعى الإدارة العسكرية إلى تدعيم السلطة الشخصية لدى قادة الجيش ومعاونيهم، وفرض الغرامات أو الأحكام بالسجن حسب مرتبتهم العسكرية لا بمقتضى خطورة المخالفات التي قد تنعدم في بعض الأحيان.

كما زودت الإدارة الاستعمارية الأقاليم الجنوبية، بكل المؤسسات التي من شأنها خدمة المشروع الاستيطاني وخاصة مؤسسات التعليم، حيث تم إنشاء العديد من المدارس بالبلديات المختلطة والأهلية، فعلى سبيل المثال أنشأت مدرسة لتعليم البنات بموجب قرار 8 ماي 1888م بعين الصفراء، ثم مدرسة للذكور بقرار 10 أكتوبر 1894م، أما في دائرة كولومب فقد تم فتح مدرسة سنة 1907، غير أن قلة التلاميذ دفع بالسلطات العسكرية إلى غلقها وإلحاق ثلاث أقسام بمشربية منذ 1905م وقسمين آخرين بمدرسة البيض سنة 1906م¹. إلى جانب التعليم القرآني الأهلي الذي فرضت عليه السلطة الفرنسية رقابة شديدة، وعملت كل ما في وسعها من أجل إلغائه والتقليل منه في أوساط الأهالي، وقد وصفه السيد أينارد (M.AYNARD) "أن هذا النوع من التعليم يكتسي شهرة كبيرة في عالم الأهالي"²، وقد اشتهرت مدرسة سيدي سليمان بن بوسماحة بقصر بني ونيف والتي حولت سنة 1908م إلى داخل القصر بجوار المسجد العتيق للقصر، وكان يشرف عليها مدرسين وأئمة من أولاد سيدي الشيخ وبلغ عدد التلاميذ حوالي 18 فردا، فيما قدرت عدد المدارس بتوات نحو 27 مدرسة قرآنية يرتادها حوالي 450 تلميذا أما في قورارة وهي مركز الإشعاع الديني بالمنطقة بلغ حوالي 100 مدرسة تأطر نحو 2000 تلميذ³.

هذا وشهدت المنطقة حركة تبشيرية واسعة، قادتها مجموعة كبيرة من المبشرين ورجال الدين المسيحيين، حيث تم إنشاء مؤسسة لافيغري للآباء البيض بمنطقة عين الصفراء، والتي اشتد نشاطها بعد الحرب العالمية الأولى وبالأخص بداية من سنة 1930، والتي تمكنت من إفتكاك مساحات شاسعة من الأراضي العقارية

¹. C. Meissner, op.cit, pp91-92.

². Ibid, p96.

³. Ibid, p97.

بمدينة عين الصفراء، وقد ارتبطت جل أعمالهم بعمليات التنصير من أجل توسيع دائرة الهيمنة الفرنسية في أراضي الصحراء وتسهيل تغلغل الاستعمار في الجنوب الوهراني.

وقد تمكنت البعثات الإرسالية المسيحية من مضاهاة المستعمرين في حد ذاتهم وهو ما يثبته كورنغان مصرحا: "إن مسار الحركة الاستعمارية لإفريقيا يعكس أهمية الدور الذي لعبه الإرساليات المسيحية، حيث أن هؤلاء المبشرين تبوؤوا مكانة الاستعمار". وصرح النائب الفرنسي فرناند أنجران قائلا: "إن المبشر يعمل من أجل ازدهار الفكرة الاستعمارية للبلاد التي ينصرها"¹.

وعلى هذا الأساس تمكن الأب شارل دي فوكو^{*}، وبعد إقامته في بني عباس من سنة 1901 إلى 1905 أن يدفع عجلة الاستعمار والاستيطان بمنطقة بشار ويغير الحياة الاجتماعية بها، حيث اعتبر حلقة وصل بين السلطة العسكرية والسكان بالصحراء وعاملا مساعدا على توطيد العلاقة بين المستوطنين الأجانب والأهالي².

وخلاصة القول، أن التنظيم الإداري الذي اتبعته السلطة الفرنسية في الجزائر كان بدرجة أولى لخدمة مصالحها ومصالح الطبقة الكولونيالية، ومن أجل تثبيت العنصر الأوروبي على حساب العنصر الجزائري وتوفير المناخ الملائم لهم بهدف تشجيعهم على الاستيطان، ولكن هذا غير كاف بالنظر لمطالب المستوطنين اللامتناهية خصوصا ملكية الأرض التي تعتبر أساس الاستقرار والبقاء.

- سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي

- مصادرة الأراضي بالإقليم:

ارتكز تغلغل الاستعمار في الإقليم الصحراوي، كغيره من المناطق الشمالية في الجزائر على أساس تحقيق استيطان بشري أوروبي ما فتئ يتسع مداه تدريجيا وبصورة متزامنة مع اتساع المناطق التي سقطت في يد الاحتلال.

¹. عميراي أحمدبة، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية، (1916/1844)، دار الهدى الجزائر، 2008، ص103.

^{*}. شارل دي فوكو: ولد في 15 سبتمبر 1858 بمدينة ستراسبورغ فرنسا، وقد نشأ يتيما حيث توفي والده في طفولته انضم سنة 1890 إلى إحدى المجموعات الدينية (دام دوناج) ولقب كاهنا في 1901، توفي بعد تعرضه للاغتيال من طرف جنود السنوسية في 01 ديسمبر 1916.

². عميراي أحمدبة، المرجع السابق، ص104.

ولا يكتمل الاحتلال الشامل إلا بالسيطرة على العديد من الأراضي بالإقليم الصحراوي بغية إضعاف وإرباك القبائل المتلاحمة، والوصول إلى هذه النتائج طبقت السلطات الاستعمارية ترسانة من القوانين والتشريعات العقارية التي أصدرتها وطبقت جلها في المناطق الشمالية للجزائر وفيما يخص المناطق الجنوبية فإن الأمر يختلف بشكل واضح، حيث أن القرار المشيخي لم يطبق إلا استثنائيا في الإقليم العسكري الصحراوي¹، فقد كان الهدف منه هو ترسيم حدود الدواوير والأراضي الحكومية من طرف القبائل وتحويلها إلى ملكيات فردية في الإقليم، لأن الأراضي كانت رعوية وهو محتم توجيهها إلى المنفعة الجماعية، وربما كان تقسيمها على القبائل سيؤدي إلى نزاعات قبلية تستمر طويلا.

فالعملية التي أجريت في عين الصفراء كانت تهدف إلى تحديد الأراضي بين القبائل التابعة للإقليم المدني والقبائل الموضوعة تحت مراقبة السلطات العسكرية. أما في دائرة مشرية وعقب صدور المرسوم الحكومي في 4 ماي 1907 فإن أعمال ترسيم الحدود وضعت فيها يخص قبيلة بني مظهر في البلدية المختلطة لتلاغ، هذه العمليات مست كذلك قبائل رزانية الشراقة والغرابة وأولاد سرور المجاورين لبني مظهر لم ينجم عنه حل مرض لهذه القبائل بل أفقدها بعض أراضيها²، كما أنه لم يتم التوصل لاتفاق بين القيادة العليا والحاكم الإداري فيما يخص هذه المشكلة، وهو ما دفع بالسلطات المدنية الاستعمارية في مقاطعة وهران تبني اقتراحها في ربط مجموعتي رزانية بالبلدية المختلطة لسعيدة، وقد أجري تحقيق معمق تمخض عنه تأكيد بقاء القبيلتين بدائرة مشرية، وهذا بموجب قرار السيد الحاكم العام في 20 أفريل 1910³.

وبإمكان القول أن عمليات سلب الملكيات العقارية المتعلقة بأولاد سيدي خليفة التابعين لبلدية سعيدة انتهت في نوفمبر 1911 حيث أن ترسيم الحدود أعطى تغيرات كبيرة خاصة للحدود الجنوبية، فقد تم الاستيلاء على مساحات شاسعة، بل وتعدت الأراضي الخاصة بقبائل الرزانية والحميان بيد أن المسألة لم يتم حسمها نهائيا⁴.

¹. C. Meissner, op.cit, p48.

². Ibid, p48.

³. Ibid, p48.

⁴. Ibid, p49.

وفيها يخص دائرة البيض (جرفيل)، فقبيلة الأغواط الكسل وكذلك أولاد سيدي الشيخ الشراقة وحدها التي أخضعت ما بين 1892/1899 لعمليات سلب الملكيات العقارية وترسيم الحدود غير أنها لم تسجل رسمياً¹، فإن اللجنة الإدارية المكلفة بتطبيق القرار المشيخي اقترحت تقسيم إقليم الأغواط الكسل إلى 05 دواوير تحت أسماء مختلفة (ستيتن-رزيقات-أولاد مومن-أولاد عيسى-أولاد عمران-القراريج)، وقد بقيت العملية على حالها حتى الآن².

وقد بدأت تطبيق الإجراءات الأولى بدوار الغسول (البيض) ثم استمر وعمت على بقية الدواوير الأخرى، فانتهى العمل بدوار الغاسول وتمت المصادقة على الملف نهائياً³، أما في دوار مومن فالعمليات كذلك تمت وصودق على الملف نهائياً كما أنه سيخضع لاحقاً إلى المناقشات المختلفة للمهتمين بتطبيق الإجراءات الشكلية والخاصة بإيداع الملف⁴.

ويضاف إليه عمليات رسم الحدود في دوار القراريج على الأراضي الشاسعة وتوزيعها بالتعاقب في كل دوار وفق المقاييس المحددة من طرف لجنة سيناتوس كوسنات⁵.

أما عمليات ترسيم الحدود المتعلقة بأرباوات والتي بدأت الأعمال بها من طرف لجنة القرار المشيخي في 1906 وقد تم مراجعتها طبقاً للشروط الموضوعية في الرسالة رقم (727) المؤرخة في 3 فيفري 1910، فالسيد الحاكم العام أعاد النظر في محتوى الرسالة وتمت العمليات في بداية سنة 1913 وترسمت حدود قبائل سيدي خليف الشراقة بسعيدة والدراقة الشراقة والغرابية لدائرة البيض⁶.

فقد استمرت الآلة العسكرية في مصادرة أراضي القبائل، وهو ما حدث لقبيلة مخاليف لزرق بملحقة الأغواط، فيها يخص المساحة الشاسعة والشاغرة التي يمتلكها "محمد بن عمار"، المقدر مساحتها بـ 50 هكتار، الواقعة برشاق بمحاذاة الضفة اليسرى "لواد أمزي"، فقد تدخلت الجماعة لحل المشكلة، غير أن السلطات

¹ Ibid, p49.

² Exposé de la Situation des Territoires du Sud de l'Algérie, Présenté par M.Jonnart, Gouverneur Général Année... 1903/01/01-1929/12/31, p456.

³ Ibid, p457.

⁴ Exposé de la Situation Général du Sud, op.cit, p458.

⁵ Ibidem.

⁶ C. Meissner, op.cit, p49.

الاستعمارية رفضت هذا التوسط، بدعوى أن الأرض التي لم تخضع لعمليات تصنيف سيناتوس كونسلت غير قانونية، وبالتالي ليس هناك أي دليل في مبدأ وحق أي قبيلة في ملكية هذه المناطق الشاسعة غير المزروعة¹. ونظرا لأهمية الأراضي في الفكر الاستعماري، فإن القادة العسكريون شددوا على مراقبة وإحصاء عدد الأراضي الشاغرة قبل أن تناقش المسألة من قبل مجلس الجماعة؟ مع تقديم تقارير وافية عن جميع الأراضي في كل البلديات والدوائر والملحقات².

لقد كان قانون سيناتوس كونسلت 1863، في الواقع آلة الحرب الأكثر فعالية التي غيرت الوضع الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الجزائري وهو بالتالي كان الوسيلة المثمرة التي مكنت الاحتلال من وضع العديد من الأراضي في يد المستوطنين وتعزيز الملكية الفردية وتوطيد المجتمعات الرأسمالية في الكيان الجزائري، بغية ضرب مقومات القبيلة وعادات الشعب في عقر داره، ويحلل كارل ماركس مسألة الملكية العقارية وسلب الأراضي سنة 1879 على أن الأرض في السابق (قديمًا) كانت حيازة مقيمة على قبائل البدو الرحل الذين يجوبون الفياقي بحثًا عن الماء الكأ، وقد كانت الملكية تنتقل من جبل إلى جبل وتعد نتيجة التغيرات الآتية:

أ- التجزئة التدريجية للقبائل إلى عدة فروع.

ب- ضم عدة أعضاء من قبائل أجنبية مثل المغاربة المزابيين³.

ويذكر أيضا كيف أن قانون فارني (WARNIER) ساهم بشكل خطير في سلب أراضي القبائل ومصادرتها وتوجيهها للمزاد العلني وتمكين الأوروبيين من حيازة هذه الممتلكات ومن الملاحظ أن السلطات الاستعمارية كانت تهدف وراء سياسة مصادرة الأراضي إلى عدة نقاط التي يمكن أن نلخصها في:

1- تأسيس الملكية الفردية.

2- إضعاف سلطة القبائل والعشائر، وبالتالي تفكيك لحمة القبيلة بغية التمكن من السيطرة عليها¹.

¹. Lettre de M. le Gouverneur Général de l'Algérie à Messieurs le Comandant Militaire du Territoires de Ghardaia-Laghout, Alger, le 30 mars 1908.

². Ibidem.

³. Karl Marx, le Système Foncier en Algérie, Dans sur les Sociétés Précapitalistes (Extraits du Cahier de Note Datant de 1879), Paris, Editions Sociales, 1970, pp201-235.

وقد ظهر بشكل واضح إثر مصادرة أراضي القبائل انحسار وضيق ملكيات الأراضي المشاعة وبقاء مشكل الملكية الفردية لدى بعض القبائل فقط في الجبال، أما السهول فبقيت ملك للقبائل التي بحوزتها عدد كبير من القطعان. من الواضح أن هذه السياسات الخطيرة للاستيلاء على الأراضي في الجزائر عامة وفي الإقليم الجنوبي خاصة قد أثار المشايخ وكبار الأهالي فقد تنبهوا لخطورة المسألة، غير أنه لم يكن في وسعهم وقف هذه العمليات الجائرة، باعتبار أن السلطة العسكرية بالإقليم الوحيدة المخولة لمنح الامتياز أو التخلص ومصادرة قطع الأراضي للأفراد².

فقد أثرت عملية مصادرة الأراضي على النشاط الاقتصادي التقليدي للقبائل المتعلق بحياة القبيلة في الإقليم الصحراوي وأدى إلى انحسار ثرواتهم وكذا ضيق المساحات الرعوية وبالتالي فقدان العديد من قطعان الماشية³.

فإن القبائل التي كانت تعيش من الرعي خاصة أصبحت غير قادرة على إنتاج قواعد وجودها المادية الخاصة بها، ويضح أيضا اندثار كلي وتراجع ممارسة العشابة (حركة المصيف من الجنوب الشمال) والعزابة (حركة الشتاء من الشمال إلى الجنوب) لم يعد بإمكانهم مواصلة اقتصادهم البدوي والقبلي بسبب التدابير المتخذة من طرف الإدارة الاستعمارية⁴، بالتالي يمكن الاستنتاج أن النظام الإداري في المناطق الجنوبية كان مختلفا جدا على الأقاليم التالية (الشمالية).

وبإمكان القول أن سياسة سلب الأراضي في مناطق الهضاب العليا والجنوب الغربي قد غيرت النمط المعيشي للسكان بالجنوب الغربي، وفرضت فرنسا وفق سياستها هذه هجرات جماعية للبدو الرحل والذين يعيشون تحت الخيام أي ما يقارب ثلثي مجموع السكان (67 %) في حين تضاءلت ما بين 1860 و1870 إلى حوالي 500.000 شخص بقي يعيش حالة البداوة والبقية غيرت نمط

¹. Yazid ben Hounet, l'Algérie des Tribus, le Fait Tribal dans le Haut Sud-Ouest Contemporain, l'Harmattan, Paris, 2009, pp79-83.

². Ibid, p4.

³. هواري عدي، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي (1962/1830)، ترجمة جوزيف عبد الله، ط1، دار الحداثة، بيروت، 1983، ص60-69.

⁴. Ben Hounet, op.cit, p86.

حياتهم حيث رحلت بحثا عن العمل إما في التل الجزائري وخروجها إلى تونس والمغرب بعدما ضيعت السياسة الجائرة كل ممتلكاتها¹. يبدو الاختلاف الواضح في سياسة سلب ومصادرة الأراضي في الجزائر ما بين الإقليم التلي والأقاليم الجنوبية الصحراوية، هو عامل الجفاف وقلة التساقط بالمناطق الجنوبية وكذا قلة خصوبة التربة وعدم وجود مساحات صالحة للزراعة ويضاف إلى ذلك طغيان طابع الرعي والانتفاع الجماعي للأرض، لذا فالأرض في الجنوب موجهة للمنفعة العامة، لكن توجد بعض الملكيات الفردية أو الخاصة في الواحات أين توجد بعض المساحات التي تمارس بها جل أنواع الزراعات². وبالرغم من ذلك فإن ذلك السلطات الاستعمارية أصدرت سنة 1926 قانونا ألغت بموجبه التمييز بين الإقليم الجنوبي والإقليم الشمالي في نظام الملكية العقارية³، لقد لعبت المكاتب العربية دورا بارزا في عمليات نزع الأراضي من الأهالي وتمليكها للإدارة العسكرية في الجنوب وذلك باللجوء إلى زعماء القبائل واستغلال نفوذهم وبالتالي تدمير الهياكل القديمة للسلطة التقليدية للقبائل، وقد لجأت إلى تعيين زعماء في بعض الأحيان لا ينتمون إلى تلك القبيلة والذي سيصبح بدوره ممثلا إداريا لخدمة المشروع الاستيطاني⁴، ويمكن أن نلاحظ أنه في أواخر القرن التاسع عشر أن قبائل الجواد (DJUAD)، وهي تلك القبائل الارستقراطية قد اختفت تماما في النظام القبلي الجزائري⁵.

- تفكيك وإضعاف سلطة القبائل بغية تحقيق المشروع الاستيطاني:

لقد عانت قبائل الجنوب الغربي كغيرها من القبائل في الجزائر من السياسة الاستعمارية القائمة على تفكيك وإضعاف سلطة العشائر، فالإيديولوجية القائمة بسم التقدم والتحضر عملت في الواقع على التشكيك في الممارسات التقليدية لعنصر الأهالي.

وقد عملت السلطة العسكرية في الجنوب الاستعانة بالمكاتب العربية واتخذت جميع التدابير التي تحد من نفوذ زعماء القبائل وخاصة ذات النفوذ الديني المشروع

¹. Jacques Berque, le Maghreb Enter Deux Guerre, Paris, seuil, 1962, p212-136.

². عدي الهواري، المرجع السابق، ص54-57.

³. عدي الهواري، المرجع نفسه، ص.ص58-59.

⁴. Ben Hounet, op.cit, pp87-90

⁵. Ibid, p91.

كقبائل أولاد سيدي الشيخ كما كانت تلجأ في بعض الأحيان إل تعيين زعماء وقياد خاضعين لها، في بعض الأحيان ينتمون للقبيلة نفسها، وعملت على "مبدأ فرق تسد" لإضعاف سلطة العشائر.

كما أن سياسة مصادرة الأراضي أدت إلى تدمير أسس تماسك النظام القبلي، ويتضح ذلك جليا في تحطم واختفاء قبائل الجواد (DJUAD)¹ الأرستقراطية عشية الاستيطان الاستعماري كانت قبائل العمور وأولاد سيدي أحمد المجذوب تعيش في الخيام وعالم البداوة وتعتمد على الرعي كنشاط اقتصادي تقليدي خاص بها، وكذلك كانت بعض الأسر تمتلك حدائق الأشجار والنخيل في القصور المتواجدة بالمنطقة، خصوصا في عسلة التي استقر فيها أولاد سيدي أحمد المجذوب أما سفيسية، تيوت، مغرار، وفقيق، كانت تقطن بها قبائل العمور².

إن تطور العمور وأولاد سيدي أحمد المجذوب أدى إلى حدوث نزاعات واضطرابات على الحدود المغربية في الجنوب السياسي التي كانت مسألة متنازعة ما بين السلطة الفرنسية والحكومة المغربية إلا أن حلها كان جزئيا وفق معاهدة لالة مغنية عام 1845 التي أقرت الحدود بين المغرب والجزائر لكنها فشلت في توضيح المعالم الخاصة بالأراضي الجنوبية وهو ما دفع الحكومة الفرنسية إلى الاعتماد على عسكرها لحسم المسألة خصوصا بعد بعث حملة كافينياك إلى اكتشاف القصور الصحراوية بداية من سنة 1847³، وقد واجهت سلطات الاحتلال مسألة حيازة البدو الرحل منطقة جبال القصور والأراضي المجاور لهم حيث أن معاهدة 1845 أغفلت أو لم تنص على شيء محدد حول هذه المسألة، وفي عام 1855م أغلب قبائل العمور أصبحت خاضعة للسلطة الفرنسية التي عملت على تقسيمهم إلى 03 قيادات مكونة من 520 خيمة⁴ كما هو موضح في الجدول الآتي⁵:

الجدول رقم 01:

أولاد سليم	المريينات (60 خيمة) يشكلون 5 داوير
------------	------------------------------------

¹. Yazid Ben Houent, op.cit, p92.

². Ibid, p93.

³. Ibid, p100.

⁴. D'après les Notes sur la Tribu de Amour du Commandant Colonieu, Datées de 1859, Dans un Document, Voire, Ben Houent, op.cit, p101.

⁵. Ibid, p96.

شوارب (60 خيمة)، يشكلون 5 دواوير	
أولاد الشحمي (60 خيمة)، يشكلون 3 دواوير	
أولاد عبد الله (120 خيمة) يشكلون 6 دواوير	
أولاد مذبح، المذابيح (60 خيمة) يشكلون 3 دواوير	أولاد بوبكر
أولاد قطيب (70 خيمة)، يشكلون 6 دواوير	
أولاد عامر	
أولاد عليات	الصوالة (100 خيمة)
أولاد سليمان	05 أقسام يشكلون
أولاد يوسف	دوار
أولاد عمر	

وفيما يخص قبيلة أولاد سيدي أحمد المجذوب فإن وضعهم تغير بعدما غادروا وتخلوا عن سي حمزة (قائد أولاد س.ش.الغرابية) والتجأ إلى سيدي الشيخ بن الطيب (قائد أولاد س.ش.الغرابية)، وقد بقوا تحت قيادة السي حمزة لمدة معينة إلى غاية 1848 يدفعون الضرائب ويتعاونون مع قبائل عمومهم، وفي عام 1849 خرجوا عن السلطة أولاد سيدي الشيخ احتجاجا على سي حمزة الخاضع للسلطات الفرنسية، حيث أن أولاد سيدي أحمد المجذوب كانوا رافضين للاحتلال والتوسع في مناطق الجنوب الوهراني¹، وقد شاركوا في مقاومة أولاد سيدي الشيخ في سنة 1864 وحصلوا بعدها على العفو.

ثم شكلوا قيادة مستقل بالرغم من انتماءهم لأولاد سيدي الشيخ وقد وضعوا في دائرة سبدو إلى غاية 1878، ثم فصلوا عنها بسبب ارتباط مصالحهم بمنطقة عسلة والشلالة وبوسمغون وبموجب قرار 04 نوفمبر 1878 تم إلحاقهم بدائرة البيض²، فشكلت هذه القبيلة 6 دواوير في ذلك الوقت بإجبار من السلطات، فعقب ثورة الشيخ بوعمامة الذي ينتمي لأولاد سيدي التاج عام 1881 والتي تعود أسباب قيامها بالدرجة الأولى إلى المسألة العقارية ونتائج سلب الملكيات وخاصة المراعي في منطقة الهضاب العليا والسهوب، وكذا طرد القبائل وحرمانهم من

¹. Ibid, p97.

². Ibid, p98.

أراضيهم وتهجيرهم نحو مراعي أخرى في الجنوب¹، ولذا أزمة خطيرة أثارت استمرار التمرد والثورات ضد الفرنسيين وهو ما اضطرت السلطات الفرنسية إلى بناء مركز عسكري بالجنوب الغربي وخاصة بعين الصفراء وكان ذلك في 20 مارس 1882 (إنشاء دائرة عين الصفراء)².

لقد خضعت قبائل العمور وفق هذا التأسيس الجديد للدائرة إلى تفكيك قبلي جديد حيث قسموا إلى ثلاثة قبائل وهي أولاد سليم وأولاد بوبكر والصوالة والتي عدلت لأول مرة في عام 1885 عام واحد بعد رحيل المذابيح للمغرب³.

أما أولاد بوبكر تم تقسيمهم إلى قيادتين (02): أولاد عبد الله وأولاد قطيب في عام 1889 كما شرعت السلطات الفرنسية في إعادة تفكيك قبائل أولاد سليم حيث قسمتهم إلى المرينات وأولاد الشحمي ثم تجزأ الصوالة إلى أولاد عامر وأولاد سليمان⁴، وفي عام 1898 تم تنظيم العمور في 04 قيادات منظمة وهي كالتالي: أولاد بوبكر، الصوالة، أولاد الشحمي، المرينات.

فقبيلة الشوارب شكلت جزأين ألحقت بمغرار الفوقاني والتي تتألف من سكان القصور والعناصر المتبقية من أولاد سي التاج الذين فر الكثير منهم إلى المغرب⁵. على الرغم من احتلال عين الصفراء وإنشاء دائرة فوضعية العمور لازالت بدون حل، في نهاية مارس 1887 طلبت الحكومة الشريفة من السلطات المغربية تسهيل عودة آلاف الخيام إلى المغرب المستقرة في شعبة معسكر (شعبة عسكرية يخضع لها الجنوب الغربي)⁶.

ونظرا لتطور هذه المعضلة الخاصة بقبائل العمور دفع البعض منهم إلى العثور على ملجأ في الحلية لبني سمير، وقد أثار هذا اللجوء على ظهور مشاكل السيطرة والسلب والنهب سنة 1888 وهو ما دفع السلطات الفرنسية إلى إعادة تجمع القبائل بمعاقبتها ومحاكمة كل الخيام المتسببة بهذا العمل⁷.

¹. Anonymes et Schmidt "Histoire du Cercle d'Ain Sefra" Document Relus pas le Père Communard d'Ain Sefra, 1949, pp4-5.

². N.Lacroix et H.M.P de la Martinière, op.cit, p300. Anonymes et schmidt op cit, p27-28

³. Anonymes et Schmidt, op.cit, p27-28.

⁴. Ibidem. Lacroix et A.M.P la Martinière, op cit, p304.

⁵. Ben Hounet, op.cit, pp98-99.

⁶. Lacroix et A.M.P La Martinière, op.cit, p320-321.

⁷. Ibid, p304-305.

وهي الفترة نفسها التي ظهر فيها المحرض المغربي عمر ألسوسي والذي قدم فيقيق وحاول استمالة العمور واعتبارهم مسألة مغربية، غير أنه فشل في مسعاه¹. ففي 07 أوت 1888 الحاكم العام للجزائر في أعقاب مجلس الحكومة أوضح بأن العمور التابعين لدائرة عين الصفراء تم الفصل في شأنهم على أنهم مسألة جزائرية بحتة.

يمكن القول أن القبائل رفضوا الاحتلال الفرنسي لمناطقهم وهو ما أجبرهم إلى الهجرة واللجوء للمغرب، ولمواجهة هذا الترسيب قامت السلطات الاستعمارية برفع عدد الفرسان الصباحية في دار عين الصفراء²، وكذلك قامت بفرض الهجرة القصرية والإجبارية بعدد كبير من الخيام قدرت بحوالي 343 من العمور شرقا باتجاه ملحقة آفلو وذلك منذ سبتمبر 1888 ورغم هذا القرار الجائر، فإن حق القبائل والخيام العزل فإن التسرب نحو المغرب بقي مستمرا³ ويمكن أن جور وظلم السياسة الاستعمارية ضد قبائل العمور لدرجة أنهم لم يتحملوا هذه الإجراءات التعسفية في حقهم وأماكنهم وأراضيهم.

ويتضح أن بعض خيام العمور ظلت تجمع بملحقة آفلو وتفكر بعدها في الهروب إلى المغرب وقد أحصي في نوفمبر 1888م، 697 خيمة تابعة للعمور بقي منها سوى 95 وجدت مستقرة في ملحقة عين الصفراء وأغلبية الخيام إما موجودة في آفلو أو في المغرب (حوالي 251)⁴.

في الرسالة التي بعثها الجنرال قائد مقاطعة وهران إلى الجنرال قائد شعبة عين الصفراء في 05 أبريل 1898 التي يقترح فيها تقسيما وتجزئة لقبائل دائرة عين الصفراء بعد عودة بعض الخيام حيث شكلوا 06 قبائل⁵.

أولاد سليمان، أولاد عامر، أولاد الشحمي، أولاد عبد الله، أولاد قطيب، المرينات طلب منهم حفظها إلى أربعة فقط والتي تشكلت تحت الأسماء التالية:

1- قبيلة الصوالة حوالي 150 خيمة، هذا من شأنه أن يشمل هذه القبائل الحالية أولاد سليمان أولاد عامر، ويضاف إليهم أولاد عليات الذين عادوا مؤخرا من المغرب ودخلوا تحت قيادة (قائد تيوت).

¹. Ibid, p301.

². Ben Hounet, op.cit, p99.

³. Lacroix et A.M.P La Martiniere, op.cit, p304.

⁴. Ben Hounet, op.cit, p94.

⁵. Ibid, p95.

- 2- قبيلة أولاد بوبكر (حوالي 80 خيمة) إنها تشمل القبيلتين الحاليتين أولاد عبد الله وأولاد قطيب والتي تنضم إليهم المذاييح الذين عادوا مؤخرا وحاليا وضعوا تحت قيادة القائد سفيسيقة.
- 3- قبيلة أولاد سليم ويمكن أن تشمل القبيلة الحالية أولاد الشحمي والتي ستتنضم لها قبيلة أولاد بوشارب (الشوارب).
- 4- المرينات (حوالي 100 خيمة) لازالت تشكل وحدها قبيلة واحدة.
- وهي رسالة مؤرخة في 21 أكتوبر 1898 كتبها الجنرال (GAILLARD DE SAINT GERMAIN) حيث طلب دمج قبيلة المرينات في قبيلة سليم وبالتالي سيصبح التنظيم كالتالي: (أولاد سليم، أولاد بوبكر، الصوالة).
- في 06 سبتمبر 1898 الحاكم العام للجزائر قبل هذا التنظيم الجديد الذي منح للعمور واقتراح أن يعيش سي مولاي بن ميلود على رأس هذه القيادات¹ أي كقائد عليهم.

الطرق الصوفية المتبعة	أسماء القبائل المجزئة	اسم المقدم	عدد الخيام	ملاحظات
العمامية	- أولاد عبد الله* - أولاد قطيب* - أولاد الشحمي	علي بن رقية محمد بن سعيد حمين ولد منصور	15 30 15	تنتمي للقبيلة المنشقة*
اليوسفية	- أولاد عبد الله - أولاد قطيب - مذاييح - أولاد	جلول ولد علي محمد بن	22 10 20 20 10	

¹. Ibid, p98.

	15 20 50	حليفي	الشحمي - أولاد عامر - أولاد سليمان - عليات	
خيمة من كل قبائل العمور	06 08 30	 العربي ولد عيسى	- مريونات - مريونات - مريونات	طبييه القادرية كرزازية

الملاحظات	عدد الخيام	أسماء القبائل
- لديها خيمة تعمل ضمن المخزن - مع المخزن أكثر من 25 خيمة تعمل عند الحميان كرامة للنعم. - تسكن مع أولاد سيدي التاج	08 10 01	أولاد عبد الله أولاد بوبكر مدايح
- خيمتان ضمن المخزن. - خمس خيام ضمن المخزن	85 51	المريونات أولاد سليمان الشحمي أولاد بوشارب
- خيمتان ضمن المخزن يعلمون كرامة في تيوت لأملاتهم	50 52	أولاد سليمان أولاد عامر صوالة

	02	أولاد عليات
	259	المجموع

Lacroix et A.M.P. La Martinière op.cit, pp322.

المصدر:

الفصل الثالث: استغلال الثروات

تحمل تصريحات العديد من المستكشفين العسكريين للجنوب الغربي بمدى غناه بالثروة الحيوانية وخصوصا قطعان الماشية المنتشرة بالمنطقة السهلية، التي تضم كل من دائرة مشرية والبيض وشمال عين الصفراء، لذلك انصب اهتمام الضباط العسكريين بتحويل هذه الثروات نحو وطنهم الأم متبعين شتى أنواع الاستغلال التي لا يمكن تصورها.

- استغلال الثروة الحيوانية

تنبه الضباط الفرنسيون بعد غزو منطقة عين الصفراء وخصوصا بضواحي العريشة ومشربية في بداية سنة 1854 إلى الانتشار الكبير لقطعان الماشية وخاصة لدى قبائل الحميان التي تجوب السهول الكبرى لعين الصفراء وسفيسيفة، مغرار الفوقاني والتحتاني ويش، وأيضا قبائل أولاد سيد الشيخ المسيطرة على الهضاب الرملية بالقصور البيضاء السبعة (ستيتن، مشرية، غاسول، بريزينة) وفي هذا الشأن يذكر دوماس (Daumas) "لقد كان كل منهم يملك قطعانا كثيرة تبلغ 2000 رأس لأكبر الأغنياء من حميان ترعى موزعة على 400 رأس لكل مجموعة"¹. بالإضافة إلى قبائل العمور التي تمتلك أعدادا لا يستهان بها وقبائل أولاد جرير ودوي منيع وبني غيل بالمناطق المغربية ما بين فيقيق ويش إلى غاية تافيلالت.

فقبل الاحتلال كانت تعيش القبائل مشتركة في ممارسة نشاطها الرعوي مشكلين طبقة اجتماعية قوية النفوذ وأقلية أرسقراطية ضمن جماعات البدو الذين لا يملكون الأراضي² الزراعية بل لديهم أكبر القطعان التي ترعى بهذه الأراضي بعد موسم الجني والحصاد في فترات الصيف³ إلا أن الاستعمار قد غير كثيرا من نمط البداوة بالإقليم الجنوبي بعد إدخاله العديد من التعديلات التي لم يتأقلم معها سكان الجزائر كلها، فقد أصبحت تربية الماشية بالهضاب العليا خاصة والجزائر عامة تنمو بحسب حاجات فرنسا ولفائدة بعض المحتكرين الرأسماليين الذين

¹. M. Lieutenant-colonel Daumas, le Sahara Algérien, études géographiques statistiques et historiques sur la région au sud de E.F en Algérie, Paris, 1845, pp 255-260.

². ويذكر دوماس قبيلة الحميان يوضح بأنها تنقسم إلى حميان الشراقة وهم الشراقي وحميان الغرابية وهم الشفاقة، كما يوضح القسّمات التي تنتمي للحميان. للاضطلاع أكثر ينظر: المرجع نفسه، ص 256.

³. أندري نوشي وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر. رابح اسطنبولي، المطبوعات الجامعية، 1960، ص 381.

يشترون الماشية في الجزائر بأثمان بخسة ويبيعونها بأسعار باهظة في فرنسا والخارج¹.

يمكن القول أن جل أسواق فرنسا بما فيهم باريس ومرسيليا تمولها ماشية الجنوب الغربي بحكم جودة لحوم أغنام المنطقة، بعد تأسيس دائرة عين الصفراء في مارس 1882 وقبلها دائرة مشرية والبيض وتعميرهم من قبل الإدارة العسكرية عن طريق تشجيع المستوطنين بمنحهم كل التسهيلات في امتلاك الأراضي ودعمهم بجميع الوسائل للسيطرة على قطاع تربية الماشية بالجنوب الوهراني، فقد عمد العديد من المحتكرين والسماسرة الأوروبيون[♦] إلى الاستحواذ على أسواق الماشية يخلق مضاربات في الأسعار بهدف شراء الأغنام بأبخص الأثمان واستغلال جميع مشتقاتها لتوجيهها نحو الخارج قصد تحقيق الربح السريع على حساب إفقار المربين من سكان البدو²، نتيجة لهذه المضاربات الخطيرة فإن قطاع تربية الحيوانات بالأقاليم الجنوبية سيشهد تغيرات جذرية تؤثر سلبا على الأهالي وخاصة البدو.

نستنتج من الجدول النمط الاستغلالي لقطاع الماشية بالدوائر الثلاث المذكورة خلال الفترة ما بين (1900-1912) بالرغم من المعوقات الطبيعية التي كانت تجتاح الإقليم من الأوبئة والأمراض وغياب المراعي بسبب الجفاف واجتياح الجراد[♦] ببعض السنوات، إلا أن للاحتلال يد وراء هذا النقص في الثروة الحيوانية، فالسياسة الاستعمارية والتشريعات العقارية الكولونيالية ضيقت الخناق

¹. يحيى بوعزيز، السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب (1830-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص78.

[♦]. سمحت الإدارة العسكرية بالجنوب للعديد من المحميات الأوروبية بتربية الماشية واستغلالها، ووظفت العديد من الأهالي كزراعة، مثل المحمية التي أنشأت في المشرية في خريف 1910 وقد تمت بها عدة تجارب على القطيع بجلب كباش الميرينو (Mérinos) بهدف تحسين السلالات وخلق نوع يحمل صوفا كثيفا.

². يحيى بوعزيز، السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري (1830-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص78.

[♦]. شهدت منطقة الجنوب الغربي عدة نكبات خصوصا في سنوات 1893-1903-1904-1909-1911 حيث هجم عليهم أمواج الجراد وداهمهم القحط والجفاف وبالتالي تفشت الأمراض والأوبئة المعدية، كالكلوليرا والتيفوس، وأدى بهم الأمر إلى فقدان كل شيء وتحولوا إلى خماسين وعمال موسمين وبأجور زهيدة. ينظر: يحيى بوعز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية، 1930-1954، د.م.ج، الجزائر، 2007، ص36-37.

على الأهالي وأجبرت البدو للتخلي عن نمط عيشهم السابق وتحويلهم للعيش داخل تجمعات سكانية شبه بدائية¹.

فيما يوضح لنا المنحى البياني الوضعية التي كان يشهدها القطيع، فعلى سبيل المثال شهدت دائرة عين الصفراء انخفاضا خطيرا في تعداد الماشية خصوصا في سنتي 1900 و 1904 تعكس مدى جشع المستوطنين والعسكريين في تدمير هذه الثروة دون هوادة، وقد استمر هذا الانخفاض في الفترة المحددة ما بين 1906 إلى 1911 وهذا راجع لعدة عوامل إما طبيعية كانتشار وباء STRONGYLOSE الذي أصاب القطعان خصوصا في فصل الشتاء وغيرهم من الأمراض كالرشح Le REUCH عبر الهضم وداء الأمعاء التي تصيب الماشية وتؤدي إلى هلاكها² بالإضافة إلى ارتفاع أسعار الحبوب بالجزائر خصوصا بعد تراجع الأراضي المخصصة له، حيث قدرت مساحته في سنة 1890 بحوالي 2.442.679 هكتار تحولت سنة 1900 إلى 2.391.236 هكتار، أي بفقدان نحو 51.443 هكتار خلال عشر سنوات، بينما المساحة المخصصة لزراعة الشعير تقلصت من 1.371.464 هكتار عام 1876 إلى 1.313.388 سنة 1900 أي بتراجع بقدر ب 4.2%³.

أما إنتاج الحبوب من قبل الأهالي شهد مؤخرا تراجعا لعدة أسباب⁴، فقد قدر الإنتاج سنة 1890 حوالي 14.969.380 قنطارا ليصل في عام 1899 إلى 10.786.995 قنطارا الأمر الذي أدى بارتفاع أسعاره خصوصا بأسواق الجنوب، فالجدول التالي يوضح تطورات الأسعار بإقليم الجنوب الغربي ما بين 1908 إلى 1912:

المراكز الاستيطانية	1906	1907	1908	1909	1910	1911	1912
عين الصفراء	27	-	-	32.80	28.70	27.80	30
شعير	-	-	18	22	21.10	23	23

¹. الهواري عدي، المرجع السابق، ص 94-95.

². C. Meissner, op.cit, pp189-193.

³. Ch.R.Ageron, les Algériens Musulmans et la France, Tome I et II ? Paris, 1968, pp793-794.

⁴. من الأسباب التي أدت إلى تراجع الحبوب هو المنافسة الخارجية لأسواق القمح الجزائري وأيضا تحول المزارعين الجزائريين لزراعة الكرملة التي كانت تدرّ أرباحا على الفلاحين.

⁴. C. Meissner, op.cit, p53.

29.80	-	36.30	25	25.30	27	16	قمح	مشرية
20.80	-	21	15.20	16.30	19	-	شعير	
32.10	29.80	27.30	25	30	-	-	قمح	البيض
20	18.40	16.70	15	14.60	-	-	شعير	جر فيل

فأسعار الحبوب كانت ترتفع بشكل متواصل دون انخفاض، مما سيؤثر على مستقبل قطاع الماشية بالإقليم، خصوصا إذ عمد الأهالي لبيع البعض منها لتوفير الغذاء للبقية، في ظل تخاذل السلطات المحلية¹ التي لم تقدم أي دعم لسكان المنطقة.

بعد سنة 1905 وهي السنة التي تقرر فيها تطبيق قانون 1902 القاضي بإنشاء الأقاليم الجنوبية وعقب إتمام خطوط السكك الحديدية التي بلغت إلى غاية دائرة كولومب بشار، شهدت الثروة الحيوانية حركة استغلالية واسعة نحو الأسواق الأوروبية، فقد تطورت وارتفعت صادرات الأغنام بالمنطقة ارتفاعا مستمرا بسبب تمويل مصلحة المعتمدة الفرنسية، التي قامت بشراء القطعان من الأهالي بأموال بخسة خصوصا بعد سنة 1909 التي كانت سيئة بالنسبة للأهالي، حيث أثرت على قطاعهم بسبب نقص المراعي واجتياح الجراد في فترات الصيف لمساحات شاسعة، الأمر الذي دفع بالأهالي لبيع جزء من قطيعهم بأسعار بخسة لسد حاجيات أبناءهم وشراء الحبوب التي ارتفع سعرها، فالجدول التالي يوضح تطور شراء الماشية بالجزائر والأقاليم الجنوبية¹ كالآتي:

1.231.132	1910
951.138	1911
768.660	1912
1.118.447	1913
689.144	1914
1.890.507	1915

♦ مع العلم أن الشركة الأهلية للاحتياط كانت قد أنشأت عدة مكاتب لها في البلديات بالجنوب الوهراني، فعلى سبيل المثال تأسست بعين الصفراء في 31 جانفي 1906 ولم تبدأ العمل إلا في 1907 وقد اعتمدت على السكة الحديد لنقل الحبوب التي ستشتريها على سكان عين الصفراء بأسعار تتراوح ما بين 17 و18 فرنك للطن، فلم تقدم هذه المؤسسات أي دعم يذكر لأهالي الإقليم.

¹ Exposé de la situation de territoires de l'Algérie, présenté par M.Ch.Lutand, G9, Année 1914-1915, Alger, 1916, pp52-53.

وفي نفس السنة أي 1915، أقدمت المعتمدية الإنجليزية بتسهيل من الحكومة الفرنسية اقتحام أسواق الإقليم الجنوبي لشراء الماعز من الأهالي لتوفير اللحوم للجيش، فقامت بشراء هذا النوع من الضأنات بأسعار بخسة وبأعداد كبيرة، لذلك انخفض عدد القطيع حيث سجل في سنة 1914 حوالي 501.784 رأس، إذ انخفض ليصل العدد إلى 474.614 رأس فقط¹.

وبالرغم من كل الصعوبات فقد استمر شحن المزيد من قطعان الماشية نحو موانئ وهران والجزائر فعلى سبيل المثال، قدرت عدد الأغنام التي عبرت طريق جرفيل (البيض)-بوقطب نحو وهران حوالي 30.000 رأس سنة 1915 لتصل سنة 1927 إلى 80.000 رأس².

هذا وقد مارس الاحتلال الضغط على شتى أنواع الحيوانات بالإقليم الجنوبي وخاصة على سفينة الصحراء (الجمال)[♦]، باعتباره المنافس الوحيد للسكة الحديد، هذا الحيوان تعرض لكل أنواع الاستغلال، فمنذ سنة 1893 بلغت عدد القطعان بإقليم عين الصفراء حوالي 45.945، ليصل سنة 1901 إلى حوالي 29.610 رأس، بينما في سنة 1904 قدر بـ 27.212 رأس، فقد قامت سلطات الاحتلال بمصادرة الإبل وتحويله لخدمة المشروع الاستيطاني عن طريق تكريس فرق المهارة وتوجيهه نحو أقصى الجنوب³، كما أنها قامت بفرض ضرائب باهظة على شكل زكاة على قطعان الإبل لإرهاق أصحابها وإجبارهم للتخلي عنها⁴، فقد قدرت رؤوس الإبل عند قبائل الحميان بمشرية سنة 1893 حوالي 16.482، لتصبح في سنة 1900 نحو 8.509 رأس وتنخفض بشكل خطير حتى يصل 5.606 رأس سنة 1904، ونفس الشيء حدث لقبائل أولاد سيد الشيخ والعمور ودوي منيع وأولاد جرير بدائرة بشار⁵.

¹. Ibid, p54-55.

². P.Gode Frou, Programme des chemins de Fer dans les Territoires du Sud, Alger, 1916, pp124-126.

[♦]. كانت السلطات الاستعمارية تلجأ إلى مصادرة رؤوس الإبل خاصة التي كانت تمتلكها قبائل الحميان والطرقي وأولاد سيدي الشيخ من أجل تكوين فرق المهارة التي نادى بها الجنرال ليوتي سنة 1903.

³. C. Meissner, op.cit, pp204-205.

⁴. ففي هذا العدد يذكر أ.ف فوتي بأن "نصف قطعان الإبل بالجزائر قد استؤصلت" ونتيجة كذلك انحدرت الحركة التجارية التي لم تتمكن التدابير الجمركية من إصلاحها. ينظر: أندري نوشي، مرجع سابق، ص402-403.

⁵. C. Meissner, op.cit, p203.

ونتيجة لمصادرة العديد من القطعان والحيوانات بالأقاليم الجنوبية، قامت السلطات العسكرية بإنجاز محميات رعوية ومحطات لتربية الماشية والأنواع الأخرى من الحيوانات واستحدثت مهمة الراعي المحترف الذي يقوم برعاية قطعان الحكومة الفرنسية، لذلك أنجزت محطة تادميت بالجنوب الشرقي سنة 1918 ووضعت تحت كبار رجال الأعمال والمحتكرين الأوروبيين، الذين قاموا بتوفير نقاط المياه والمراعي وحفر المزيد من الآبار الارتوازية، فقد تمكنت محطة تادميت من تحقيق ثروة هائلة من الحيوانات بالجنوب الجزائري فقد بلغت سنة 1929 عدد القطعان على النحو التالي:

2 مليون رأس من الغنم، 680 ألف رأس ماعز، 140 ألف رأس إبل، 45 ألف حصان 20 ألف رأس من البقر بقيمة مالية كلية بلغت حوالي 500 مليون فرنك بإمكانها تحصيل عائدات سنوية على الحكومة الفرنسية تقدر بـ 160 مليون فرنك¹.

فنجاح هذه المحطات دفع السيد M.TROUETTE لمطالبة الإدارة الاستعمارية بمضاعفة وتعميم مثل هذه المحطات في كامل الأقاليم الجنوبية². لم يكشف الكولون باستغلال القطيع فقط بل شمل كل ما تتجه من أصواف وجلود وحليب فهذه المشتقات أضحت تجارة مربحة لكبريات الشركات الاحتكارية التي كانت تسوقها نحو الدول الأوروبية حيث ظهرت العديد من المؤسسات التي تعنى بشراء الصوف ♦ في الجزائر نذكر منها (Union Ovine coloniale)-(U.O de l'A.N)-(Union de France)³.

فقد تمكنت هذه الشركات أن تستحوذ على العديد من الشحنات وتصديرها نحو أسواق أوروبا والوطن الأم، فالجدول التالي يوضح قيمة الأرباح المجنية من هذه المنتجات لسنة 1913⁴.

¹. René Passeron, op.cit, p830.

². M.A.Massé, Centenaire d'Algérie, comité de l'Afrique Française, congrès de la colonisation Rural, Alger, 25-29 Mai 1930, 2^{ème} partie, les problèmes éco et sociaux posés par la colonisation, Alger, 1930.

♦. شهدت أسعار الصوف تذبذبا كبيرا بداية من سنة 1908، خاصة بالنسبة لدائرة البيض، بحيث قدر في سنة 1906 بـ 1,15 فرنك للقطار، ليصل سنة 1907-1908 حوالي 0,65 قنطار بسبب ظهور القطن المحلج ورواجه في المنطقة مما أضعف أسعار الصوف. ينظر: C. Meissner, op.cit, p55.

³. Gustave Couput, les laines et l'industrie lainière de l'Algérie à l'exposition de 1889, Alger, 1889, pp12-23.

⁴. G.G.A Exposé de la Situation du Territoire du Sud, op.cit, p102.

المشتقات	البلد	الوزن بالقنطار	القيمة بالفرنك
الجلود	- فرنسا	6.990	2.815.000
	- الخارج	10.189	
الصوف الجيد	- فرنسا	91.835	12.431.000
	- الخارج	5.281	
الصوف الرديء	- فرنسا	609	65.000
	- الخارج	55	
الجلود المملحة	- فرنسا	435	315.000
	- الخارج	650	
القرون العظام وغيرها	- فرنسا	5000	42.000
	- الخارج	250	
المجموع الكلي		15.668.000 فرنك	

نستخلص من خلال الجدول أن حتى بقايا ومشتقات الحيوانات لوحدها شكلت أرباحا طائلة كانت تستفيد منها هذه الشركات لوحدها مما جعل أصحابها يصلون إلى مراتب الغنى بطرق سريعة.

فبالإضافة لعمليات السلب والنهب التي شهدتها قطاع تربية الحيوانات بإقليم الجنوب الغربي التي تطرقنا لها سابقا والتي أدت بشكل أو بآخر في تراجع أعداد القطعان بالمنطقة، فإن هناك عوامل أخرى ساهمت في تدمير هذه الثروة، فالنسيج العقاري الجديد الذي أحدثته سلطات الاحتلال بالجزائر عن طريق إحلال الملكية الفردية مكان الملكية الجماعية، وترسيم حدود الأراضي بالأقاليم الجنوبية عن طريق تطبيق القرار المشيخي الصادر في 22 أبريل 1863 الذي أحدث انقلابا¹ أو بالأحرى هدم البنية الاجتماعية والاقتصادية للجزائريين.

لقد ساهم هذا القرار بوضع العديد من المراعي الصيفية في أيدي الكولون وبذلك حرم البدو من أراضي التجوال وغلق الإقليم التلي في وجه العديد من القطعان التي كانت ترتاده قبل الاحتلال بانتظام².

¹. عدة بن داهة، الخلفيات الحقيقية للتشريعات العقارية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1873، ملتقى العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص 140-148.

². عدي الهواري، المرجع السابق، ص 108-111.

فتطور الملكية العقارية لدى الكولون الذين تمكنوا بدعم من الإدارة الاستعمارية من الاستحواذ على عدد كبير من الأراضي، خصوصا في فترة الحاكم العام المدني ألبير غريفي ALBERT GREVY ما بين 1879-1881، الذي عمل على إلغاء القسم الأكبر من الإدارة العسكرية وأخضع منطقة التل إلى سلطة المحافظين ورؤساء البلديات الأوروبيين، ولم يبقى تحت سلطة العسكريين إلا حوالي نصف مليون نسمة¹.

ففي عام 1881 وصل عدد البلديات الكاملة الصلاحيات إلى 196 بلدية، ثم 209 عام 1884 ليرتفع العدد في سنة 1900 إلى 261 بلدية تمون ميزانياتها الأهالي الفقراء الذين لا يستفيدون منها إطلاقا، وهذا باعتراف جول فيري نفسه JULS FERY الذي قال في هذا الشأن "بأن البلديات استغلال مكشوف لابن البلد الأصلي"².

إن تطور الاستيطان بالجزائر انعكس سلبا على القطاع الاقتصادي الصحراوي المتمثل في تربية الماشية، فقد أخل بنظام العشابة وانحصرت أراضي التجوال وبالتالي أصبح البدو مجبرين على تقليل عدد قطعانهم، وهو ما ذهب إليه المؤتمرون الأوروبيون بعد ما طرح هذا المشكل في المؤتمر المنعقد ما بين 06 و10 أكتوبر 1908 بالجزائر حيث صرح السيد ويل سويتزي M. WEIL "بأن الرأسمالية والتحول الاقتصادي في الجزائر قد أجحف الأراضي المخصصة للمراعي، مما أدى إلى تراجع عدد القطعان بل والقضاء عليها..."³، ونتيجة لذلك فقد أصبحت الملكية الفردية حجرة عثر في طريق مناطق التجوال التي ألفها البدو، ونجمت عن ذلك الكثير من الصراعات بين البدو وأصحاب الملكيات الخاصة، وبين البدو والمعمرين أيضا، وكانت الإدارة الاستعمارية تتدخل بقوة القانون والسلاح، وكثيرا ما اعتبر البدوي هو المخالف للقانون وتعرضه بالتالي لأقصى العقوبات⁴.

سعى من الإدارة الاستعمارية لتنظيم الفضاء الرعوي، فإنها اتخذت عدة تدابير، من بينها تحديد فترات نظام العشابا ومرافقة الجيش للبدو وعند مداخل المناطق التلية

¹. يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص30.

². Jule Cambon, op.cit, p147.

³. Ch.Depincé, Congrès de l'Afrique du Nord, 6-10 octobre 1908, Tome I, Paris, 1909, P383.

⁴. Ibid, p 384-389.

شرط أن يتنقلوا بدون سلاح وعلى أن يقدموا طلباتهم قبل أرب أو ست أشهر حتى يتسنى للإدارة تنظيم ترحالهم، فقد نجم عن هذه الإجراءات تراجع نسبة القطعان لدى الأهالي، سواء من حيث المجموع العام أو بالنسبة لنصيب الفرد الواحد من الجزائريين يتقدم أجرون C.R.AGERON المعطيات البيانية التالية¹:

1885-1889	250 رأس لكل 100 مواطن
1895-1899	190 رأس لكل 100 مواطن
1910-1914	165 رأس لكل 100 مواطن

لا يتضح أي تفسير لهذا التراجع في ماشية الأهالي إلا بالثغرات التي مست الوعاء العقاري نتيجة تكوين الملكية الفردية في الهضاب العليا وجنوب التل وتطبيق قانون الغابات، هو الآخر كان عائقا حقيقيا في تناقص القطعان، ولا يمكن غض الطرف عن قرار الحاكم العام الصادر في 31 جانفي 1893 المتضمن عدم أحقية البدو بالانتفاع من أراضي التجوال²، وترجع هذه الأراضي الشاغرة وبلا مالك من ملكية دومين الدولة، وبالتالي فإن القرار لم يستهدف تنقلات البدو إطلاقا، وإنما كان يسعى لترتيب الظروف وتوسيع تطبيق قوانين نزع الملكيات بالمناطق الجنوبية من أجل توسيع المشروع الاستيطاني وتوطين عدد كبير من المعمرين بهذه الأراضي الجديدة، مع العلم أن هذه الأراضي المنتزعة لم تكن صالحة للزراعة، وفي هذا الصدد يذكر أحد المعمرين المتواجدين بالجنوب "أنه لمن الإجماع إقامة المعمرين بهذه المناطق التي لا يأتيا شيئا وحيث المحصول الجيد يشكل حالة شاذة"، ويقول آخر "تنظف الأرض بحجة أننا نستصلحها، فنقضي على النباتات التي تتكون منها المراعي ولا ينبت أي شيء آخر مكانها"³. هذا وحتى مناصري الاستعمار هم كذلك يعترفون اعترافا صارخا، بأن ما لحق البدو وهو أمر جد مؤسف للغاية، هذا ما صرح به النقيب لوريو من على منصة مؤتمر الاستعمار الريفي المنعقد بالجزائر في 26-29 ماي 1930 بمناسبة الذكرى المئوية للاحتلال "من المؤسف ألا تكون قرارات مجلس الأعيان قد احتفظت

¹. Ch.R.Ageron, les Algériens Musulmans et la France, Tome I et III, Paris, 1968, p719.

². هواري عدي، المرجع السابق، ص 66.

³. هواري عدي، المرجع السابق، ص 69.

بأراضي هامة للبدو في منطقة كانوا يأتون إليها منذ الأزمنة الغابرة، إن هذه الحالة هي بسبب الصعوبات التي تطرأ اليوم، والتي تحول دون استمرار فروع هامة من النشاط الزراعي الذي يتكامل بشكل طبيعي للغاية¹.

فالإجراءات التعسفية للإدارة الاستعمارية والتضييق الذي مارسه في حق البدو وأدى إلى تراجع النشاط الرعوي نتيجة انحصار مساحات التجوال، مما أدى إلى تغيير نمط معيشة البدو بتحويلهم قهرا إلى الحياة الحضرية والعيش داخل أكواخ مصنوعة من القش والقصب، واضطر جزء كبير من البدو للهجرة نحو التل بحثا عن العمل كمحاصصين في مزارع الكولون².

وختاما لما سبق يمكن القول أن التحول الكبير الذي طرأ على الجزائر في العهد الاستعماري استطاع أن يحطم الاقتصاد الصحراوي المتمثل في تربية الماشية، وأن يحول الأهالي إلى مجرد خدام لدى الأوروبيين، الذين تمكنوا من استغلال كل الإمكانيات التي تزخر بها الأراضي الصحراوية على اختلاف تضاريسها الطبيعية ويحولها لخدمة مصالحهم الخاصة.

- استغلال الثروة النباتية

سنتطرق في هذا المبحث بإيجاز عن الاستغلال الجشع للسلطات الاستعمارية الفرنسية منذ الوهلة الأولى لتوسعها نحو مناطق الهضاب العليا وبالأخص بالجنوب الوهراني حيث أولت اهتماما كبيرا لاستغلال نبات الحلفاء، ومساهمة في عملية التنمية الزراعية الاستعمارية ودعم الحركة الاستيطانية الفرنسية بالإقليم الجنوبي لعين الصفراء.

بإصدارها للتشريعات والتنظيمات الفرنسية تكون إدارة الاحتلال الفرنسي قد وفرت الحماية للمستوطنين الأوروبيين وشجعتهم على الاستقرار وأنبتت فيهم فكرة البقاء بالأرض.

● استغلال نبات الحلفاء:

اهتمت الإدارة العسكرية بالزراعات الصناعية وعلى رأسها الحلفاء المنتشرة بمساحات شاسعة بالإقليم العسكري لعين الصفراء، فهي تمتد من جنوب سعيدة إلى غاية سفوح الأطلس الصحراوي أي بلاد أولاد سيد الشيخ، بالإضافة إلى انتشارها

¹. Centenaire de l'Algérie, congrès de la colonisation Rur de Alger, 26-29 Mai 1930, 2^{ème} Partie, les Problèmes Economiques et Sociaux, Alger, 1930, p299.

². عدي هواري، المرجع السابق، ص 57.

جنوب سبدو، فرندة، تيارت، الأغواط والجلفة¹، ويطلق على مناطق الانتشار الكثيف للحلفاء من قبل الأهالي "بحر الحلفاء" "LA MER D'ALFA"². تبلغ المساحة التي تشغلها الحلفاء بإقليم عين الصفراء العسكري حوالي 1.300.000 هكتار ويقدر نصيب دائرة المشرية لوحدها نحو 300.000 هكتار والباقي لدائرة البيض وملحقة عين الصفراء³.

بدأ الاستغلال الأول لهذا النبات الصناعي والتجاري في نفس الوقت من قبل الإنجليز منذ سنة 1892م، الذين قدموا بسفن عديدة إلى موانئ وهران⁴، وقاموا بشحن كميات ضخمة من الحلفاء وأرسلوها نحو بلدهم لاستغلالها في الصناعات الورقية.

ونستشهد على هذا الاهتمام بما صرح به السيد بليشي BLEICHER إذ يقول: "بأن نبات الحلفاء مغري وجاذب للشركات الرأسمالية"⁵، كما يذكر أردوين دي مازت ARDOUIN DUMAZAT "بأن تواجد هذا النبات بمناطق الهضاب العليا بالجزائر شبيه بالقطن في أمريكا والأرز في جنوب شرق آسيا"⁶.

فتواجد هذا النبات بمنطقة السهوب بالجنوب الوهراني، فتح آفاقا كبيرة للشركات الرأسمالية الاستعمارية للمتاجرة بهذه الثروة النباتية التي تدخل في العديد من الصناعات الحديثة.

مع بداية التوسع الفرنسي بمناطق الجنوب الوهراني، أولى الكولون اهتماما كبيرا باستغلال حقوق الحلفاء، وقد تحقق ذلك بعد صدور قانون 18 جويلية 1879 الذي وضع تصنيفا جديدا لـ 20 خطا للسكة الحديدية التي تربط التل الجزائري بالهضاب العليا بهدف استغلال الحلفاء⁷ فتحصلت الشركة الفرنسية الجزائرية

¹. C. Meissner, op.cit, p155.

². Antar Michel, Chevachées d'un Futur Styrien à travers les Ksour et Oasis Oranais, Illustration par L.Benett, Collection Hetzel, Paris, 1907, pp05-06.

³. G.G.A.Territoire du Sud, P.Gode Froy (Lieutenant-colonel), Programme des Chemins de Fer dans les Territoires du Sud, Ed. Adolphe Jordan, Alger, 1916, P30.

⁴. C. Meissner, op.cit, p156.

⁵. Ardouin du Mazt, Etudes Algériennes, l'Algérie Politique et Economique a Travers la Province d'Orans, Lib. Guillaumin, Paris, 1882, p71.

⁶. Ibid, p72.

⁷. Ministère des Travaux Publics, Répertoires de Législation des Chemins de Fer Française, Situation au 31 Décembre 1893, Imp. Nationale, Paris, 1894.

(FRANCO-ALGERIENNE) على امتياز الاستغلال * لمدة 99 سنة، حيث تمكنت بعد 6 سنوات من الاستقلال بتحقيق متوسط إنتاج قدر بـ 15.000 طن سنوياً¹.

تشجع الكولون في التوجه نحو الهضاب العليا بإقليم عين الصفراء، بعد إنشاء الخط الحديدي الذي يربط سعيدة بخلف الله-مصباح، والذي انتهت الأشغال به في الفاتح من جانفي عام 1881م² وهي الفترة التي عاصرت انطلاق مقاومة الشيخ بوعمامة، والتي عجلت بإنشاء الخط الرابط بين سعيدة-مشرية بهدف احتواء الثورة، والذي دخل حيز الخدمة في الفاتح من سبتمبر 1883م³.

بفضل هذه الخطوط تمكنت الشركة الفرنسية الجزائرية من تحقيق صادرات ضخمة من نبات الحلفاء، حيث قدرت خلال الثلاثي الأول أي ما بين 1879 و 1881 تصدير حوالي 224.000 طن، بلغ نصيب ما توجه نحو إنجلترا 169.862 طن و 39.092 طن لإسبانيا بينما فرنسا لم تحصل سوى على 8.243 طن بسبب عدم توفرها على مصانع تحويل الحلفاء.

وقد شهد إنتاج الشركة ارتفاعا محسوسا خلال الثلاثي الثاني أي ما بين 1882- 1884 ليصل إلى نحو 266.336 طن، وقدرت صادراتها نحو إنجلترا بـ 217.402 طن باعتبار بريطانيا الدولة الرائدة آنذاك في الصناعة الورقية وتحويل الحلفاء وإدخالها في العديد من الصناعات الأخرى⁴.

بقي استغلال حقول الحلفاء عشوائيا تتحكم فيه الشركة الرأسمالية ذات الامتياز الكبير بالرغم من احتجاج العديد من القبائل، وخاصة قبيلة الحميان التي عانت الأمرين نتيجة جشع وطمع الاحتكاريين الأوربيين، ففي 1885 و 1886 أرسلت الحكومة الفرنسية لجان متخصصة للاطلاع على وضعية المنطقة والطرق المتبعة في عمليات استغلال الحلفاء، وتمكن السيد ل. ترابي (L. TRABUT) من إنجاز دراسة منوغرافية حول نبات الحلفاء⁵ والذي تم نشره في بداية سنة 1889م.

♦ الشركة الفرنسية الجزائرية كانت لها حظوظ في الحصول على امتيازات كبيرة عكس نظيراتها من الشركات الأخرى، حيث حصلت على مساحات شاسعة من حقول الحلفاء التي وضعت تحت إدارتها والتي قدرت بنحو 700.000 هكتار.

¹. Ardouin du Mazt, op.cit, pp73-75.

². C. Meissner, op.cit, 272.

³. Ibid, p73.

⁴. Paul Leroy Beaulieu, l'Algérie et la Tunisie, Libr. Guillaumin, Paris, 1887, p187.

⁵. M.Mathieu et Dr.Trabut, les Hauts-Plateaux Oranais, Rapport de Mission, Imp. Pierre Fontana, Alger, 1891, pp30.31.

بعد اطلاع السيد الحاكم العام على تقارير اللجنة قام بإصدار القرار الحكومي في 14 ديسمبر 1888م الذي بموجبه حدد ونظم طرق وشروط الاستغلال¹.

(1) كراء حقول الحلفاء:

بعد الاحتلال الفرنسي قامت السلطات العسكرية بمصادرة جميع المساحات الغنية بالحلفاء ووضعتها تحت إدارة دومين الدولة وصنفتها ضمن الأراضي الغابية²، وأصبحت وصية ولديها كامل الصلاحية على كراء هذه المساحات للورشات التي تهتم باستغلال نبات الحلفاء مقابل دفع إتاوات أو حقوق الاستغلال وفي نفس الوقت كانت هذه الورشات تستقطب العمال من الأهالي الذين فقدوا أملاكهم وثرواتهم الحيوانية بفعل الاستعمار من خلال سياسة الحجز والمصادرة. فالاتفاقية توقع ما بين الإدارة العسكرية للإقليم (قائد الإقليم أو ضابط الملحقة أو الدائرة) وصاحب الورشة من أجل اختبار مكان وضع الورشة والتي لا يمكن تغييرها إلا بعد مرور تسع سنوات³.

بداية من سنة 1908 أدخلت عدة تعديلات على قرار 14 ديسمبر 1888 نتيجة التقارير التي كانت ترسلها في كل مرة اللجان المكلفة بمعاينة أراضي الحلفاء، وقد تضمنت التعليمات الصادرة في 1908 التعديلات التالية:

- (1) يتم تحرير الأراضي المستأجرة باسم الحاكم العام وليس باسم القبائل الساكنة بهذه الأراضي لأن السلطات الاستعمارية الفرنسية لديها الأحقية في ملكية الأراضي غير الزراعية والمغطاة بالحلفاء بالهضاب العليا.
- (2) المسافة ما بين الورشات ونقاط توفير المياه لا تتعدى 200 متر.
- (3) يجب أن لا يتعدى عدد العائلات الأوروبية المقيمة بالورشات أربع عائلات فقط.
- (4) ألا يتعدى عدد الموازين المستعملة نحو ثلاثة⁴.

¹. C. Meissner, op.cit, pp156-157.

². بموجب القرار الصادر عن الحاكم العام والمؤرخ في 22 ديسمبر 1875، أخضعت العديد من المناطق الغنية بالحلفاء تحت إدارة مصلحة المياه والغابات والتي قدرت المساحة الخاضعة بإقليم عين الصفراء نحو 20.000 هكتار تقع معظمها بدائرة جرفيل وملحقة عين الصفراء، ينظر: Application de la Loi Forestière Algérienne 20Août 1904, Imp. Pierre Fontana, Alger, 1904, pp04-33.

³. C. Meissner, op.cit, p157.

⁴. Bulletin Officiel de l'Algérie 1908 (Règlementation de la Zone Alfatière de Cercle de Mécheria et de Géry ville), pp611-614.

ففي السابق كان يتم السماح للورشات بالاستقرار بالمناطق التي سبق وأن استغلت من قبل لكن بفضل التعديلات الجديدة فقد أضحت تقام الورشات خارج أو بالقرب من تلك المناطق من أجل الحفاظ على جذور الحلفاء للنمو من جديد وخلق مساحات حفاوية جيدة.

فالحقول أصبحت تجدد سنويا لمدة 09 سنوات ولمسؤولي الورشات الحق في كراء مخازن ومستودعات بالقرب من المراكز السكانية أو محطات القطار المنتشرة بالإقليم¹.

جاءت هذه التعديلات لتحقيق نفقات وتكاليف النقل والتموين، حيث أن استغلال الحلفاء لا يذر على أصحابه تكاليف كبيرة، والسلطة الفرنسية حريصة على تشجيع استغلال هذه المادة الصناعية وكذا تشجيع الاستيطان بالمنطقة.

(2) طرق الاستغلال:

في الفترات الأولى من الاحتلال كان الاستغلال لنبات الحلفاء بطرق عشوائية لم يراعي المصلحة العامة لأهالي المنطقة، باعتبارها الغذاء الأساسي للعديد من قطعان الماشية وتدخل أيضا في الكثير من الصناعات التقليدية* التي مارسها سكان إقليم عين الصفراء.

فطرق استغلال الحلفاء سهلة للغاية لا تحتاج إلى آلات حديثة أو ثقيلة ولكن تحتاج لأيدي عاملة متوفرة، حيث يقوم العمال داخل الورشات بالعديد من الأشغال التي من بينها تكديس الحلفاء وتجميعها، والفرز وترتيبها حسب الجيد والمتوسط والريء، ثم تأتي أخيرا عملية الربط (أي وضعها ضمن حزم)، ثم نقلها إلى محطات السكة الحديد القريبة من هذه الورشات².

* تحتوي الورشات على عدد من العمال الذين يقومون بانتقاء الحلفاء وتكديسها وربطها، وهم في الأغلب عمال أجانب من جنسيات مختلفة أغلبهم إسبان يرأسهم مسير الورشة ويتحصلون على 0.25 فرنك للقطار الواحد بعد عمليات الانتقاء والتكديس بالإضافة إلى جزائريين يمتهنان حراسة الورشة ويتقاضيان ما بين 55 إلى 90 فرنك كأجرة. ينظر:

C.Meissner, op.cit, p163

¹. G.G.A.Bulletin Officiel de l'Algérie 1908, Ibid, p613.

* قبل الاحتلال الفرنسي لمنطقة الجنوب الوهراني، كان الأهالي يستغلون الحلفاء في صناعة العديد من الأدوات التقليدية مثل الزرابي والأثاث المنزلي كالقفاف والجبال والسلال، وغطاءات القربي وفراش الحيوانات في فصل الشتاء. ينظر: A.O.M Lettre du Conservateur des Eaux et Forêts a

Constantine a M.G.G de l'Algérie N° 688 du 21 Février 1915.

². A.O.M Lettre du G.G.A à Direction des Territoires du Sud (Avis sue la Proposition de la commission d'Alfa, N°128 du 04 Septembre 1915, pp04-05.

وتقوم الشركة الفرنسية الجزائرية بالاستعانة بالأيدي العاملة من الأهالي الذين كانوا يلجأون إلى العمل بالورشات، خاصة في فترات الجفاف والقحط التي كانت تصيب المنطقة من حين لآخر وهو الأمر الذي يؤكد رئيس مصلحة المياه والغابات بقسنطينة في رسالته إلى السيد الحاكم العام بعد التقرير الذي حرره إثر زيارته ضمن لجنة معاينة طرق الاستغلال بالإقليم، حيث أكد أن: "الأهالي يبيعون حزم الحلفاء للورشات، خاصة في فترات القحط والمسغبة التي تصيب البلاد، حيث يكثر اشتغال العرب خلال الأشهر الصعبة من جانفي وفيفري ومارس وأغلب الأحيان إلى أفريل ويستمر الحصاد لمدة ثلاث أشهر، ثم تليها عملية الفرز والتكديس وتكوين الحزم، ثم النقل عبر الإبل إلى المحطات"¹.

وحسب النقيب ميسني (C. MEISSNER) "أن أغلب اليد العاملة داخل الورشات كانت من العنصر النسوي، بحيث تتمكن المرأة أو الطفل من حصاد ما بين 70 كغ إلى 150 كغ لتحقيق مداخيل من 01 فرنك إلى 02 فرنك يوميا"²، وهي أسعار زهيدة كان يتقاضاها العمال الأهالي نتيجة الأشغال الشاقة التي يتعرضون لها والمضايقات من قبل المسيرين الأوروبيين وخاصة الإسبان.

ونظرا للاستغلال المفرط والعشوائي لنبات الحلفاء، وخاصة طرق الحصاد التي أدت إلى تدمير العديد من الحقول المنتشرة بالإقليم ما بين البيض (جرفيل)، مشرية وعين الصفراء، والتي لا يمكن إعادة تأهيلها من جديد بسبب اجتثاث جذورها نهائيا، وهو ما انعكس بشكل سلبي وواضح على بعض القبائل البدوية التي تمتلك ثروات حيوانية هامة، ونذكر على سبيل المثال قبيلة الرزاينة التي تم تفكيكها وتدميرها نتيجة الاستغلال العشوائي للثروة النباتية، حيث أجبرت على مغادرة إقليمها المتواجد بنواحي البلدية المختلطة لسعيدة ولجأت إلى الإقليم الجنوبي بضواحي مشرية والخيثر وتمركزوا جنوب شط التقري نهائيا (دائرة مشرية)³، وقد فقدت هذه القبيلة العديد من ماشيتها بحوالي 1/4 بسبب مصادرة القائد الأعلى لدائرة مشرية لثروات الرزاينة كتدابير أمنية ومعاقبتهم لأن جزء منهم شارك في ثورة الشيخ بوعمامة، وأعلن انشقاقه عن طاعة آغا مشرية سنة 1884⁴.

¹. A.O.M Lettre du Conservateur des Eaux et Forêts, op.cit, p02.

². C. Meissner, op.cit, p158.

³. A.O.M Lettre du G.G.A à Direction des Territoires du Sud, op.cit, p03.

⁴. Ibid, p04.

وبالإمكان القول أن جميع القبائل تضررت من الاستغلال العشوائي لنبات الحلفاء وأجبرت أكثرها بالتخلي عن قطعانهم بينما فضلت بعضها مغادرة الإقليم متجهة نحو الجنوب بضواحي بشار توات قورارة لحماية أملاكها وثرواتها الحيوانية، فيما فضل البعض الآخر اللجوء إلى الأراضي المغربية وخاصة فيقيق، ومن بين هذه القبائل على وجه الخصوص قبيلة العمور التي لجأت إلى جبال بني سمير وأعلنت العصيان والتمرد والمقاومة تحت راية القائد محمد ولد علي الملقب بسلطان الجبال وقد توجه أحد أعيان قبيلة لعمور (أولاد عبد الله وأولاد قطيب) والدعو بوفلجة ولد براك سنة 1884م إلى فيقيق بعد عودته من فاس وإحاحه على تدخل السلطان المغربي لحل المشكلة التي تتخبط فيها القبيلة بمنطقة عين الصفراء، باعتبار أن معاهدة لالة مغنية 1845م، ألحقت هذه القبيلة بالسلطان المغربي¹.

ونظرا للتقارير الضخمة التي كانت تبعثها مصلحة المياه والغابات وبعض اللجان المكلفة بمراقبة الورشات والشركة الفرنسية الجزائرية بالإقليم خاصة والأقاليم الجنوبية عامة، والتي في مجملها أوضحت الوضعية الكارثية التي تعاني منها حقول الحلفاء نتيجة إهمال الحكومة العامة وتساهل الإدارة العسكرية²، وخاصة قادة الدوائر والملحقات بالأقاليم الجنوبية وعدم مراقبة عمل الورشات وطرق استغلالها، بل وكانت تتسامح معها في بعض الأحيان بهدف حماية أرباحها دون الاكتراث بمصالح السكان الأهالي، والحفاظ على ممتلكاتهم التي أضحت تتراجع سنويا بسبب تدمير الشركات الرأسمالية الفرنسية الأوروبية لثروات البلاد، والاستغلال المفرط والعشوائي لحقول الحلفاء، وحرمان قطعان الماشية من العديد من المراعي التي كانت في الزمن القريب أراضي تجوال الكثير من قبائل الشمال والجنوب بالمنطقة.

¹. De La Martinière et M.Lacroix, Documents Pour servir l'étude du Nord-Ouest Africain, op.cit, pp287-288.

♦ تتكون لجنة معاينة الحلفاء من: مدير الأقاليم الجنوبية رئيسا، ونائب المدير ومدير الزراعة،

والتجارة والمستوطنات بالإضافة إلى مدير مصلحة المياه والغابات، مفتش وأحد مفتشي دومين الدولة

لديهم الأحقية في دعوة أي شخص لطرح الأسئلة عليه. ينظر: G.G.A Exposé de la Situation

.Général de Territoire du Sud, par M.Jonart, op.cit, p296

². A.O.M Lettre du G.G.A à Monsieur le général commandant, le territoire A.S N° 2014, du 27 Avril 1915.

فقد اضطر الحاكم العام والإدارة المحلية بالإقليم إلى اتخاذ جميع التدابير التي من شأنها حماية والحفاظ على نبات الحلفاء ومراقبته بالطرق الصارمة وردع الشركات الاستغلالية وتنظيم عملها وقد جاءت التنظيمات كالآتي:

1- منع حصاد الحلفاء خلال فترات الإنتاش إلى غاية نضج الأوراق أي من الفاتح من مارس إلى الفاتح من جويلية.

2- تخصيص فترات الاستراحة لنبات الحلفاء بالهضاب العليا ونتيجة لهذا قامت السلطات الإدارية الفرنسية بتقسيم الدوائر إلى ثلاث مناطق بالتساوي، فقرار 22 ديسمبر 1899م قسم دائرة مشرية إلى 03 مناطق استغلالية والتي تم تعديلها لاحقا بموجب قرار 14 أوت 1903 و 1906 و 1908م[♦].

3- منع جني وحصاد الحلفاء بمناطق الكثبان الرملية والتي تبعد عن مركز جرفيل الاستيطاني بنحو 10 كلم ومشرية وبوقطب، وكذلك منع الحصاد بجميع سفوح الجبال خاصة شمال مشرية وعر السكة الحديد المتجهة نحو كربازة (KREBAZZA) وجنوب مشرية وغرب الطريق الرابط بعين بن خليل وطريق عين بن خليل مكاليس¹.

وقد شددت الإدارة المحلية على طرق حصاد الحلفاء والتي يجب أن تتم بواسطة الأيدي أو بواسطة المنجل الحاد حتى لا تتأذى الأوراق ويمكن أن يجدد النبات أوراقه لاحقا.

كما صدر قرار آخر مؤرخ في 11 أفريل 1912 من قبل الحاكم العام[♦] والذي عدل بموجبه قرار 14 ماي 1908م، الذي لم يحترم الشركات الاستغلالية تطبيقه على أرض الواقع، واستمرت في استغلالها العشوائي وحماية أرباحها المتزايدة² يوما بعد يوم.

♦. تضمن القرار الحكومي الصادر في 14 ماي 1908 عدة تنظيمات نذكر منها:

- ✓ الحقول الحفاوية تصدر باسم الحاكم العام وليس القبائل القاطنة في تلك المنطقة.
- ✓ الفارق ما بين الورشة ونقاط المياه نحو 200 متر فقط.
- ✓ عدد العائلات بالورشات يجب أن لا يتعدى 04 عائلات فقط.
- ✓ عدد الموازين لا يتعدى ثلاثة بالورشة.

¹. C. Meissner, op.cit, pp156-157.

♦. صدر هذا القرار بعد الإلحاح والمناقشات الحادة للعديد من ضباط الشؤون الأهلية وبعض موظفي مصلحة المياه والغابات الذين نادوا بشدة وقف الاستغلال المفرط لنبات الحلفاء حسب ما جاء في تقرير لجنة معاينة الحلفاء. ينظر: A.O.M Rapport du Commission d'Alfa, du 04 septembre 1915.

². Ibid, p05.

وقد تضمن قرار 11 أبريل 1912م التعديلات الآتية¹:

- 1- منع حصاد الحلفاء بشعاع 20 كلم بضواحي بوقطب.
 - 2- منع حصاد الحلفاء في الأراضي الرملية المتواجدة مجملها في المنحدرات الجبلية شمال المنطقة المحرمة بضواحي مشرية وشرق السكة الحديد بامتداد قدره 2 كلم، و 05 كلم غربا.
 - 3- يمنع إنشاء الورشات بشكل دائم والمستودعات المتخصصة في شراء الحلفاء من الأهالي بالمركز الاستيطاني للبيض والفايل (ALFA VILLE)♦.
- يمكن القول أن هذه التدابير جاءت بعد المناقشات الحادة بين العديد من ضباط الشؤون الأهلية واللجان المتخصصة التي أعادت بصورة خاصة وضعية استغلال حقول الحلفاء ومحاولة تطويرها وتحسين استغلالها، وكذلك جراء الملاحظة الدقيقة لما يحدث بجميع دوائر وملحقات إقليم عين الصفراء وقبائلها التي أضحت المتضرر الوحيد نتيجة الاستغلال المستمر والعشوائي للحلفاء.
- وقد اقترحت لجنة معاينة الحلفاء بالإقليم الجنوبي في تقريرها الصادر في 4 سبتمبر 1915م عن ضرورة إعادة النظر في تحديد مناطق الاستغلال وتقسيمها إلى ثلاثة مناطق وفق برنامج "قطاع ثلاثي الحول"² (SECTEURS TRIENNAUX) والتي تم العمل بها، حيث تم تقسيم دائرة مشرية وجرفيل إلى ثلاث مناطق استغلالية تترك الأفضلية فيها كل سنة لمنطقة بهدف الاستراحة وإعادة الإنبات.

لكن كل هذه التدابير والتنظيمات كلها لم تطبق على أرض الواقع ولم يسهر الحاكم العام على إلزام الشركة الاستغلالية صاحبة أكبر امتياز في الامتثال للقوانين والقرارات، حيث أكد أحد الموظفين بمصلحة المياه والغابات الذي عينه الحاكم العام للقيام بعملية المراقبة بإقليم عين الصفراء وبعد تقرير قدمه في 14 أبريل 1911 للحاكم العام يوضح فيه: "بأن المنطقة الواقعة بضواحي بوقطب

¹ C. Meissner, op.cit, pp156-157.

♦. ألفايل: مركز تجمع الحلفاء، بني كمركز استيطاني خاص بالجالية الإسبانية وعمال الورشات الاستغلالية، يبعد بنحو 60 كلم عن مركز بوقطب الذي تربطه به السكة الحديد.

² A.O.M Lettre du G.G.A à direction des territoires du Sud (Avis sur la Proposition de la Commission d'Alfa), op.cit, p13.

وتوضح اللجنة طريقة عمل هذا البرنامج عن طريق تقسيم الأراضي الحلفاوية إلى ثلاث أقسام تأخذ شكل مثلث، حيث تستغل في كل سنة قطعة معينة وتترك البقية في حالة استراحة.

أصبحت قاحلة ويجب اتخاذ تدابير إستراتيجية من أجل حماية السكة الحديد التي ستعرض لطغيان الكثبان الرملية مع مرور الزمن"¹.

وهو نفس الأمر الذي أدلى به القائد الأعلى لدائرة مشرية وألح بشدة على وضع حد لعملية الاستغلال العشوائي، حيث صرح سنة 1913 قائلاً: "الكثبان الرملية الواقعة ما بين جبل أمرق وجبل عنتر والسكة الحديدية، يزحف نحو الرمل شيئاً فشيئاً، ولا يمكن وقفه إلا بوضع حد لنزع الحلفاء التي تستغل بشكل مفرط بمنطقة بوقطب وألفايل، وبئر السينية والبيوض"².

لقد تعالت أصوات العديد من الموظفين الفرنسيين وضباط الشؤون الأهلية لوضع حد للاستغلال المفرط والعشوائي لنبات الحلفاء والذي انعكس بشكل واضح على الثروة الحيوانية بإقليم عين الصفراء³، وخاصة مركز بوقطب التي تعرضت مناطقه الاستغلالية الغنية بالحلفاء إلى التخريب وبالتحديد المنطقة الثانية التي أضحت تبدو أرض قاحلة⁴، لا أثر فيها لنبات الحلفاء.

وتظهر نتائج الاستغلال العشوائي بشكل واضح على الانخفاض الرهيب الذي أصاب الثروة الحيوانية لدى قبائل الحميان والطرفي بالبيض التي عارضت بشدة وانتفضت ضد سياسة السلطة الاستعمارية الفرنسية الممارسة بالإقليم العسكري لعين الصفراء⁵، لكن دون أن تحقق أي تغيير الأمر الذي أدى بها إلى فقدان قطعانها والتي انعكست سلباً على الاقتصاد الأهلي الجزائري، حيث انخفض عدد القطعان الجزائرية من 8.500.00 رأس سنة 1892م إلى 7.600.00 رأس سنة 1893، واستمرت في الانخفاض حيث بلغت سنة 1899م 6.600.00 رأس فقط، لتتخفف بشكل رهيب سنة 1910م لتصل إلى 7.400.00 رأس⁶.

فهذا الانخفاض أدى إلى ارتفاع أسعار اللحوم خاصة بفرنسا، حيث يذكر السيد بارسي (Parssi): "أسعار اللحوم ارتفعت بصفة بارزة لأن قطعان الماشية نادرة،

¹. C. Meissner, op.cit, p162.

². Ibidem.

³. A.O.M Lettre du Président de la Chambre de Commerce d'Oran à M. le Général Levé Comandant des Territoires du Sud d'Ain Sefra, N°10.040, du 29 Novembre 1913.

⁴. A.O.M Lettre adressé à M. le Général Levé Comandant du Territoire d'Ain Sefra, du 23 Mars 113.

⁵. M. Mathieu, D. Trabut, les Hauts Plateaux Oranais, op.cit, pp38-40.

⁶. A.O.M Avis Sur la Proposition de la Commission d'Alfa), op.cit, p05.

فتناقص رؤوس الأغنام لدى الحميان قد أثر على أسواق مرسيليا التي تمونها ماشية الجنوب الوهراني وهذا ما ينعكس على فرنسا كلها¹.

وما يمكن استخلاصه مما سبق عرضه عن طرق استغلال مادة الحلفاء في إقليم عين الصفراء العسكري، هو قمة الاستنزاف البطيء لثروات البلاد والعباد، فقد أثر كليا على الاقتصاد الأهلي بتدمير الثروة الحيوانية باعتبارها النشاط الوحيد الذي كانت تمارسه قبائل المنطقة (الحميان، العمور دوي منيع، أولاد جرير)، وردهم إلى الفقر ودفعت بهم الحاجة إلى العمل كأجراء داخل الورشات الحلفاوية.

- طرق ووسائل الاستغلال

لتوسيع دائرة الاحتلال في الصحراء الجزائرية، كان من واجب العسكريين إنشاء النقل الصحراوي الذي يؤمن لهم وصول المؤن والذخائر إلى الحصون التي زرعها الاستعمار في أقصى الجنوب، غير أن هذه الطرق ستحدد إستراتيجية الاستعمار الفرنسي في الجزائر والصحراء وأبعاده الرامية إلى استنزاف خيرات البلاد لتنمية الوطن الأم على حساب وطننا وإنشاء المزيد من المستوطنات لتأمين وصول المزيد من الكولون.

• مشروع النقل الصحراوي:

يعود ظهور مشاريع السكة الحديدية أو ما اصطلح عليه بالنقل الصحراوي إلى دعاة الفكر السانسييموني²، الذين طرحوه إلى جانب العديد من المشاريع كإنشاء البحيرة الكبرى في العرق الشرقي الكبير، فالسانسييمونيون هم الذين دافعوا بقوة على مشروع إنشاء شبكة من خطوط السكة الحديدية في الصحراء الجزائرية لربطها بجميع مستعمراتها في أعماق إفريقيا³.

لاشك أن العديد من الأسباب التي دفعت بهؤلاء إلى تبني هذا المشروع يمكن حصرها في النقاط التالية:

¹ C. Meissner, op.cit, p162

² كلود دوسان سيمون (1760-1826) فيلسوف اجتماعي واقتصادي فرنسي، ولد في باريس وفقد صلته بأسرته النبيلة وتنازل عن لقبه وأنفق ثروته على منتدى للعلماء، نادى بدين جديد وهو دين التقدم والتفوق الصناعي، وله عدة مبادئ اشتراكية وعلمية، ومن أشهر مؤلفاته: عقيدة الصناعيين المسيحية الجديدة. لقد استهوت مبادئه جماعة من المبشرين المتحمسين، فأنشئوا حركة اجتماعية تأثر بها الفكر الاشتراكي. ينظر، عمراوي أحميدة وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844-1916)، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص77.

³ Leroy-Beaulieu, l'Algérie et la Tunisie, op.cit, pp167-168-169.

- 1- تسهيل عملية نقل القوافل العسكرية للتمكن من القضاء على بؤر التوتر والمقاومة في الجنوب الغربي خاصة.
 - 2- ربط المراكز الاستيطانية ببعضها البعض محليا، أما قاريا فربط مستعمراتها الإفريقية.
 - 3- تنشيط الاقتصاد الفرنسي والعمل على ازدهاره، وخاصة قطاع الخدمات، وذلك من خلال استغلال الثروات الطبيعية الظاهرية والباطنية التي تزخر بها الصحراء الجزائرية، فإقليم توات-قورارة غني بالمعادن كالفحم الحجر حسب الدراسة التي ذهب إليها د.فلاموند، وهضبة تادميت الغنية بمركبات الكبريت حسب ما قدمه "رولان"¹، بالإضافة إلى العديد من المعادن الأخرى كالرصاص والزنك والنحاس والأنتيموان².
 - 4- الحد من تجارة القوافل المغربية والطرابلسية والمالية العابرة للصحراء الإفريقية والمحملة بكل أنواع المنتجات الصحراوية ومنافستها، بل والوصول إلى مصادر هذه الثروة واستغلالها واحتكارها لصالح الشعوب الأوروبية، قبل مد خطوط السكة الحديدية تقوم القوات الفرنسية بالترصد لهذه القوافل لابتزازها وعرقلتها عن ممارسة نشاطها، مع العلم أن الصحراء كانت غنية بطرقها وأسواقها التجارية الكبرى التي لا يسعنا المجال لذكرها.
- بداية من سنة 1875 قدم المهندس دوبونشيل * مشروعه الخاص بإنجاز خط السكة الحديدي الذي يمتد من الجزائر نحو توات وإيغرغار، "تومبكتو"، فتم تكليفه رسميا سنة 1878 بوضع الحدود لهذا المشروع³، غير أنه لم يتجاوز منطقة الأغواط.

¹. نُصّب ملكا للهند في الفترة ما بين (1898-1905) من أجل وضع حد للانتفاضات الهندية التي أعقبت قمع الثورة الهندية في سنة (1858-1860)، بيد أنه قام بإنشاء العديد من المشاريع التي توجي بتمسك الاستعمار البريطاني بالهند، الأمر الذي أثار السخط والتذمر في أوساط الشعب الهندي، مثل مد خطوط السكة الحديد في أرجاء الهند وطرق المواصلات، وقد ربطها ببعضها لتسهيل التحكم في الإمارات الهندية. ينظر، عمراوي أمينة وآخرون، المرجع السابق، ص 78.

². هو معدن يستخدم كثيرا في أدوات الزينة عند الجزائريين والعرب، وهو معدن معروف في الأوساط الشعبية بالكحل الذي يستعمل في تزيين العيون.

* أدولف دوبونشيل يعد من أبرز المهندسين الطموحين لإنشاء مشاريع السكة الحديد، وقد كان متأثرا إلى حد بعيد بمشاريع السكة الحديد في الولايات المتحدة الأمريكية وبمشاريع التوسع في قارة إفريقيا، فرأى ضرورة ربط المستعمرات الفرنسية ببعضها بسكة من الخطوط الحديدية.

³. A. Duponchel, le Chemin de FeR Trans-Saharien, l'Algerie et le Soudan, Paris, 1878, pp230-231.

ونظرا لأهميته، فقد اهتمت بدراسته الغرفة التجارية بمرسيليا، فوزير الأشغال العمومية فرستيان كان مرتبطا برؤوس الأموال بالغرفة، الأمر الذي حفزه في سنة 1879 على تأسيس اللجنة الحديدية الصحراوية، فوهب ثلاثة ملايين فرنك ذهبي لتمويل ثلاث بعثات وهي كالآتي:

- البعثة الأولى: يترأسها "بويان" مهمتها رسم طريق السكة الحديد بمقاطعة وهران نحو توات، فقد توقفت الأشغال بمغرار قرب جبال القصور، وأسند إلى كاميل سباتي مهمة جمع المعلومات لبقية المشروع¹.
- البعثة الثانية: فقد تولاهما "شوازي" فقام أحد أعضاءها وهو المهندس "جورج رولان" بدراسة جيولوجية شاملة لمنطقة واد ريغ، ورأت هذه البعثة ضرورة اختيار الخط الرابط بين بسكرة-ورقلة-المنيعة (الغولية) لفوائده التجارية الجمّة.
- البعثة الثالثة: كُلف بها الكولونيل "فلاترس" ويمتد طموحها إلى ما وراء الحدود التي أدركها الاحتلال الفرنسي.

ويعود الفضل الكبير في إقناع البرلمان الفرنسي بالمصادقة على مشروع إنشاء ثلاث خطوط رئيسية للسكة الحديد إلى المهندس "دوبونشيل" الذي يحظى بمكانة عالية وقدرة واضحة على الإقناع² والشيء الملاحظ في مشروع النقل الصحراوي أن حتى الآباء البيض، وخاصة الكاردينال لافيغري، كانت له يد واضحة في إقناع رجال الأعمال الأوروبيين والفرنسيين المترددين حول إنجاز هذا المشروع خصوصا بعد القضاء على حملة "فلاترس" في الهقار، فكان دائما يستشهد لهم بما أنجزته أمريكا من مشاريع السكة الحديد عبر أراضيها، وبهذا الخصوص يقول: "أو لم ترو كيف أن السكة الحديد ربطت عام 1859 بالرغم من الصحاري والجبال بين ساحلي الأطلسي والهادي..."³، تعطلت مشاريع السكة وفتحت الباب على مصراعيه للانتقادات اللاذعة من طرف بعض السياسيين الفرنسيين، وفي هذا الشأن يذكر جورج غيرستر "بأنه لا ريب أن الجزء الأكبر من مشروع السكة الحديد العابر للصحراء يبدو كمهزلة وأضحوكة، فقد اجتمعت فيها عناصر متعددة، شملت الغموض والمثالية والحمق والوطنية وجنون العظمة"⁴.

¹. Camille Sabotier, Touat Sahara et Soudan, (S.E.S), Paris, 1891, pp139-145.

². Troubad L'Apiculteur-Charles Simond-Van Cleemputte-Paul Adolphe, Au Pays des Sables, Précédé d'une notion, le Trans-saharien, 1897-1899.

³. عمراوي أحميدة وآخرون، المرجع السابق، ص 81.

⁴. عمراوي أحميدة وآخرون، المرجع السابق، ص 82.

فالبرغم من التصريحات المثنية للعزم فإن كثيرا من المغامرين أصروا على إنجاز هذا المشروع متحدين كل المعارضين لهم، لذلك سيظهر العديد من مشاريع النقل الصحراوي منها:

- مشروع المهندس "بويان" القاضي بمد ثلاثة خطوط حديدية، الأول من تيارت إلى المدية، والثاني من سعيدة إلى رأس الماء والمشرية، والثالث من المشرية إلى مغلار والوتيد.
- مشروع "دوريان" المتضمن مد خط من وهران إلى توات عبر تلمسان، سبدو، العريشة، وعين بن خليل وسفيسيفة ونخلة بن إبراهيم¹.
- مشروع كولونيو، الذي يقضي بمد خط حديدي من مستغانم نحو تيارت وعين صالح والسرسو، المنبعة وتيميمون².

فاستمرار طمع وجشع الاستعمار الفرنسي بالصحراء الجزائرية، اصطدم بطموحات التوسع الإنجليزي في القارة الإفريقية، فقد كادت حادثة فاشودة عام 1898 أن تؤدي إلى تصادم القوات الاستعمارية فيما بينها، لولا تعقل الطرفين وسعيهم إلى إيجاد حلول دبلوماسية تقضي بتوقف فرنسا عن توسعاتها على حساب مناطق النفوذ الإنجليزي³، ففي هذا الصدد يصرح الحاكم العام جول كامبرن حاثا فرنسا على التمسك بالمستعمرة الجزائرية وخاصة الصحراء، "ستؤول الصحراء إلى غلبتنا ولن نركن ولو بالقوة إلى سلطة دون سلطتنا في منطقة توات وعين صالح وغيرهما من المناطق، فليكن الأهالي على اقتناع أن احتلالنا لهذه المناطق الفعلي ليس إلا مسألة من المسائل الظرفية... وسيتحقق هذا الاحتلال دون أن نأخذ بعين الاعتبار تلك الاحتجاجات التي قد يرفع إليها عملنا"⁴، لقد كان جول كامبون شغوبا بإنجاح مشروع النقل الصحراوي لذلك سعى إلى التعاون مع مختلف الأنصار والموالين له في طموحاته.

¹. للاضطلاع أكثر على مشروع المهندس بويان والمهندس دوريان المتضمن مد خط السكة الحديد إلى غاية توات مرورا بالجنوب الوهراني العودة إلى كتاب:

Isidore Derrien (commandant), le chemin de Fer Trans-Saharien, d'Orans au Touat par Tlemcen, l'Oued, Messaoura, Oran, 1879

². Le général Colonieu, le Tracé Central du Chemin de Fer Trans-Saharien, 1880, pp1-29.

³. Lieutenant O.de la Bourdonnaye, le Moral Algérien dans le Bled Oranais, Paris, 1908, pp95-96.

⁴. أندري توشي وآخرون، المرجع السابق، ص 392.

فمُنَاصِرُوا مشاريع السكة الحديد كانوا يزدادون يوما بعد يوم، حيث أن كاميل سباتي قد أوضح للمستثمرين منافع هذه الخطوط الصحراوية وقيمة الأرباح التي سيجنونها، حيث يذكر "منطقة توات بها ثروة كبيرة وما يمكن أن نحصل عليه هو أكثر من ذلك، فهناك 10 ملايين نخلة، وما يمكن أن يوفر حوالي 200 ألف طن من البضائع سنويا، وأن منطقة توات وحدها تساوي السكة الحديد"¹.

بموجب قانون 10 أفريل 1879 القاضي بتخصيص غلاف مالي قدره 300 مليون فرنك لصندوق الأشغال العمومية الذي اقتطعت فيه حوالي 40 مليون لإنجاز شبكة الطرقات التي تربط البلديات والمقاطعات الجزائرية، فبعد حدوث أزمة مالية خانقة بالحكومة الفرنسية عام 1885 فإن دار المالية بباريس قامت بتخفيض المبلغ إلى 20 مليون، إلا أن قانون 06 ماي 1886 قد ثبت المبلغ في حدود 35 مليون فرنك، الأمر الذي فتح الباب للتنافس بين الشركات الخاصة للظفر بإنجاز خطوط السكة الحديد بالجزائر والجنوب، فقد تحصلت الشركة الفرنكو-جزائرية على امتياز إنجاز الطرق التي تخترق الصحراء، وفي هذا الصدد يذكر الاقتصادي لوروا بوليو "بأن الشركة F-A كان لها الحظ في الحصول على أهم وأطول الطرق السككية بالجزائر..."².

وضمامنا لمصالحها تمكنت الشركة من الحصول على 300 ألف هكتار من الحلفاء بالهضاب العليا وذلك بفضل قانون الغابات³.

كلفت الشركة الفرنكو-جزائرية بإنجاز الخط الأول الذي يمتد من أرزيو نحو سعيدة بطول 238 كلم من خلاله حظيت بـ 9000 هكتار من حقول الحلفاء التابعة لدومين الدولة⁴.

أجبرت مقاومة الشيخ بوعمامة كثيرا سلطات الاحتلال الفرنسي بتسريع عمليات إنجاز خطوط السكة الحديد من سعيدة إلى مصباح في 01 جوان 1881 لتأمين نقل المؤونة وقوافل الجنود لنشر العديد من الحاميات بهدف إخماد الثورة التي سرعان ما انتشر لهيبها، ففي خلال 239 يوما من الأشغال الشاقة والمتواصلة تمكنت الشركة صاحبة الامتياز من مد خط السكة من خلف الله نحو مشرية بطول

¹. أندري توشي وآخرون، المرجع السابق، ص 393.

². Paul Leroy-Beaulieu, op.cit, pp 157-162.

³. L'Echo de Sud, Journal des Intérêts de Saida et Harts Plateaux, Première Année, N° 07, Vendredi 18 septembre 1896.

⁴. C. Meissner, op.cit, p 257.

قدر بـ 115 كلم والتي انتهت الأشغال به في مطلع سبتمبر 1883¹، وقد أضيف هذا الشطر ♦ إلى شبكة الطرق الوطنية بالجزائر، وإلى جانبه طرحت عدة مشاريع للربط ما بين مشرية والفكارين وخط آخر يربط مشرية بالبيض عبر تيسمولين، غير أن الاضطرابات التي كانت تشهدها المنطقة المحادية للأطلس الصحراوي، أجبرت فرنسا على تمديد خط السكة إلى غاية عين الصفراء في 28 أوت 1887 لحوالي 102 كلم، ثم تقرر على إثرها إيصال الخط الحديدي إلى غاية المنطقة الحدودية بفيقيق التي اعتبرت إدارة الاحتلال بؤرة لتغذية الثورة ومكان صنع الثوار، فأنشئ مركز جنين بورزق لتأمين وحراسة المناطق الحدودية تربط بالخط الحدودي بطول 85 كلم الذي انتهت به الأشغال في 01 أوت 1901²، وبعدها أنجزت بعض الخطوط منها، خط دوفريي (الزربية) بـ 34 كلم، ثم خط بني ونيف-دوفريي سنة 1903 إلى أن بلغ الخط التالي لغاية بشار كولومب في 04 فيفري 1905 على مسافة قدرها 112 كلم الذي سيصل إلى مناجم الفحم بالقنادسة³.

وحتى تستكمل الإدارة الاستعمارية سيطرتها على أراضي الأقاليم الجنوبية وتؤمن سيطرتها اهتمت بإنشاء الطرق الصحراوية ♦ التي تربط الجزائر بالمستعمرات الإفريقية التابعة لنفوذها خاصة (مالئ تشاد، النيجر...)، لذلك فقد قررت مصلحة الجسور والطرق التابعة للإقليم الجنوبي بإنشاء ثلاث خطوط رئيسية والتي بدأ العمل بها إلى ما بعد سنة 1926 والطرق هي كالآتي:

1- طريق النقل الصحراوي الذي يربط ما بين كولومب بشار وقاو مرورا ببني عباس، أدرار رقان بالإقليم الجزائري، ويقدر طوله بحوالي 2094 كلم،

¹. Ju les Renars, les Etapes d'un Petit Algérien dans la province d'Orans, Paris, 1888, pp 93-94.

♦. بسبب اشتداد المقاومة عجلت غرفة النواب بالتصويت على إنشاء هذا الشطر في عام 1881 وقد قام السيد فوسي (M.Fousset) وهو رئيس المهندسين بالشركة (F.A) بإعطاء أمر انطلاق الأشغال بـ 800 عامل وانتهت الأشغال في 02 أفريل من نفس السنة رغم الظروف الطبيعية القاسية. ينظر، نفس المرجع، ص 94.

². L'ingénieur Getten, les Chemins de Fev aux Colonies et dans les pays neufs, Tome III, Paris, 1900, pp 156-159.

³. Ibidem.

♦. في الفترة ما بين 1905 إلى 1926 كان الإقليم الجنوبي يحتوي على طريق وطني واحد فقط مصنف، ألا وهو الطريق الرابط بين قلتت الستل-الأغواط والذي صنف الطريق الوطني رقم 01 (الجزائر-الأغواط)، والطريق الثاني هو الرابط ما بين بوقطب-البيض، وبموجب تصنيف 1926 أوجدت عدة طرق منها الطرق الحضرية الهامة والطرق الريفية والطرق الرئيسية الكبرى، للمزيد من التفصيل ينظر جدول تصنيف الطرق بعد 1926 في الملحق.

فالشطر الخاص بالأراضي المالية قدر بـ 625 كلم أما الباقي فهو تابع للأقاليم الجنوبية.

2- الطريق المركزي يتجه من القولية نحو زيندر ثم عين صالح، تامنغست، عين قزام الذي انطلقت الأعمال به سنة 1926، دخل حيز العمل في ديسمبر 1929، فقد قدر طريق القولية-تامنغست بـ 1.116 كلم ومن خلاله تم إصلاح العديد من الأبراج والحصون لتأمين هذا الطريق التجاري الممتاز، فقدر الغلاف المالي لإتمام الإنجاز بـ 837.043 فرنك فرنسي¹.

3- طريق النقل الصحراوي الشرقي، ورقلة إلى جانت عبر حصن (FORT LALLEMAND) ثم حصن فلاترس (FORT FLATTERS) أمقيد بطول نحو 1.490 كلم، وقد بدأ يشهد حركة واسعة لسير المركبات بداية من 1929².

ولتأمين الطرق والمنافذ بالإقليم الجنوبي، قامت السلطات الفرنسية بربط جميع المراكز الاستيطانية والحاميات المنتشرة في الصحراء الجزائرية بشبكة واسعة من الاتصالات وخطوط التلغراف والهاتف، بهدف حماية قوافلها العسكرية والمؤن بطرق سليمة، وكذلك مراقبة تحركات القبائل خاصة بضواحي فيقيق وقصر يش وتافيلالت بالحدود المغربية-الجزائرية، فبعد وصول ليوتي³ صاحب فكر الاحتلال الهادي للصحراء وتولييه قيادة دائرة عين الصفراء، باشر بتطبيق عدة إنجازات لتوسيع دائرة الهيمنة الفرنسية بالجنوب الوهراني، فقد ربطت عين الصفراء بخط تلغرافي يؤمن الاتصال ما بين سعيدة-وهران-عين الصفراء، وخط آخر يربط هو الآخر ما بين عين الصفراء-بني ونيف-جرفيل، وفي سنة 1913 ربطت عين الصفراء بفرطاسة، ولمراقبة تحركات قبيلتي دوي منيع وأولاد جرير والقبائل الحدودية مع كولومب بشار، فقد ربطت هذه الأخيرة بواسطة خط تلغرافي يتصل مباشرة ببني زيرق الواقعة قرب بني ونيف، وفي سنة 1908 أصبحت بشار تتصل ببني ونيف، أما شمالا تتصل بتاغيت وبني عباس وكذلك ربطت مع بوعنان وبوذنيب فقد تمكنت إدارة الاحتلال بواسطة هذه الشبكة الواسعة من

¹. René Passeron, le Développement Economique des Territoires du Sud, (A.F.a.s), Congrès et Compte-Rendu de la 54^{ème} session, Alger, 1930, Paris, pp828-831.

². Exposé de la Situation Général des Territoires du Sud, (1903-1929), op.cit, pp 329-338.

³. هو لويس قونزلاس هيبارت ليوتي، ولد بناتسي في نوفمبر 1854 من عائلة حربية، فجدّه كان عسكريا بالإضافة إلى إخوته الثلاث -يحملون رتبة جنرال- زار الجزائر لأول مرة عام 1878 حيث مكث في العديد من المدن (كقسنطينة عنابة، البليدة...) وقد شهد أعظم الثورات ضد الاحتلال الفرنسي خصوصا ثورة بوعمامة في الجنوب الوهراني عام 1881 مما ولد في نفسه فكرة الاحتلال الهادي.

خطوط الاتصالات بسط سيطرتها على الأقاليم الجنوبية¹، الأمر الذي جعل أحد الضباط العسكريين بالجنوب يصرح قائلاً: "السكة الحديد والتلغراف هم في الواقع مصدر قوة وسلاح مدمر في الحروب، حيث يعمل على فرض الأمن والاستقرار، فهما يجعلاننا نتحرك بسرعة كبيرة مقارنة بالأهالي وهذا هو الأهم..."².

كما نشرت العديد من نقاط المراقبة -أو ما اصطلح عليه التلغراف البصري- لحماية المراكز الاستيطانية، حيث تمركزت هذه النقاط بأعلى القمم الجبلية بالإقليم، خاصة بجبل عيسى ومكثر بعين الصفراء وجبل بغير ومكايدو وبودرقة بالبيض، ثم أدخل الهاتف الذي سهّل الاتصال ما بين عين الصفراء ومركز فرطاسة في البداية ثم عممت الإدارة العسكرية خدمات الهاتف وأصبحت الاتصالات تربط كل البلديات والملحقات فيما بينها³.

بعد احتلال منطقة توات وإنشاء الجيش الصحراوي خاصة كتيبة توات-قورارة والساورة، التي زودت بكل الأسلحة، فقد عمد السيد جول كامبون منذ 1893 إلى تشكيل لجنة استشارية حول طرق ووسائل لتنظيم الجانب التجاري بالإقليم الجنوبي الغربي، فقد طرح وناقش السيد ETIENNE مسألة الجمارك وألحّ على ضرورة إنشاء مراكز لها بالإقليم الجنوبي لتشجيع وصول وتدفع البضائع والسلع الأوروبية نحو أسواق المنطقة، ففي هذا الشأن يذكر: "بضواحي عين الصفراء وهي محطة التوقف، حيث يشتري الأهالي السلع من الصنع الإنجليزي القادمة من مليلة وطنجة وضواحي المغرب، فتصل هذه السلع على أظهر الإبل، وهو ما ينافس السكة الحديد ذاتها"⁴.

نستنتج من هذا الطرح سعي الضباط الفرنسيون إلى محاولة تحطيم تجارة القوافل وعرقلتها، بهدف إنجاح طرق السكة الحديد التي تعد مشروعاً عسكرياً محض. نتيجة لما توصلت إليه اللجنة التي شكلها جول كامبون، فإن السلطات الفرنسية عملت على وقف عمليات تهريب السلع بإقامة عدة مكاتب جمركية بالمناطق

¹. C. Meissner, op.cit, pp 77-82.

². Damon, Sous-Intendant Militaire, l'Expédition du Touat, Conférence Fait à la Réunion des Officiers de Sidi Bel Abbés, Paris, 1897, pp 10-12.

³. ثم زوّد بريد مشرية بخط هاتفي الذي أَمّن وصول وتحويل التلغرام وأصبحت بذلك تلعب دور الوسيط ما بين مشرية-بوقطب، هذا من جهة ومن جهة أخرى ما بين مشرية-مكالييس، ثم لاحقاً ربطت بشار ببليهادي وصفصاف.

⁴. Ju les Cambon, le Gouvernement Général de l'Algérie (1891-1897), Paris, 1918, pp232-236.

الحدودية للإقليم، فطبقا لقانون 1895 الذي نص على محاربة التهريب بواسطة المكاتب الجمركية، فأعقبه قرار 19 ديسمبر 1896¹ الذي سمح بعبور بعض السلع إلى الصحراء الجزائرية وأعفى كثيرا هذا القرار السلع من الأصل الفرنسي والأوروبي ♦ ونتيجة لهذه الإجراءات أنشأت العديد من مراكز المراقبة الجمركية على غرار البيض، بوسمغون، عين الصفراء، سفيشيفة، القعلول، إلى أن وصلت بموجب قرار 6 سبتمبر 1904 إلى غاية ثنية الساسي بحدود تلمسان وعقلة النجا وعين بن خليل، ومنها إلى دوفريي أقصى نقطة بالحدود المغربية-الجزائرية². هكذا ونتيجة لهذه التدابير المتخذة من قبل الإدارة الاستعمارية فإنها انعكست سلبا على التجارة الصحراوية، خاصة تجارة القوافل التي لم يعد لها تواجد خصوصا بعد وصول العديد من البضائع الأوروبية التي تنقلها شركات الشحن الأوروبية التي وسّعت مبادلاتها التجارية في الوسط الإسلامي وساهمت بشكل واضح في تلبية حاجات السوق الاستعمارية، وخلقت مضاربات واضحة داخل الأسواق بالجنوب، مما فتح الباب على مصراعيه لتهريب السلع نحو المناطق الحدودية.

¹. Paul Emile Moucheron, les Douanes en Algérie, Alger, 1907, pp 11-12.

♦ القرار المؤرخ في 1860/06/25 فتح الحدود الجنوبية للجزائر، من جرفيل إلى غاية بسكرة لاستيراد السلع من الأصل والصنع الصحراوي والسودان، فتطبيق هذه التدابير يسمح لتسهيل وتطوير النفوذ الفرنسي بالمناطق الجنوبية، لذلك أنشأت العديد من المكاتب الرئيسية للجمارك بالبيض، الأغواط وبوسعادة. ينظر:

Cours d'Instruction Préparatoire au Service des Affaires Indigènes, les Douanes, p18.

². Ibid, pp27-28.

الفصل الرابع: نتائج وردود الأفعال تجاه السياسة الاستيطانية

بالرغم مما يدعيه بعض المؤرخين الفرنسيين من أن إدارة الاحتلال قامت بعدة منجزات ضخمة، كانت مكلفة للحكومة الفرنسية وأن فرنسا قد منحت الجزائر أكثر مما أخذت منها ولكن في الحقيقة جميع المنجزات الاقتصادية والعمرانية والمعجزات الزراعية التي أقامت في الجزائر والتي كان الغرض منها سوى تأمين وجودها واستمرار استغلالها، وهو الأمر الذي انعكس سلبا على المجتمع الجزائري وبالأخص الأقاليم الجنوبية.

ونظرا لعدم قدرتنا على الإلمام بكل الجوانب التي يتطلبها الحديث عن نتائج الاستيطان الفرنسي بالإقليم، فقد اكتفينا بالإشارة إلى أهمها، كانتشار الفقر وهدم البنية الاقتصادية والاجتماعية.

- النتائج الاقتصادية:

بقدر ما انعكس الاستعمار الاستيطاني على الجانب الاجتماعي لسكان الأقاليم الجنوبية عامة وإقليم عين الصفراء خاصة، من خلال السياسية الفرنسية المنتهجة بهذه المناطق التي انفصلت على التل بداية من عام 1902، والتي أخضعت للنظام العسكري الذي جمع في نفس الوقت بين السلطة الإدارية والعسكرية، فإن آثارها كانت أكثر خطورة على الاقتصاد الأهلي الصحراوي، الذي دمر كليا خصوصا بعد مد خطوط السكة الحديدية، وإنشاء الفرق الجمركية منذ 1893م والتي ساهمت بشكل أو بآخر في إعاقة الحركة التجارية بالأقاليم الصحراوية.

- تحطيم الاقتصاد الأهلي:

قبل التطرق إلى هذه النتائج نود الإشارة ولو بقليل إلى الوضع الاقتصادي الذي كان سائدا في المنطقة، فأندري توشي يذكر في أحد مؤلفاته وصفا رائعا لأهل القصور قائلا: "...ولقد كان القصوريون يتعهدون بمهمة السواقي الموزعة انطلاقا من الأودية أو العيون ويفلحون قطع الأرض البدوية، فيغرسونها أشجارا مثمرة مختلفة على السهول الكبرى ونخيلا وأشجارا في جنوب الأطلس... وأما الواحات الشمالية، فكان المناخ يسمح لهم بالزراعة البعلية للشعير في أرض العروش..."¹.

¹. أندري توشي، إيف لاكوست، أندري برينان، الجزائريين بين الماضي والحاضر، المرجع السابق، ص382.

ومن حيث القطاع الصناعي الذي كان قائما بالجنوب الجزائري يذكر في هذا الشأن دوماس قائلا: "...كانت الصناعة التقليدية منتشرة في جل القصور وفي الشوارع والأحياء كالحدايين وباعة الأسلحة وتجار المجوهرات من يهود فيقيق القاطنين بالأبيض سيدي الشيخ والصباغين والحدايين والنجارين من شلالة..."¹. أما من حيث العلاقات التجارية فهي الأخرى كانت مزدهرة وفي هذا المقام يشير الدكتور يحي بوعزيز في إحدى دراساته إلى ذلك النشاط التجاري المتناسق والمنظم، من خلال تعدد الطرق التجارية الرئيسية التي يفوق عددها 15 طريقا يجوب الصحراء الجزائرية وجزء كبير من الصحراء الإفريقية، والشيء الملفت للانتباه هو تلك السلع والبضائع النادرة والنفيسة ويخضع هذا النشاط التجاري إلى تنظيم دقيق جدا، كما أنه يذر أرباحا طائلة على أصحابه، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هل بقيت هذه الأهمية الحيوية للصحراء الجزائرية والإفريقية عقب التوسع الفرنسي على وضعيتها أو طرأ عليها بعض التغييرات؟. إن سياسة التوسع الفرنسي بالجنوب الجزائري بصفة عامة كانت نقمة وكارثة حقيقية على الاقتصاد الصحراوي والإفريقي، ومنذ بداية الاحتلال الفرنسي للمناطق التالية بدا واضحا لدى ضباطها اهتمامهم الواسع بالطرق التجارية الصحراوية من خلال بعث العديد من المستكشفين²، وقد بدا واضحا هذا الاهتمام لدى الجنرال بيجو (BUGEAUD) الذي كان يسعى للإشراف على مرور المواد المصنعة القادمة من أسواق التل متوخية الطرق الصحراوية وبصفة رسمية قام وزير الحربية المرشال سولت (SOULT) برفع تقرير إلى الملك لويس فيليب سنة 1845م يحدد فيه الغايتين الإستراتيجية والتجارية من توسيع الاحتلال إلى الجنوب، وجاء فيه: "يجب أن تؤلف الصحراء الجزائرية أو بعبارة أخرى المناطق الواقعة بعد التل، صنفا ثالثا من الجهات الإدارية، ففي هذه الجهات لا أثر

¹. Damas Eugène, le Sahara Algérien Etude Géostatistique et Historique sur la Région du Sud des Etablissements Français en Algérie, Fontin Masson, Paris, 1845, pp225-230.

². لفت انتباه العديد من البعثات الاستكشافية العلمية والعسكرية مثل بعثة النقيب رودار (Le Capitaine Roudaire) صاحب البعثة العلمية في الجنوب والمستكشف السيد لارفو (M.Largeau) أهمية الطرق التجارية الصحراوية ومدى إعجاب بعض المعمرين بضرورة ربط علاقات تجارية مع أهالي المنطقة. للمزيد أكثر حول الموضوع ينظر:

C.P.Zaccone (Chef de Bureau Arabe), le Commerce du Sud, 2^{ème} Edition, Constantine, Imp. De L.Marle, 1876, pp05-30.

للمعمرين ولا تطؤها إلا لقمع الفوضى أو لإعداد ظروف ملائمة لإقامة العلاقات التجارية أو توسيعها، وهي مناطق تفتح لنا المجال لطرق هامة في الحركة التجارية المؤمنة¹.

فالأغراض التجارية الواضحة لدى السلطات الاستعمارية الفرنسية منذ بداية الاحتلال جعلها تسارع الزمن في تنفيذ المشروع الاستيطاني بالمناطق الصحراوية من خلال بعث عدد ضخم من المهمات والبعثات²، التي تصطحبها الوحدات العسكرية من أجل القيام بمعينة المكان لتسيير الغزو وتقوم بدراسة مضبوطة للأسواق التجارية وحركة القوافل والمبادلات التجارية بين أهالي المنطقة.

لقد قام الاستعمار الفرنسي بالقضاء على تجارة القوافل عن طريق إنشاء العديد من الطرق بجانب الخطوط الحديدية التي تحدثنا عنها سابقا، بحيث أصبح يتم نقل البضائع والسلع عن طريق العربات والشاحنات التي كانت تنتقل عبرها. وهو ما أدى في الأخير إلى ضعف التبادل التجاري بين الشمال والجنوب، كما أن العديد من المنتجات أصبحت غير راجحة نظرا للمنافسة التي واجهتها من السلع الأوروبية المستوردة، فمنذ 1871 إلى 1890 قامت السلطات الاستعمارية في الجزائر بتحويل وجهة رحلة القوافل التجارية عن بلاد السودان، فمنذ الغزو الفرنسي للصحراء أهملت المسالك التجارية بين وادي ريغ والميزاب لصالح طرقات طرابلس مرورا بغدامس والمغرب مرورا بالساورة³، فهذه الطرق تلقت في البلدان الإسلامية التي لم تخضع بعد للاحتلال الأوروبي، لذلك عجل الفرنسيون في وضع الحواجز الجمركية بمقتضى قرار المملكة الفرنسية سنة 1843 والذي تم تعديله وتطبيقه بالأقاليم الجنوبية بداية من سنة 1893 فأثر ذلك على المنتجات الفرنسية الواردة عبر الجزائر والتي ستمر عبر الصحراء إلى

¹. أندري توشي، المرجع السابق، ص.ص 384-385.

². من بين هذه البعثات التي أنجزت دراسات حول التجارة الصحراوية نذكر: دراسة براكس (Prax) سنة 1859م حول العلاقات التجارية الجزائرية مع مكة والسودان، ودراسة هنري دوفريي (H.Duveyrier) الذي قام برحلة إلى القوالب ثم ربط علاقات مع التوارق، وقام بزيارة إلى غدامس سنة 1864 بطلب من أولاد سيدي الشيخ ونشر دراسته تحت عنوان (الطوارق في الشمال) ورحلة دوكلومب إلى منطقة القصور الذي أنجز بحثا بعنوان اكتشاف القصور وصحراء جهة وهران عام 1858 بالإضافة إلى الكولونيل دوماس (Daumas) دراسة بعنوان الصحراء الجزائرية.

³. C.P.Zaccane, le Commerce du Sud, op.cit, pp05-30.

بلدان أخرى، ومن الملاحظ أن هذا القانون الجمركي يقضي بمنع الصادرات البرية وذلك لحماية التجار الفرنسيين، مما أدى إلى كساد التجارة الصحراوية بالجزائر سواء كانت ذلك في المناطق المحتلة أو غير المحتلة¹.

وبإجراءات الاستعمار هذه بدأ اختلال الأمن يشوب الطرق الصحراوية عادة، وذلك عن طريق انتشار البؤس والحرمان في كثير من المناطق، خصوصا بعد أن أصبحت تجارة الرقيق صعبة للغاية وازداد نشاط قطاع الطرق من بعض القبائل المغربية الذين كانوا يتعرضون للقوافل ويستولون على جمالها، وجدوا في سنة 1905-1906 أن الدخل الذي يجنونه من النهب والسلب غير كاف، لذلك اتجهوا إلى شن غارات وغزوات على القصور نفسها².

يمكن القول أن مجيء الاستعمار إلى الجنوب دمر تجارة القوافل التي كانت تشهد نشاطا مزدهرا قبل وصول القوات الفرنسية، فمن خلال المعلومات التي أوردتها الجمعية الفرنسية لترقية العلوم في المؤتمر المنعقد بوهراڤ في مارس 1888 فيما يخص حركة القوافل بالجنوب الوهراني، فقد ذكرت على لسان باحثيها: "بأن التجارة كانت نشيطة ما بين وهران وقورارة حيث قدرت عدد الإبل المتجهة نحو قورارة بحوالي 14.194 جمل محملة بسلع وبضائع متنوعة قيمتها نحو 427.249,70 فرنكا، وقفلت راجعة بالعديد من البضائع الصحراوية وخاصة التمور التي شهدت إنتاجا وفيرا خلال السنة الفلاحية (1885-1886) بالإضافة إلى الألبسة التقليدية والأفرشة وغيرها قدرت القيمة حوالي 975.882,50 فرنكا³، بينما قدرت الأرباح الصافية لهذه القوافل بـ 538.582,80 فرنكا"، وهو الأمر الذي دفع المشرفين على هذه الجمعية التفكير في الاستغلال الأمثل لهذه التجارة وتوجيهها لخدمة مصالح المعمرين وتشجيعهم إلى التوجه نحو الجنوب لربط علاقات تجارية وطيدة وتحقيق أرباح طائلة.

¹ N. Dal bouse (Inspecteur des Douanes à Alger), les Douanes (Cours d'Instruction Préparatoire au Service des Affaires Indigènes), Alger, (S.D), pp13-56.

² إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982، ص 61.

³ Association Française pour l'Avancement des Sciences, Congrès d'Oran 1888, Oran et l'Algérie en 1887, Notices Historiques, Scientifiques et Economiques, Tome II, Oran, 1888, p182.

ويعد التقرير الذي نشرته الجمعية الفرنسية لترقية العلوم حول القوافل المتجهة نحو قورارة خلال (1886-1887) أكبر دليل على أهمية القوافل والتجارة بالجنوب الوهراني¹.

¹. Ibid, p204.

العدد	القبائل المشكلة للقوافل	التعداد		مجموع الصادرات بالفرنك	مجموع الواردات بالفرنك	الأرباح المحققة بالفرنك
		الأشخاص	الإبل			
01	الحميان (مشرية)	1.765	7.636	224.553,70	491.755	263.301,30
02	أنقاد (أولاد نهار سبدو)	36	156	6.227	12.750	6.273
03	الرزائية (سعيدة)	359	1.550	36.254	88.990	49.736
04	أولاد سيدي أحمد المجذوب والرباوات	131	523	23.410	40.645	16.235
05	أولاد سيدي الشيخ (البيض)	321	1.003	38.317	73.860	35.142,50
06	الطرافي (البيض)	505	2.067	55.411,50	173.350	117.738,50
07	العمور (عين الصفراء)	294	1.259	43.176	94.532,50	50.156,50
	المجموع ¹	3.411	14.194	427.249,70	975.882,50	538.582,80

¹. Association Française pour l'Avancement des Sciences, op.cit, p204.

- استنزاف الثروات:

بذلت السلطات الاستعمارية الفرنسية جميع الجهود واستعملت شتى الوسائل من أجل إتقان الاستغلال الاستعماري والظفر بخيرات البلاد الجزائرية وتسخيرها لخدمة المشروع الاستيطاني، فمذ أن نجح المستوطنون في حقيقي الاستغلال المالي للجزائر سنة 1900م بدا واضحا جشع هذه الطبقة بالاستئثار بخيرات الجزائر واستغلالهم اللامحدود لكل ممتلكات الأهالي فسارع الضباط العسكريون في فصل الصحراء عن الإقليم التلي بموجب قانون 24 ديسمبر 1902م وتخصيص ميزانية مستقلة عن المناطق التلية بتسخير جميع الموارد التي تزخر بها الأقاليم الجنوبية في تدعيم ميزانية الحكومة الفرنسية، وإنجاز مشاريع تعود بالفائدة على المعمرين بهدف جذبهم نحو هذه الأقاليم الأقل تعدادا من حيث الجالية الأوروبية والفرنسية¹.

وبهدف جذب وتشجيع الهجرة والاستيطان الأوروبي نحو الأقاليم الجنوبية، اتخذت السلطات الفرنسية تدابير يمكن الحكم عليها بأنها تقليدية، فيما يخص ملكية الأرض وموضوع المياه، حيث أنه في سنة 1893 أصبحت الأراضي المشاعة تحت ملك الدولة، وشملت جميع الأراضي التي كانت في القديم -قبل حلول الاستعمار الفرنسي- يستفاد منها جميع الأهالي في الرعي والتنقل للبدو التي لم يحصلوا من الدولة إلا على حق الاستعمال في تلك المناطق²، وقد تعالت أصوات العديد من رجال الاقتصاد الأوروبيين الذين كان هدفهم الوحيد هو توسيع دائرة الاستعمار الاستيطاني واستغلال خيرات البلاد وتشكيل طبقة فرنسية برجوازية في الجزائر لديها الأحقية في كسر حاجز الضباط العسكريين في الجنوب³.

ففي سنة 1899 طرح رجل الاقتصاد الخيالي بول ليروا بوليو (P. LEROY. BEAULIEU) المشروع القاضي بإحياء واستصلاح الأراضي الفلاحية الموجودة حول السكك الحديدية العابرة للصحراء (الشط الشرقي والشط الغربي) لترضية

¹. G.G.A Exposé de la Situation Général des Territoires du Sud, 1903-1939, op.cit, pp01-19.

². أندي توشي وآخرون، المرجع السابق، ص.ص 399-400.

³. نظرا لتخوف المستوطنين من تطور نفوذ العسكريين خاصة بعد إنشاء الأقاليم الجنوبية، وقد توجسوا في بادئ الأمر من قانون 24 ديسمبر 1902، ولم يتفاعلوا معه خوفا من غلق باب الصحراء من طرف العسكريين على المعمرين ورجال الأعمال.

المضاربين في جهة وهران وقسنطينة، لكن هذا المشروع لم يتحقق في المنطقتين المذكورتين في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية إلا في منطقة تقرت شرقا ومنطقة قنادسة غربا¹.

ولتأمين الزراعة الصحراوية كان لزاما على السلطات الاستعمارية الفرنسية أن تأخذ على عاتقها مهام التنقيب على المياه وحفر الآبار الارتوازية في المناطق الجنوبية وخاصة في وادي ريغ والزيبان التي استغلت بشكل خطير مواردها المائية واستنزفت المدخرات في الأعماق الباطنية، فقد ارتفعت كميات المياه المستخرجة من 53.000 لتر/د سنة 1856 إلى 200.000 لتر/د سنة 1890 ثم ارتفعت إلى حوالي 278.000 لتر/د في سنة 1924، وكل هذه المياه استخرجت في حيز جغرافي ضيق لا يكاد يساوي 10% من المساحة التي كانت مخصصة لها سابقا، وهو ما أدى إلى تراجع منسوب المياه في الآبار الارتوازية بنسبة تفوق 10%².

وما يقال عن الجنوب الشرقي حدث الأمر نفسه في الجنوب الغربي، فقد تم حفر عدة آبار بالواحة التابعة لسيدي عمران بمنطقة وادي قير والتي تحصل بها السيد جولي ♦ (M.JOLY) سنة 1907 على استصلاح واحة نخيل، فقام بحفر فقارة تمكن الحصول منها على نحو 12,500 لتر/د ثم انتقلت إلى 17 لتر/د³، وفي سنة 1909 قامت الإدارة العسكرية بمنح الأحقية في حفر 6 آبار ارتوازية بعمق يصل إلى 155م إلى 200م، وقدرت المياه المستخرجة من مجموع الآبار نحو 18,480 لتر/د⁴.

وبالإمكان القول أن الاستغلال اللاعقلاني للمدخرات المائية الباطنية بالجنوب الجزائري من قبل سلطات الاحتلال ترتب عنه تراجع منسوب المياه في الآبار الارتوازية وبالتالي انكماش الاقتصاد الريفي المنتشر بالواحات خاصة في منطقتي

¹. أندي توشي وآخرون، المرجع السابق، ص.ص 400.

². G.G.A Exposé de la Situation des Territoires du Sud, 1903-1939, op.cit, pp352-364.

♦. السيد جولي: أحد ضباط البرية الصحراوية برتبة مساعد أول تحصل على التقاعد ومنحه الحاكم العام مساحة تفوق 10.000 هكتار، وقام بزراعة حوالي 10.000 نخلة وزرع 500 هكتار حبوب وحوالي 5 آلاف شجرة مثمرة. ينظر:

C. Meissner, op.cit, p47.

³. Ibidem.

⁴. G.G.A Exposé de la Situation des Territoires du Sud de l'Algérie, Présenté par M.C. Jonnart, Année 1909, Imp. Librairie, Edition, Alger, 1910, pp150-153.

توات وقورارة ووادي ريغ الذي يعتمد على إنتاج التمور كمادة أولية في التبادل التجاري الصحراوي. هذا ومنذ سنة 1901 اهتمت السلطات العسكرية بإقليم عين الصفراء بعمليات التنقيب على الموارد الباطنية، فبعد البحث الذي قام به السيد إيدر (M. EUDERS) بداية من سبتمبر 1901، تمكنت من الحصول على أحقية التنقيب على النحاس بضواحي بن حنجير (14 كلم غرب عين الصفراء) بقرار حكومي صادر في 25 جويلية 1904، ومن ثمّ أوكلت المهمة إلى الشركة الجزائرية الصناعية للنحاس والمعادن في 1 مارس 1905¹، فبعد هذا الإجراء سارعت العديد من الشركات الرأسمالية إلى البحث والتنقيب عن المعادن بالجنوب الغربي بهدف الحصول على امتيازات الإدارة العسكرية للظفر بحصة الأسد من هذه الثروات، فالجدول التالي يوضح عدد الشركات الاستغلالية بإقليم عين الصفراء ما بين (1904-1910)².

المنجم	نوع المعدن	الشركة المكلفة	البلدية	السنة
تيوت	النحاس	Barth élémy à Paris	عين الصفراء	-
عين السخونة	-	Detrave Say à Paris	-	-
تيورطلت	-	De Doissien à Paris	-	-
سفيشيفة	-	Girard Ain Sefra	-	-
عين الصفراء	-	Goyan Ain Sefra	-	1904
واد الناموس	-	Charbonnier Ain Sefra	-	1904
جبل مهاية	-	-	بني ونيف	1904

¹. G.G.A Exposé de la Situation des Territoires du Sud de l'Algérie, 2^{ème} Partie, l'œuvre Accomplie, 1 Janvier 1903-31 Décembre 1921, Présenté par M.Steeg (G.G.A), Imp. Librairie, Edition, pp325-330.

². C. Meissner, op.cit, pp100-101.

1905	مشرية	Ferouillata Lyon	-	النعام
1910/1907	عين الصفراء	Zamora Campy	-	مليد
1910	بني ونيف	Girandina à Beni Ounif	-	واد الكوفان
1906	بشار	C ^{er} Maktat el Hadid	الرصاص	سلطان البطوم
1908	-	Ladey à Saida	-	جبل عنتر
1910	بني ونيف	-	-	بويغلا
1910	عين الصفراء	Société Minière de SO	-	شبكة الشارف
1911	عين الصفراء	Brumaire et Riviere	وقود حيوي	عين ورقة
-	-	Braizat à Greyville	-	البيض

ونتيجة لأشغال التنقيب والبحث عن المعادن فإن السلطات الفرنسية تمكنت من الحصول على كميات ضخمة من الثروات الباطنية، خصوصا بمنجم الفحم الحجري بمنطقة القنادسة (بشار) والذي بدأت الأشغال به منذ 1906م بطاقة إنتاجية قدرها 2000 طن سنويا والتي شهدت ارتفاعا كبيرا خصوصا في فترة الحرب العالمية الثانية¹.

فقد بلغ الإنتاج سنة 1918 حوالي 4.379 طن ليصل في السنة الموالية نحو 6.847 طن وفي سنة 1921 حوالي 9.278 طن، فامتياز استغلال منجم الفحم بالقنادسة منح من قبل الحاكم العام لشركة مقطع الحديد التي بدورها أرسلت عينات من هذا الفحم للكشف عن نوعيته ومدى مطابقتها للمواصفات العالمية، وتوصل الأستاذين (M.P. POUGET ET MULIER) من كلية العلوم بجامعة الجزائر إلى أن الفحم القندوسي من النوعية الجيدة².

فالاستغلال غير العقلاني للثروات المعدنية دفع بالمستعمرين إلى زيادة إنتاج الفحم بقدر مضاعف وتطور الإنتاج خلال الحرب العالمية وما بين الحربين بشكل ملفت

¹. عميرايوي أحميدة وآخرون، المرجع السابق، ص137.

². G.G.A Exposé de la Situation des Territoires du Sud, Année 1916-1917-1918, op.cit, pp143-150.

للانتباه وهذا حسب الجدول التالي¹ الذي يكشف جزء من الاستغلال الاستعماري لثروات البلاد.

السنة	1922	1923	1924	1925	1926
الإنتاج بالطن	8.875	4.227	9.228	10.037	13.731

واستمر الاستغلال الفرنسي للمدخرات الباطنية دون التفكير في العواقب والنتائج الوخيمة التي ستصيب منطقة الجنوب الغربي، خصوصا بعد أن ظن الفرنسيون بأن الجزائر أصبحت ملكهم الخاص.

هذا ولم ينحصر الاستغلال الاستعماري على الثروات الباطنية فقط بل شملت كل الثروات التي تزخر بها المنطقة وخاصة نبات الحلفاء الذي شهد استنزافا لا مثيل له ومثل ثروة طائلة لدى العديد من الشركات الرأسمالية الفرنسية يأتي في مطلعها الشركة الفرنسية-الجزائرية التي تمكنت من الحصول على 700.000 هكتار من حقول الحلفاء، وبدأت صادرات الحلفاء ترتفع سنويا حسب الطلب في الأسواق العالمية دون مراعاة المخاطر التي يشكلها الاستغلال العشوائي وخاصة على قطاع تربية المواشي بالإقليم، وقد قدرت الكميات المرسلّة عبر ميناء وهران وأرزيو كالآتي²:

1904	73.000 طن	1909	57.000 طن
1905	75.000 طن	1910	76.000 طن
1906	85.000 طن	1911	88.000 طن
1907	87.000 طن	1912	97.000 طن

¹. G.G.A Exposé de la Situation des Territoires du Sud, 1903-1929, op.cit, pp380.

ويذكر أنه في سنة 1927 بلغت القدرة الإنتاجية حوالي 21.269 طن في حين قدر عدد العمال في جانفي 1928 نحو 449 عاملا مقسمين على الشكل الآتي:- رؤساء العمال والمشرفين على مكاتب التسيير 05.

- مهندسين تقنيين 12.
- عمال الورشات 26.
- المصنعين وغيرهم 55.

ينظر: المرجع نفسه، ص381.

². A.O.M Note sur l'Alfa, Rédigée par M.Laporte Conservateur de Eaux et Forêts à Oran, Pour Monsieur le Général Levé, Oran le 13 Mars 1915, p02.

1908 77.000 طن | 1913 94.000 طن

وقد قدرت الشحنات المرسلّة سنة 1913 نحو موانئ الغرب بـ:

- ميناء وهران حوالي 48.500 طن.

- ميناء أرزيو حوالي 45.500 طن.

وتعد إنجلترا هي المستورد الأكبر لمادة الحلفاء من الأسواق الفرنسية حيث قدرت وارداتها سنة 1913 بحوالي 3.947 طن سنة 1913¹، فهذا الاستغلال المفرط انعكس سلباً على الثروة الحيوانية التي تراجعت بنسبة 80% من أعدادها السابقة، بالإضافة إلى عوامل أخرى والتي أبرزها نظام العشابة التي فرضته السلطة الفرنسية على مربّي المواشي، فضلاً عن سنوات القحط والجفاف والأوبئة* التي كانت تعصف بالمنطقة بين الحين والآخر، مع عدم تجديد هذه الثروة تلاشت هي الأخرى بشكل تدريجي، فعلى سبيل المثال بعض التقارير تفيد أن الحميان الذين شملتهم ثورة بوعمامة لم يبق لهم سوى النصف من مواشيهـم قبل اندلاع الثورة². وقد استمرت السلطات العسكرية الفرنسية بإقليم عين الصفراء في الاستيلاء على الثروة الحيوانية خاصة بعد تمديد خطوط السكة الحديدية والتي بلغت إلى غاية دائرة بشار سنة 1905م وأضحت كل أسواق فرنسا وخاصة مرسيليا تتمون من أسواق منطقة الجنوب الوهراني، ولتتمين تراجع الثروة الحيوانية بإقليم عين الصفراء أدرج الجدول الآتي³:

السنوات المحطات	1905	1906	1907	1908	1909	1911	1912
بوقطب	22.813	27.479	35.825	11.995	16.591	24.107	18.860

¹. Ibid, p03.

* كانت تصيب القطعان العديد من الأمراض والأوبئة الدورية وقد وصفها السيد داغو (بيطري من دائرة مشرية وأستاذ بجامعة الجزائر من أصول يهودية)، بأنها سبب في تراجع القطعان، ومن بين هذه الأمراض: العضال (le Bouillottement) (Reuch Strongylose)، (Légale)، وغيرها. ينظر: C. Meissner, op.cit, pp192-193.

². Ouenard (Général), Monographie du Territoire d'Ain Sefra 1953, Dactylographiées (1953) 123p, A4 (Archives W.de Béchar), pp67-73.

³. C. Meissner, op.cit, p250.

9.661	15.145	6.047	20.753	11.310	23.761	12.903	مشربية
1.715	4.431	3.892	70	-	14.612	1.125	مكالييس
4.465	3.129	6.620	5.888	18.039	21.692	25.313	عين الصفراء
490	196	975	1.071	2.116	2.514	1.395	بني ونيف
2.845	2.030	6.660	6.544	6.341	2.561	-	بشار
-	-	-	457	277	691	503	محطات أخرى

والملاحظة التي يمكن أن نستخلصها من الجدول هي جشع السلطات الاستعمارية في استغلال الثروات الحيوانية لإقليم عين الصفراء باعتباره النشاط الوحيد الذي برع فيه سكان المنطقة منذ الأزمنة الغابرة، ومحاولة الفرنسيين إفقار السكان حتى يتسنى لها إخضاعهم ومن ثم استغلالهم في خدمة مشروعها الاستيطاني، ولن يتأتى ذلك إلا بإرهاق كاهلهم بالمزيد من الضرائب والغرامات، فكيف كانت وطأة الوعاء الضريبي بإقليم عين الصفراء؟.

- تحطيم الاقتصاد الأهلي:

لقد شهدت حركة القوافل التجارية انخفاضا مستمرا بعد سنة 1892م أي بعد إنشاء المراكز الجمركية وتمديد حدودها بالإقليم الجنوبي لعين الصفراء، بالإضافة إلى انتشار اللأمن والفوضى بسبب انتشار قطاع الطرق والقبائل اللصوصية، حيث انتشرت بمنطقة الجنوب الغربي ظاهرة تهريب السلع والبضائع نتيجة السياسة الاستعمارية القائمة على الاحتكار التجاري الفرنسي للبضائع والسلع الصحراوية¹، وهو الأمر الذي دفع بالفرنسيين إلى سن عملية الحجز الاقتصادي للبضائع وبيعها في المزاد العلني، خصوصا بعد أن أمر الحاكم العام بإنشاء شرطة الحدود في 06 ديسمبر 1907م وأمرها بتشديد الرقابة على المناطق الحدودية الشرقية والغربية ومعاقبة كل المخالفين من الأهالي².

هذا وبعد هذه الإجراءات شهدت حركة القوافل تذبذبا واضحا، ففي سنة 1907 قدرت عدد الإبل التي اتجهت نحو الجنوب حوالي 7.783 فقط، وتمكنت من تحقيق أرباح تراوحت ما بين 42 و 23 فرنك للجمل الواحد، بينما في سنتي

¹. C. Meissner, op.cit, p74.

². M.Dal Bouse (Inspecteur des Douanes à Alger), Cours d'Instruction Préparatoire (les Douanes), op.cit, pp13-29.

1908-1909 فقد بلغت عدد الإبل المتجهة إلى الصحراء نحو 2.618 فقط محققة أرباحاً تراوحت ما بين 46 و 36 فرنك للجمل الواحد¹. فالسياسة الفرنسية كانت تسعى دائماً إلى عرقلة القوافل الصحراوية، ومحاولة تفكيكها وإعاقتها بغرض إضعاف التبادل التجاري بين الأهالي ومحاولة استغلاله لخدمة مصالحها وترويج منتجاتها في المناطق الاستعمارية التابعة لنفوذها، وإيجاد سبل لمضاعفة مداخيل ميزانيتها بالجنوب. لذلك اتبعت نفس السياسة في استنزاف واستغلال جميع ثروات البلاد دون هوادة، وقد سخرت كل طاقاتها بهدف الاستحواذ على ممتلكات الأهالي بالجنوب، فكيف تم ذلك؟ هذا ما سنتطرق له في المبحث الثاني.

- النتائج الاجتماعية:

- انتشار الفقر: تعود الأسباب الحقيقية لانتشار الفقر والبؤس والحرمان في أوساط الأهالي إلى السياسة الفرنسية القائمة على مصادرة الأراضي وتجريد السكان من أراضيهم وممتلكاتهم بفعل التشريعات العقارية الفرنسية التي أدخلت بالنظام القديم لسكان الجنوب، والذي كان قائماً على المنفعة الجماعية للأراضي، فهذه السياسة المتبعة قد دمرت القطاع الاقتصادي الأهلي القائم على الرعي وتربية الماشية، ناهيك عن الزراعة التي مارسها سكان القصور بالجنوب الوهراني فعلى سبيل المثال يذكر منسي² (MEISSNER) "أنه قبل الاحتلال الفرنسي كان العمور بمنطقة عين الصفراء يزرعون القمح والشعير في الأراضي الخصبة الواقعة بضواحي أولقاق، عين رحو، عين معذر، الأحمر وواد الحلوف وفندي وبدرمل إلا أنهم انقطعوا تماماً عن زراعتها بعد التوسع الفرنسي"².

وهو نفس الأمر الذي حدث لقبيلة أولاد سيدي التاج، حيث قامت الإدارة الاستعمارية بمصادرة وحجز ممتلكاتهم إثر مشاركتهم في ثورة بوعمامة سنة

¹ G.G.A Exposé de la Situation des Territoires du Sud, 1903-1929, op.cit, pp391-397.

♦. النقيب منسي: أحد ضباط الشؤون الأهلية ورئيس مكتب المحاسبة للوحدات الصحراوية وبعد إلحاحه على السيد قائد إقليم عين الصفراء الجنرال لوفي (G. Levé) على كتابة هذه المنوغرافية، فقد سمح له بممارسة عملية البحث وسخر له كل المصالح من أجل تسهيل عملية البحث والاقتناء التي استغرقت حوالي سنتين، والتي يمكن القول بأنها أحسن عمل وضع فيه جميع الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بالإقليم.

² C. Meissner, op.cit, p110.

1881م، حينما منعتهم من الزراعة بواحة الحجاج التي أخذ منها جزء كبير لاستخدامه في طريق السكة الحديدية الرابطة ما بين عين الصفراء وجنين بورزق، وألحق الجزء الآخر لدومين الدولة¹.

نتيجة هذه الإجراءات من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي انخفض نصيب الفرد الجزائري من الحبوب والذي انتقل من 5.9 قنطار للفرد الواحد سنة 1870 إلى 4.9 قنطار للفرد الواحد سنة 1911 ليصل إلى 2.8 قنطار سنة 1936م². وبالمقابل لنقص متوسط نصيب الفرد الجزائري من الحبوب وتقلص المساحات الزراعية في قطاع المسلمين، فإن المساحة الزراعية للمعمرين باتت تتسع بشكل ملفت للانتباه، والتي كان يستغلها المعمرين في الزراعات التجارية النقدية كالتبغ والقطن والحمضيات بالإضافة إلى الكروم.

فالجدول التالي يوضح جزء من التطور السريع الذي مس مساحات قطاع المعمرين الزراعي³.

السنة	1850	1870	1880	1890	1900	1920
المساحة بالهكتار	115.000	765.000	1.245.000	1.635.000	1.912.000	2.581.000

فيما ظلت المساحات الزراعية للفلاحين الجزائريين تزداد انكماشاً بفعل قوانين الملكية وتجزئة الأراضي والمصادرة لأجل المنفعة العامة بالإقليم التالي، فإن فقدان العديد من المراعي وأراضي التجوال بإقليمي الهضاب العليا والأطلس الصحراوي أدى هو الآخر إلى انخفاض عدد رؤوس الماشية بالإقليم العسكري لعين الصفراء، حيث انتقلت عدد رؤوس الأغنام من 110.000 رأس سنة 1897م إلى 60.000 رأس سنة 1898م بدائرة مشرية، أما بدائرة جرفيل (البيض) فقد بلغ رؤوس الأغنام سنة 1900م حوالي 190.000 ليرتفع سنة 1901 إلى نحو 360.000 رأس لكن سرعان ما انخفض العدد لمبلغ 220.000 رأس، أما عدد رؤوس الإبل فقد قدرت سنة 1893م بالدوائر الثلاثة حوالي 45.945 رأس، لتتخفض سنة 1900 إلى 32.437 رأس ثم 29.610 رأس سنة 1901م ثم

¹. De la Martinière et N. Lacroix, op.cit, pp347-348.

². عدة بن داهة، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1962)، ج2، طبع وزارة المجاهدين، الجزائر، 2008، ص 11.

³. Benjamin Stora, Histoire de l'Algérie Coloniale 1830-1954, E.N.A.L, Alger, 1996, p48.

27.212 رأس سنة 1904م (فقد قدرت بدائرة مشرية وحدها سنة 1893 حوالي 16.482 رأس لتتخفص سنة 1900 إلى 9.045 رأس فقط وبدائرة جرفيل التي قدرت بها عدد الإبل نحو 27.624 رأس سنة 1893م لتتخفص إلى 19.568 رأس سنة 1901م)¹.

وإن كان الاستعمار الفرنسي يرجع أسباب فقر أهالي الجنوب الغربي، إلى ضعف خصوبة الأراضي الفلاحية بالمنطقة وقلة مردود الهكتار والاعتماد على الوسائل التقليدية، فإن الواقع يثبت أن الفقر الذي أصاب الأقاليم الجنوبية خاصة مرده إلى عوامل منها استمرار الكولون في ابتلاع المزيد من الأراضي الخصبة وتقلص الأراضي الزراعية والرعية وانخفاض إنتاج الحبوب بنحو 20% أمام تضاعف عدد السكان بالجزائر.

لقد كان للسياسة الفرنسية التي تركت بصماتها في كل مجالات الحياة أسوء الأثر على الحياة الاقتصادية الزراعية وعلى ظروف الفلاحين والموالين المعاشية، فالسنوات الصعبة اضطرت العديد من قبائل المنطقة إلى بيع أغنامهم بأسعار زهيدة مقابل اقتناء الحبوب التي ارتفعت أسعارها بصفة خيالية².

ففي سنتي 1906-1906 تعرضت دائرة مشرية وملحقة عين الصفراء إلى نكبة أصابت قطعان الماشية التي تضاعلت بنحو 10/1 من عددها السابق بسبب قساوة الشتاء وسقوط الثلوج الكثيفة وجفاف فصل الخريف خاصة شهري أكتوبر ونوفمبر بالإضافة إلى ارتفاع أسعار الحبوب، أجبر المربيين إلى بيع عدد كبير من قطعان الماشية إلى الشركة الفرنسية للضأنات (SOCIETE MOUTONNIERE) وبأسعار زهيدة قدرت بدائرة مشرية ما بين 15 فرنك إلى

¹. C. Meissner, op.cit, pp187-203.

². ففي عين الصفراء مثلاً قدر سعر القمح سنة 1906 بـ 27 فرنك للقطار ليرتفع سنة 1909 إلى 32.80 فرنك فيما قدر سعر الأغنام سنة 1906 بـ 12 فرنك للرأس وسنة 1910 بـ 14 فرنك للرأس فقط.

أما بالبليز فقد بلغ سعر الشعير نحو 30 فرنك سنة 1908 و 32.10 فرنك سنة 1912م، بينما بلغ سعر الصوف سنة 1906 بـ 1.15 فرنك لينزل سنة 1904 إلى 0.65 فرنك للقطار الواحد. ينظر: G.G.A Exposé de la Situation Général des Territoires du Sud, 1903-1939, op.cit, pp106-136.

25 فرنك للرأس، أما بالعين الصفراء فالشركة كانت سيدة السوق أجبرت الأهالي ببيع قطعانهم بأسعار لا يتجاوز متوسطها 10.80 فرنك للرأس¹. بينما في أقصى الجنوب وبالأخص في واحتي توات-قورارة فقد بلغ الفقر والحرمان أقصى حدوده حيث أصيبت هذه المناطق بجفاف حاد أدى إلى ارتفاع أسعار الحبوب ونفاذها، ولم يسلم حتى منتوج التمور الذي أصيب هو الآخر بخسارة فادحة فحدثت مجاعة قاسية بالمنطقة، الأمر الذي دفع بالقائد الأعلى لإقليم عين الصفراء اتخاذ تدابير أمنية مشددة لحماية قوافل الحميان والعمور والترافي المتجهة نحو توات-قورارة لتزويدها بكميات ضخمة من الحبوب والمنتجات الفلاحية والحيوانية²، لكن الأزمة استمرت بشكل حاد حتى لجأت السلطة المحلية إلى إنشاء ورشات ♦ لأعمال السخرة مقابل تقديم كميات من القمح كأجر للعمل المنجز خلال اليوم.

وقد استغلت الشركة الأهلية للاحتياط فقر وبؤس أهالي توات-قورارة بشكل خاص لتقديم سلفات وقروض للأهالي من أجل شراء الإبل وإعادة تطويرها وسلفة أيضا لأصحاب الحرف وخاصة صناعة الدوكالي وكذلك تقديم دعم للتجار المحليين لإعادة إحياء التعاملات التجارية مع تيديكالت والجنوب، ونتيجة لهذا تمكنت الشركة الأهلية (S.I.P) سنة 1912 أن تمتلك ما يلي³:

2.199 ديكاليتير مضاعف من القمح.

1.405 ديكاليتير مضاعف من الشعير.

5.898 ديكاليتير مضاعف من التمر.

كما استطاعت الحصول على مخازن واسعة وجيدة من شأنها أن تطور من مخزون الشركة مستقبلا ونتيجة للمصادرة والحجز، وتطبيق القوانين العقارية الجائرة على أراضي العرش والملكيات المشاعة بالإقليم الجنوبي، إضافة إلى

¹. G.G.A Exposé de la Situation du Territoire du Sud de l'Algérie, Présenté par C. Jownart, Année 1907, Imp. Administrative Victor Heintz, Alger, 1908, pp46-51.

². Ibid, pp17-31.

♦. نظرا للوضعية المزرية التي بلغها الأهالي بمنطقة الجنوب استغلت السلطات العسكرية وقامت بإنشاء العديد من المعامل التي تعود بالمنفعة على الاقتصاد الفرنسي، كفتح دار الأيتام بالقولبة سنة 1921 والتي ستوظف هؤلاء الصبيان في أشغال استصلاح الأراضي وتهيئة المراكز الاستيطانية ومشغل الصوف بعين الصفراء الذي أنشأ سنة 1927. ينظر:

G.G.A Exposé de la Situation Territoire Sud de 1903-1929, pp191-200.

³. C. Meissner, op.cit, p281.

الكوارث الطبيعية (الجفاف-الجراد) وتعدد الضرائب التي بلغت خمسة عشر نوعا يؤديها الفلاح الجزائري لإدارة الاحتلال.

انتهى الأمر بالأهالي المرتبطة حياتهم بالأرض إلى التحول لأجراد وخماسين، حيث بلغت نسبة الأجراد العاملين بمزارع الكولون 42.2% من مجموع سكان الريف سنة 1905 لترتفع هذه النسبة إلى 45.7% سنة 1914م¹.

فبعد أن تجرد الجزائري من أملاكه أصبح يعمل كمحاصصين وأجيرير يومي عند المعمرين ضمن حقول الحلفاء المنتشرة في كامل إقليم عين الصفراء، وبأسعار زهيدة لا يمكنها أن توفر حتى الحاجيات الضرورية واليومية للمواطن، فقد كان يدفع للشخص البالغ الذي يقوم بالعمل لمدة تتراوح ما بين 8 ساعات إلى 13 ساعة في حصاد الحلفاء ونقلها إلى المحطات يدفع له ما بين 01 فرنك إلى 02 فرنك للقطار وبمتوسط سعر 1.50 فرنك، بينما يتحصل العمال الأوروبيين على مبالغ مغرية²، فيما أقحمت النساء وحتى الأطفال للعمل بالورشات طوال الفترة الصباحية مقابل فرنك واحد، بينما لا يتقاضى الأطفال سوى 0.75 فرنك.

ونظرا للفقر المدقع الذي مس قبيلة العمور ♦ بعدما هاجرت إلى المغرب وجردت من جميع أملاكها، تمكنت من العودة في فيفري 1890 والإقامة بشمال الشط والتي قدر عددها بنحو 1.740 شخص دفعتهم الحاجة إلى العمل كمحاصصين في ورشات الحلفاء، حيثما فقدوا الأمل في إعادة تأسيس قطعانهم التي جردهم منها الاستعمار الفرنسي³.

- **هدم البنية الاجتماعية:** قبل الحديث عن الآثار السلبية التي أصابت المجتمع الجزائري بالجنوب نود الإشارة إلى طبيعة هذا المجتمع الذي يمثل وحدة متناسقة من خلال التشكيلات الاجتماعية التي يتكون منها، وكذلك تنوع مصادره الثقافية والدينية العريقة، فالجنوب الغربي عموما يضم قبائل كثيرة

¹. عدة بن داهة، مرجع سابق، ص 23.

². C. Meissner, op.cit, pp158-159.

♦. أيضا أولاد الشحامي (قبيلة العمور) عانت كثيرا من ويلات الاستعمار، والتي تم تهجيرها واعتقالها بدائرة أفلو، وبعد أن صودرت جميع ممتلكاتها وثرواتها الحيوانية وجدت في أواخر 1889 بحالة مزرية، مما دفع بالسلطات الاستعمارية إلى إرسال عدد كبير من هذه القبيلة إلى دائرة سعيدة للعمل بورشات الحلفاء لسد حاجياتهم اليومية. ينظر:

De la Martinière et Lacroix, op.cit, pp312-313.

³. M. Mathieu, D.Trabut, op.cit, p33.

منتشرة عبر كل أقاليم الجنوب، ومن بين هذه القبائل نذكر على سبيل المثال لا الحصر: الحميان، العمور، قبائل دوي منيع، أولاد جرير، أولاد سيدي الشيخ وغيرها، تخضع هذه القبائل بدورها إلى شيخ القبيلة الذي يمثل السلطة الروحية والزمنية داخل النسيج الاجتماعي.

والملفت للانتباه هو سيطرة الطابع الروحي العقائدي على المجتمع الصحراوي، حيث تعددت انتماءات أفراد الروحية إلى الطرق الصوفية والزوايا التي كانت منتشرة في الجنوب الوهراني¹.

هذا وقد ارتبطت هذه القبائل فيما بينها بروابط المصاهرة أو الانتماء الروحي مع تسجيل بعض الخصومات والنزاعات التي كانت تنشأ بين الفينة والأخرى فيما بين القبائل الرحل والسكان المقيمين بالواحات والقصور، خصوصا ذلك النزاع القائم ما بين دوي منيع وأولاد جرير والحميان وسكان مدينة ورقلة، لأن هذه القبيلة كانت تقوم بين الحين والآخر بالهجوم وقت جني الثمر وتستولي على كم هائل منها، ونظرا لشدة بأس هذه القبيلة اضطر السكان إلى مهادنة قوات الاحتلال الفرنسي مقابل توفير الأمن لهم².

إن هذه التركيبة المتماسكة لمجتمع الجنوب الغربي، لم تكن في صالح عملية التوسع الفرنسي بهذه المنطقة، بل ساهمت إلى حد بعيد في تأخير هذه العملية عشرات السنين والأدل على ذلك هو عدم تمكن القرات الفرنسية من فرض سيطرتها المطلقة على الصحراء الجزائرية وهي في عز قوتها العسكرية، وأمام هذا التماسك والتضامن الجزائري اتبعت فرنسا أثناء عملية توسيعها أساليب متعددة، أسهمت إلى حد ما في زعزعت النظام القبلي ويأتي في مقدمتها ملكية الأرض التي اهتمت بها الإدارة العسكرية ووجهت ضغطها صوب المجتمع

¹ من بين الطرق الصوفية: نذكر الشاذلية والرحمانية، الكرزاوية والشيخية، الطيبية والحنصالية، والقادرية والزبانية التيجانية اليوسفية، العمامية والسنوسية... الخ، وللمزيد من المعلومات حول هذا العنصر يراجع الدراسة القيمة التي أنجزها د. يحيى بوعزيز في كتابه مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ص.ص 127-144.

² عميراي أحمدية، زاوية سليم، قاصري محمد السعيد، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844-1916)، دار الهدى، الجزائر، 2010، ص.ص 144-145. وينظر كذلك: عميراي أحمدية، فواصل من الفكر والتاريخ، دار البعث، قسنطينة، 2002، ص 128.

الريفي عن طريق سن قوانين وتشريعات ♦ تكسبها الشرعية انتزاع الأراضي الزراعية من أصحابها وتجريدهم منها.

ومن ثم وجد المستوطنين أنفسهم يمتلكون أجود الأراضي الزراعية التي تحول ملاكها الحقيقيون طوع تصرف الكولون، وهكذا ساهمت هذه القوانين الجائرة في انهيار النظام القبلي، فكانت بمثابة الضربة القاصمة التي كسرت شوكتها وتحالفها، فلم تعد للقبيلة وظيفتها السابقة وبالتالي آلت عملية التنسيق بين الأشكال الثلاثة للعنف التي كانت السلطة العسكرية الفرنسية تدير وفقها في الجزائر (عنف السلاح، عنف القوانين، عنف الاقتصاد) إلى إفقار المجتمع الجزائري وتفكيكه ومن ثم سهولة اختراقه وبث النزاعات داخل أفرادها¹.

فقد تمكنت السلطات من جراء تطبيق القرار المشيخي على أراضي الجنوب الوهراني من انتشار عدد كبير من الدواوير، وذلك على حساب تفكيك القبائل، ومن الأمثلة على ذلك، فقد أخضعت قبيلة ارباوات التي تتربع على مساحة قدرها 141.723 هكتار والتي عمدت السلطات العسكرية بإقليم عين الصفراء إلى تحديدها منذ 1892م إلى غاية 1906م، غير أن هذا التقسيم لم يكن في صالح الإدارة الاستعمارية وأجل إلى غاية 31 أوت 1923 والتي بموجبها قسمت قبائل ارباوات إلى ثلاث دواوير²، كما أخضعت قبائل الأغواط الكسل بطلب من القائد العسكري لإقليم عين الصفراء بتحديد وتقسيم منطقة قدرها 500.000 هكتار التي تشغلها قبيلة الأغواط الكسل بالإقليم والتي بموجبها قسمت إلى خمس دواوير سنة 1899 من قبل لجنة الإدارة لتطبيق القرار المشيخي (1893)، وبموجبه قسمت إلى دوار ستين الرزيقات، أولاد مومن، أولاد عيسى وأولاد عمران (القراريج) بالإضافة إلى دوار الغاسول³.

♦ طبق قانون سيناتوس كونسلت حصريا في إقليم عين الصفراء، رغم التعديلات التي مسته لأن هذا القانون يخدم سلطات الاحتلال أكثر بالمناطق الصحراوية لأن معالم الحدود لم تكن واضحة بهذه الأراضي الشاسعة، وهو الأمر الذي أثار العديد من القبائل بعد تقسيمها إلى دواوير وقامت ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864 ولم تنتهي إلا في سنة 1908 بعد وفاة الشيخ بوعمامة.

¹. Abdullah Laroui, l'Histoire du Maghreb, Tome II, Paris, 1976, p72.

². G.G.A Exposé de la Situation Générale des Territoires du Sud, Année 1903-1929, op.cit, pp456-457.

³. Ibidem.

فبتفكيكها للقبيلة تكون فرنسا قد حطمت البنية الاجتماعية للشعب الجزائري وضربت وحدته بشكل مباشر لأنها كرسّت عملية تمزيق الروح الجماعية التي ألفها المجتمع الجزائري منذ زمن بعيد، ولم تتوقف عند هذا الحد بل قامت وفق سياستها الخبيثة إلى إثارة النزاع والشقاق وإدكاء الصراع فيما بين القبائل بالجنوب الغربي وخاصة الأسر الكبيرة، كذلك النزاع الذي كان قائماً بين أولاد سيدي الشيخ حينما انقسموا إلى فرعين الشراقة والغرابية[♦].

وبمقتضى معاهدة لالة مغنية 18 مارس 1845 المتعلقة بتحديد الحدود، فقد انحاز فرع الغرابية إلى التراب المغربي، أما فرع الشراقة من أولاد سيدي الشيخ فانضوا على مضمّن تحت السلطة الاستعمارية الفرنسية التي حاولت أن تجعل منهم وسيلة لتوسّعها في الجنوب حينما عينت سي حمزة ولد أبي بكر خليفة على الجنوب الجزائري¹.

وقد ساهم الخليفة حمزة في تهدئة المنطقة التابعة له وحصل على استسلام قبائل الناحية له (أي لفرنسا)، ومن بين هذه الخدمات التي قدمها هو وابنه بوبكر في بداية الستينيات هو احتلال المنيعة باسم فرنسا سنة 1861 بأمر من الحاكم العام بيليسيه، أما ابنه بوبكر فهو الذي قبض على الشريف إبراهيم (شريف ورقلة) سنة 1861 وسلمه للفرنسيين وسجنوه حتى مات في سجنه، وحرصت السلطة الفرنسية على أن يمهد لهم سي حمزة الطريق للدخول إلى منطقة توات ومراقبة الطرق التجارية الصحراوية.

لكن تورط الخليفة حمزة مع شريف ورقلة الذي اتهمه بالتواطؤ مع الثوار جعل الفرنسيين يحددون إقامته الجبرية بوهران، دون إعلامه، ثم مات بين أيديهم في إقامته الجبرية².

♦. كان ذلك بداية تلاعب السلطات الفرنسية بمصير العائلة الواحدة ذات النسب الشريف، ففي فيفري 1849 ثار أولاد سيدي الشيخ الشراقة بقيادة الشيخ ابن الطيب، غير أن الاتفاق الذي حدث بين المغرب وفرنسا أنهى الثورة بعد شهور قليلة وهذا حسب ما نقلته جريدة الميشر الصادرة في 15 أوت و 15 سبتمبر 1849. نقلا عن: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1860-1900)، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص181.

¹. F.Gourgeot, Situation Politique de l'Algérie, op.cit, pp11-18.

². أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص.ص182-183.

وبعدها اندلعت ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864م، والتي من أسبابها نزاع معظم صلاحيات حلفائه وتخفيض ألقابهم، بالإضافة إلى مرسوم سيناتوس كونسلت 1863 القاضي بتحديد الأراضي ومن ثم انتزاعها وتقديمها للكلون. وتمكنت السلطات الفرنسية أيضا أن تضرب قبيلة أولاد سيدي الشيخ بعنف وتفكك أو اصرها خصوصا أثناء ثورة الشيخ بوعمامة التي نجحت في بدايتها (1881-1882) وحقق خلالها بوعمامة انتصارات هامة على الفرنسيين إلا أنه فشل في السيطرة على عائلة أولاد سيدي الشيخ وتوحيدها تحت لوائه، وإثرها انتقل أبي عمامة من المغرب نحو دلدول بقورارة، وبناءا عليه انضم أتباعه إلى زعماء أولاد سيدي الشيخ الآخرين سواء الغرابة أو الشراقة، فانضم البعض إلى سي سليمان بن قدور، والبعض الآخر إلى قدور بن حمزة، وقد لجأ الفرنسيون إلى الحصول على خضوع هذين الزعيمين بوسائل سلمية بدل الحرب¹.

دخل الفرنسيون في مفاوضات كما خططوا له مع سي سليمان بن قدور الذي وافق مبدئيا على إنهاء حالة الحرب، ورجع إلى الجزائر ووعد الفرنسيين بقيادة كبيرة، ثم توجهوا للتفاوض مع سي قدور بن حمزة المتواجد أيضا بالمغرب والذي سمي باتفاق ماي 1889[♦]، ومحتواه أن على فرنسا أن تعيد بناء زاوية البيض أو قبة سيدي الشيخ التي هدمها الضابط نيقرييه سنة 1881، وأن تمنح بقدور بن حمزة وعائلته راتبا شهريا قدره 60.000 فرنك².

وبناءا على ذلك رجع سي قدور إلى أملاكه في دائرة البيض ولكنه لم يقترب بتاتا من المراكز الفرنسية لعدم وثوقه بهم، ولم يخضع سي قدور للسلطات الفرنسية إلا في سنة 1892م حين التقى بالحاكم العام جول كاميون بالمنيعه، وقد جرت بين الطرفين مفاوضات بموجبها أعلن السي قدور خلالها استسلامه وولائه

¹. عبد القادر خليفي، المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص.ص 99-130.

[♦]. فرق الفرنسيون بين الشراقة والغرابة باتفاق 1883 لعزل ثورة بوعمامة، وهو من الغرابة، والاستفادة من الشراقة في احتلال الصحراء، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك كل النجاح، لأن قدور بن حمزة وسي الأعلى لم يخضعوا إلا في سنة 1892م.
ينظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 207.

². De La Martinière et Lacroix, op.cit, pp290-302.

للفرنسيين، وهو ما اعتبره المؤرخون العلامة الأخيرة على سقوط العائلات الأرستقراطية العربية على يد الفرنسيين¹.

ففي بداية سنة 1900م فقد أولاد سيدي الشيخ مكانتهم الدينية والروحية بين أتباعهم من قبائل الجنوب الغربي والصحراء عامة، خصوصاً بعد أن فقدوا زعامتهم التقليدية، وتوجهوا إلى تولي الوظائف السياسية لدى الاستعمار وزواجهم من الفرنسيات وإحاطة الفرنسيين بهم بعد أن وضعوا مخططاتهم لاحتلال المغرب الأقصى، وإنشاء خطوط السكة الحديدية.

وبالإمكان القول أن الشيخية كانت من أوائل الطرق الصوفية التي خسرت موقعها الديني من أجل مكانتها الدنيوية، ونتيجة لهذا فقد فضلت العديد من القبائل بمنطقة الجنوب الغربي الهجرة نحو المملكة المغربية والابتعاد عن المناطق التي دنسها المسيحيون النجس على حسب تعبيرهم، وهنا نتساءل كيف كانت هذه الهجرة؟ وما أسبابها وتطوراتها؟ وما موقف الحكومتين إزاء هذه الهجرات؟.

- **هجرة السكان:** منذ الأزمنة الغابرة ظل الإنسان الصحراوي متمسكاً بأرضه، ووطنه رغم الظروف الطبيعية القاسية، التي تكيف معها وتمكن أن يقاوم جميع الصعوبات ويبني اقتصاداً ناجحاً، ويؤلف جماعات من البدو والقصور التي تمثل قطعة فسيفسائية متناسقة، ولكن مع امتداد التوسع الفرنسي نحو الجنوب وممارسته لأبشع وسائل القمع والحرمان والاضطهاد والتقتيل الجماعي. لهذا وجدت قبائل الجنوب الغربي نفسها مجبرة أمام أربعة خيارات أحلاهما مر، ألا وهي:

- 1- الاستسلام للإدارة العسكرية الفرنسية والاعتراف بالتوسع الفرنسي عن طريق عقد العديد من المعاهدات والاتفاقيات.
- 2- مقاومة الاحتلال الفرنسي والاعتراف بحياة الحل والترحال للاحتواء من بطش العدو الفرنسي كما فعلت الكثير من قبائل إقليم عين الصفراء[♦].

¹. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 214.

[♦]. من القبائل التي رفضت التوسع الفرنسي منذ البداية، أي منذ سنة 1847م بمنطقة الجنوب الوهراني هي قبيلة أولاد عبد الله من العمور ويعد محمد ولد علي قائدها العسكري، حيث التجأ بجموع من الخيام نحو جبل بني سمير الواقع بمحاذاة طريق عين الصفراء-فيقيق، وقد قاوم الاستعمار الفرنسي مدة 53 سنة، إلا أنه تم القضاء عليه من طرف الفرنسيين سنة 1900 بقيادة الكولونيل بيلي (Billet). ينظر:

- 3- موالاة الفرنسيين والتعاون معهم ضد إخوانهم من الجزائريين وهو الأمر الذي أقدمت عليه العديد من الأسر والعائلات الأرستقراطية الكبيرة¹.
- 4- وأخيرا الهجرة خارج التراب الوطني بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وفقدان العديد من القبائل والعائلات لممتلكاتهم، إما بالمصادرة أو بالحجز هذا من جهة، أو بالسطو والظروف المناخية والطبيعية التي ضربت المنطقة لسنوات عديدة من جهة أخرى.
- فالهجرة التي حدثت بالإقليم الجنوبي لم تكن إرادية وإنما أجبرت بعض الأسر والعائلات إلى مغادرة أراضيها صبا والتوجه نحو الأقطار المجاورة كالمغرب وتونس وبعض الدول الإفريقية.
- ويمكننا أن نعتبر سنة 1849م هي الفترة التي صادفت حملة الجنرال بيليسي (PELISSIER) على منطقة قصور الجنوب الوهراني كبداية لهجرة القبائل الجزائرية نحو المغرب الأقصى لأن في مطلع هذه السنة أضحى أمر اضطهاد القوات الاستعمارية لأهالي الأقاليم الجنوبية حقيقة ساطعة، فبعد تعيين الجنرال لامورسيار (G. LA MORICIERE) قائد عام لمقاطعة وهران شرع يفكر في احتلال مناطق الجنوب، وأوكل المهمة في البداية إلى الكولونيل جيرى (COLONEL GERY) قائد شعبة معسكر للقيام بحملة ضد منطقة البيض وإخضاع قبائل أولاد سيدي الشيخ² إذ بدت واضحة نوايا الفرنسيين الخبيثة وحقدهم على الجزائريين. لما أثقلوا كاهل الأهالي بالضرائب وقمعوا بيد من حديد كل التمردات التي قامت ضدهم.
- وقد ارتكب العديد من الضباط الذين أوكلت لهم مهمة احتلال الجنوب الوهراني منذ 1845م إلى غاية سقوطه بيدهم، أرذل الجرائم وأبشع الفضائح وسلطت عليه كل أنواع التعسف والاضطهاد، الأمر الذي دفع بهم إلى ترك ديارهم وأهلهم وذويهم بحثا عن ملجأ آمن ومن الطبيعي أن تتجه أنظار قبائل الجنوب الذين كانوا يفكرون في الهجرة إلى المملكة المغربية نظرا لعدة اعتبارات خاصة منها قربها

Risbourg (Général), Note de 09/09/1900, Ain Sefra de l'opération de Beni Smir, Manuscrite 4 pages

¹. وبخصوص هذا الشأن يذكر الدكتور: أبو القاسم عبد الله في كتابه الحركة الوطنية، الجزء الأول، تفاصيل كثيرة، ينظر عنصر الزعامات المدجنة، صص 179-216.

². De La Martinière et Lacroix, op.cit, pp73-78.

من الحدود بالمنطقة وارتباطهم الشديد بالعلاقات التجارية والاقتصادية قبل 1830م بل وكانت تربط بينهم علاقات مصاهرة قوية¹.

أما عن أسباب الهجرة نحو المغرب خلال فترة التوسع الفرنسي بإقليم عين الصفراء فيمكن حصرها في عدة عوامل أهمها العامل الديني والسياسي والاقتصادي ولعل أهم:

1- رفض العديد من قبائل المنطقة وخاصة أولاد سيدي الشيخ، الحميان، العمور الخضوع كرها لقوات الاحتلال والاعتراف بتوسعاتها وإدارتها بالجزائر، ومعارضتهم الشديدة لتدنيس الفرنسيين لمقدسات الجزائريين في الشمال.

2- التضييق الذي مارسه السلطات العسكرية الفرنسية على قبائل الجنوب الغربي عن طريق إبعاد ونفي رجال الدين من أولاد سيدي الشيخ وتفكيك القبائل وإعادة تنظيمها ♦ مثل ما حدث مع قبائل الحميان التي تعرضت لشتى أنواع الضغط والإذلال وأبعد العديد من أفرادها، إما نحو التل بمنطقة سيدي بلعباس وعين تموشنت ومعسكر، فيما هاجر البعض الآخر إلى المغرب.

3- عدم استقرار منطقة القصور بالجنوب الوهراني، حيث دخلت العديد من القبائل في صراعات دائمة ومستمرة بفعل السياسة الاستعمارية التي تمكنت من إذكاء روح التفرقة والتفكك داخل القبائل، حيث انقسم الأهالي إلى قسمين، جزء فضل الانضواء تحت راية الإدارة الفرنسية وجزء آخر قرر محاربة الأعداء ورفض توسعهم بالمنطقة، فحدثت بين الطرفين نزاعات طويلة والتي تحولت

¹. خاصة عائلة أولاد سيدي الشيخ، حيث أنه في سنة 1844 وقع اختيار السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان على السيدة الياقوتة شقيقة سي حمزة وتزوجها، وكذلك ارتبط العديد من قبائل عين الصفراء وتزوجها خاصة من نساء فيقيق وبوعرفة الحدوديتين وكذلك الباش آغا سي الخلافي تزوج من امرأة فيقيقية. ينظر: إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص29.

♦ من بين التنظيمات التي مست قبيلة الحميان، التنظيم الذي أقره وزير الحربية في 17 أوت 1857 المارشال فيلون والذي ألحق فيما بعد قبيلة أولاد سيدي أحمد المجذوب بالجلمبة (حميان) سنة 1876، ثم مقترح الجنرال شانزي.

H. Noel, Documents Pour servir à l'Histoire des Hamyan, op.cit, pp48-85.

إلى عداوة مع مرور الزمن خاصة ما حدث بين قبائل الحميان وبني غيل وأولاد جرير ودوي منيع الرافضة للتوسع الفرنسي¹.
4- الأزمات الاقتصادية الحادة التي تعرضت لها المنطقة الجنوبية، خاصة مجاعة (1867-1868) بسبب الجفاف وقلة محاصيل الزراعة إضافة إلى اجتياح الجراد ومصادرة الإدارة الاستعمارية لممتلكات وثروات القبائل وقطع علاقاتهم التجارية بالبلدان المجاورة خصوصا بعد إجراءات الرقابة الجمركية منذ 1893م التي أحدثت خلا واسعا في التجارة الصحراوية، مما دفع بعض الأهالي إلى الهجرة للبحث عن مصادر الرزق إما بضواحي التل أو خارج الوطن.

وإذا كانت الظروف الطبيعية في بعض الأحيان قد دفعت الجزائريين إلى الهجرة، فالحكومة المغربية من جهتها لم تبخل بتشجيعها لأهالي عين الصفراء وتحريضهم للهجرة نحو أراضيها وقد دافعت بشدة على العديد من القبائل واعتبرت قضية مغربية كما حدث مع قبيلة الشرفة والعمور وبعض قبائل أقصى الجنوب.

- تطور الهجرة نحو المغرب بين 1849-1881: إذا كان احتلال الجزائر من طرف الفرنسيين نفسه من العوامل الهامة التي دفعت بالجزائريين إلى هجرة وطنهم هروبا من الظلم والاضطهاد فكذلك انتصارهم على المقاومة الوطنية بدءا بمقاومة الأمير عبد القادر سنة 1847 ومرورا بثورة أولاد سيدي الشيخ عام 1864م، وانتهاء ثورة الشيخ بوعمامة سنة 1881م، كان له دور أهم في نزوح السكان إلى المملكة المغربية.

¹. حدثت عدة نزاعات بين قبائل المنطقة بسبب خضوع وانضواء جزء منها للسلطة الاستعمارية، فكانت بعض قبائل بني غيل وأولاد جرير ودوي منيع تغير على العديد من قبائل الحميان الخاضعة، والتي قدرت خسائرها كالاتي في سنة 1881:

- 2048 جملا بقيمة 100 فرنك للواحد أي 204800 فرنك.
 - 10845 شاة بقيمة 10 فرنك للواحد أي 108450 فرنك.
 - 39 جوادا بقيمة 300 فرنك للواحد أي 1700 فرنك.
 - 251 حمارا بقيمة 20 فرنك للواحد أي 5020 فرنك.
 - أمتعة أخرى قيمتها بـ 97955 فرنك
 - فيصبح المجموع كالاتي: 429745 فرنك.
- ينظر: عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة (1881-1908) جانبها السياسي، ج1، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983، ص30.

ومما أثر سلباً على أهالي وسكان الجنوب الوهراني من حيث تماسكهم الاجتماعي والسياسي بصورة خاصة هو فقدانهم أراضيهم وثرواتهم الحيوانية، وغلق العديد من أراضي التجوال التي كثيراً ما كانت ترتادها قطعان الماشية ضمن حركة العشابة¹، وبالتالي تشريدتهم وضربهم في الصميم، وقد استعملت الإدارة الاستعمارية كل الوسائل والطرق لدفع الأهالي إلى مغادرة وطنهم ليفسحوا المجال للمستوطنين الأوروبيين لاستغلال ثروات البلاد.

وبين سنتي 1849-1881 تضاعفت هجرة قبائل المنطقة وخاصة سكان القصور إلى المغرب فمُنذ تنصيب الحاكم العام بالجزائر، عمل الحكام العسكريون على تثبيت السلطة الاستعمارية في الوطن ودعم سياسة الاستيطان بكل السبل والوسائل، مما أدى بهم إلى حشد السكان الأصليين في قمم الجبال وإجبارهم على النزوح نحو الأراضي الجرداء الأمر الذي حولهم إلى فلاحين مستأجرين (مياومين) أو خماسين²، وفي هذا الشأن يذكر دولامارتيناز أنه قبل احتلال عين الصفراء سنة 1881، وجدت بعض القصور خالية من السكان، حيث أن عدد كبير من السكان لجأوا منذ زمن بعيد إلى تلمسان والبعض الآخر إلى المغرب.

وفي نفس المقام يذكر الجنرال كاتري (G.CARTERET) من خلال الجدول الذي أنجزه سنة 1875 للمقارنة بين قصري سفيشيفة وعين الصفراء من سنة 1849 إلى 1875³.

القصور	عدد المنازل الآهلة			عدد السكان		
	1849	1861	1875	1849	1861	1875
سفيشيفة	200	70	33	1200	350	145
عين الصفراء	250	100	64	1000	500	300

¹. M.CH.Depincé, Congrès de l'Afrique du Nord de 6 au 10 Mai 1908, op.cit, pp374-390.

². وصفهم أسنار بالجيش المتنقل (كما كان معروف لدى المعمرين) والذين كانت تمنح لهم الأعمال الشاقة كاستطلاع الأراضي وحرثها من العمق، وهم عمال من البدو دفعتهم سياسة انتزاع الأراضي والملكيات ورمى بهم البؤس إلى قارعة الطريق. ينظر: عبد اللطيف بن أشنهو، تكون التخلف في الجزائر بين عامي 1862-1830، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979، ص.ص137-138.

³. De La Martinière et Lacroix, op.cit, p424.

يتضح من خلال الجدول السابق أن حركة الهجرة قد بلغت أوجها خاصة بقصر عين الصفراء الذي أضحى شاغرا في بداية سنة 1881م، وهذا دليل على الممارسات الاستعمارية التعسفية التي طالت تخريب القصور وإثقال كاهل الشعب بالضرائب، خاصة قبيلة الشرفة التي اكتوت بنار ضريبة اللزمة التي فرضت عليها بداية من سنة 1872 إلى 1874 وحددت بـ 1000 فرنك ثم ارتفعت لتقارب 1500 فرنك بداية سنة 1874¹، وبما أن القبيلة دفعت الضرائب بهمة ونشاط فقد أوحى ذلك للسلطات الاستعمارية بأن الوعاء الضريبي ضئيل بالمقارنة بثروات البلاد فتقرر رفع مبلغ الضريبة ابتداء من سنة 1875 إلى أن قاربت 2000 فرنك♦.

كانت السلطات الاستعمارية الفرنسية بإجراءاتها هذه تسعى إلى تهجير وطرد قبيلة الشرفة والتخلص منها خصوصا بعد المشاكل التي أحدثتها داخل قصر تيوت وتدخل الحكومة المغربية المتزايد للدفاع عن هذه القبيلة باعتبارهم مسألة مغربية، فهذه الإجراءات دفعت بقبيلة الشرفة إلى مغادرة البلاد والتوجه نحو المغرب، فقد قدرت عدد الخيام التي هاجرت بحوالي 21 خيمة من أصل 32 خيمة متواجدة بالتراب الجزائري، وفي عام 1884 أكد القائد الأعلى لدائرة عين الصفراء أن هجرة الشرفة أضحت تتضاعف نحو المغرب حيث بلغت عدد الخيام المهاجرة 25 خيمة ولم يبق بالإقليم سوى 10 أو 07 خيام فقط.

سارعت السلطات الفرنسية باتخاذ تدابير للحيلولة ووقف تدفق الهجرة القبلية، حيث اقترح الحاكم العام بتخفيض مبلغ ضريبة اللزمة والتي حددت بـ 200 فرنك سنويا وتدفع في شكل ضريبة الزكاة، وقد بقيت وضعية قبيلة الشرفة إلى غاية 1893 دون حدوث أي تغييرات، وفي جانفي 1893 قامت السلطات الفرنسية

¹ C. Meissner, Monographie du Territoire d'Ain Sefra, op.cit, p68.

♦. كان هدف السلطات الاستعمارية من رفع الضريبة إلى دفع قبيلة الشرفة لمغادرة المنطقة وإرغامها على الهجرة نحو المغرب باعتبار ضباط الشؤون الأهلية اعتبروا هذه القبيلة ليست جزائرية أصلا، وفي الحقيقة تعود أصولها إلى نواحي تافيلالت بالمغرب من الجد الأول مولاي عبد المالك والذين استقروا بمنطقة القصور منذ أكثر من 100 أو 125 سنة مضت، وقد تبنت الحكومة المغربية الدفاع عن هذه القبيلة التي أرهاقتها الضرائب وأفقدتها جميع ممتلكاتها وأضحت فقيرة في بداية 1893م. ينظر:

De La Martinière et Lacroix, op.cit, pp323-327.

بالتفكير في تنصيب قايد ذو نفوذ بارز يمكنه من إجبار كل الخيام بالدخول والعودة لأرض الوطن¹.

■ الهجرة بين سنتي 1882-1907 وموقف الإدارة الفرنسية: بعد قيام ثورة بوعمامة سنة 1881 اشتدت حركة هجرة قبائل الجنوب الغربي نحو المملكة المغربية واتخذت أبعادا خطيرة خصوصا وأن الشيخ بوعمامة كانت لديه علاقات حسنة مع السلطان المغربي، وقد التجأ في بداية 1882 إلى منطقة فيفيق وهي الفترة التي شهدت حملات شاسعة لملاحقة جميع القبائل المنضوية تحت لواء الجهاد ومعاقبتها، مما اضطر العديد من قبائل الجنوب الغربي إلى الهجرة نحو التراب المغربي وخاصة قبائل العمور والحميان، وتشير المصادر التي بحوزتنا أنه في عام 1884 أي بعد تأسيس دائرة عين الصفراء بسنتين ونصف هاجرت نحو 62 خيمة من المدابيح إلى المغرب، فيما فضل أولاد عبد الله وأولاد قطيب (قبلة العمور وأولاد سليم) اللجوء إلى جبل بني سمير وإعلان الجهاد ضد الفرنسيين².

هذا وفي 26 و 27 جويلية من عام 1888م وبعد المحادثات الدبلوماسية الفرنسية-المغربية بشأن وقف تدفق هجرة القبائل الجزائرية، فقد فضلت نحو 80 خيمة من أولاد سليم وأولاد عبد الله الهجرة نحو المغرب، وفي الرابع من سبتمبر سنة 1888 قررت حوالي 120 خيمة من الصوالة أولاد عليات (العمور) وأولاد سليم³ الهجرة كذلك.

وفي هذه الأثناء تحركت السلطات الفرنسية إزاء هذه الهجرة المتتالية، حيث أمر الحاكم العام بضبط قبيلة العمور وأمر قائد مقاطعة وهران بالتعجيل لوضع حد لهروب قبيلة العمور من دائرة عين الصفراء التي أضحت شاغرة حسب⁴. وهنا يبدأ الضغط الفرنسي على البلاط المغربي أولا للقضاء على ثورة الشيخ

¹. Ibid, pp335-341.

². Ibid, pp285-288.

³. Ibid, pp301-303.

⁴. يذكر الجنرال نويل (G. O'Neill) أن هجرة هذه القبائل كانت بسبب:
- عدم تمكن فرنسا من احتلال شمال البلاد والسيطرة على كامل القبائل.
- التصرفات السيئة لقايد عمالة فيفيق خلال سنة 1888 ودفاعه المستمر لقبائل المنطقة.
- التقسيم غير الفعال لقبيلة العمور إلى قيادتين (طلب إعادة النظر فيه).

بوعمامة واعتقاله، وثانيا لضبط الحدود الجزائرية المغربية، ووقف هجرة القبائل الحدودية وقطع الإمداد المغربي للثوار.

ونتيجة لهذا الضغط وقع بن سليمان وزير خارجية المغرب بروتوكولا في 20 جويلية 1901 مع ديكالسيه بباريس، ثم تلاه اتفاق الجزائر بتاريخ 20 أفريل و 07 ماي 1902 بين الفاسي وزير الدفاع المغربي بالنيابة والسلطات الفرنسية نتيجة الضغط الدبلوماسي أيضا¹.

وفي سنة 1903 عينت السلطات الفرنسية العقيد ليوتي (LYAUTEY) الخبير بالاستعمار على قيادة عين الصفراء لضمان وتأكيد السيطرة الفرنسية بالجنوب الوهراني والذي قام بتدابير أمنية على الحدود الجزائرية-المغربية، حيث أنشأ الكتيبة الصحراوية للساورة وشرطة الحدود وألحق بإقلي بمركز بني عباس، ثم تواصلت المشاريع التي تخدم الاستعمار كمد خطوط السكة الحديد²، وبعد المفاوضات التي أعقبت مؤتمر الجزيرة سنة 1906، منحت السلطات الفرنسية صلاحيات واسعة لمراقبة الحدود الجزائرية المغربية، لذا كلفت وزارة الحربية النقيب بول أزان (PAUL AZAN) بمراقبتها في أواخر 1906 وبداية 1907، الذي تفقد هذه المناطق وخاصة الحدود الجنوبية وتحدث عن التنظيمات التي يقوم بها ليوتي في الجنوب الوهراني ومنها إنشاء نقاط المراقبة في بشار وفرطاسة لضمان الأمن في زوزفانة وقيرو وشط التيقري³.

وفي 07 ديسمبر 1908 قدم الجنرال ليوتي المحافظ الأعلى للحدود تقرير إلى رئيس المجلس يتضمن برنامجا شاملا للتنظيم والذي يستند إلى اتفاقيات (1901-1902) بين المغرب وفرنسا والذي سينشر الاستقرار والأمن بالحدود، وقد شرع في تطبيق هذا البرنامج خلال سنتي 1909 و 1910، بتكوين شرطة قادرة على المحافظة وحماية الحدود الجزائرية المغربية وقد قامت السلطات الفرنسية في هذا الإطار على تقريب سي الطيب ولد بوعمامة إليها لتطمئن قبائل الحدود، وبذلك ظهر نوع من الهدوء النسبي وازدادت معه عمليات التبادل

¹. G.G.A Question diplomatique et Coloniale 16/12/1904, pp782-783.

². إبراهيم مياشي، المرجع السابق، ص.ص 118-120.

³. Paul Azan, La Frontière Algéro-Marocaine au Début de 1907, Tonnerre Imp. Bailly, Paris, 1907, pp07-28.

التجاري وبدأت بعض القبائل النافرة تنضوي تدريجيا تحت لواء السلطة الفرنسية¹.

وهكذا يمكن القول أن مشاكل الحدود والتي كانت تؤثر وتتأثر في السياسة الفرنسية-المغربية قد وجدت حلها النهائي بهذه الإجراءات لتمكن التوسع الاستعماري في الجنوب الغربي والزحف أكثر لاحتلال المزيد من الأراضي.

- نتائج وردود الأفعال الوطنية:

اصطدم الاحتلال الفرنسي في توسعه نحو الجنوب الوهراني بثورة عارمة أشعلها الشعب الجزائري بقيادة أولاد سيدي الشيخ للدفاع عن مجاله الحيوي، عبر الهضاب العليا التي تحظى بأهمية إستراتيجية بالغة وخطورة في عمليات التوسع الاستعماري.

انطلقت الشرارة الأولى لثورة أولاد سيدي الشيخ من فرع الشراقة سنة 1864م واستمرت إلى غاية 1880م، ثم ما إن هدأت الأوضاع بمنطقة الجنوب الوهراني حتى أعقبتها ثورة الشيخ بوعمامة سنة 1881م والتي اعتبرت الأكثر مراسا والأشد عنفا، ومما لاشك فيه أن هذه الثورة تعد الأطول فترة من الثورات الجزائرية التي اندلعت في وجه الغزو الفرنسي، ذلك أنها دامت أكثر من ربع قرن من أفريل 1881 إلى غاية وفاة الشيخ بوعمامة في أكتوبر 1908م.

- مقاومة الشيخ بوعمامة ودورها في التصدي للتوسع الاستعماري:

يكفي القول بأن رفض الشعب الجزائري للاحتلال الفرنسي يعد من أهم العوامل التي ساهمت ودفعت بالشيخ بوعمامة² إلى الإعداد والتنظيم للعمل الثوري

¹. إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص120.

². الشيخ بوعمامة: هو محمد بن العربي بن الشيخ بن الحرمة بن محمد بن إبراهيم بن التاج وهو سليل عائلة أولاد الحرمة، ينحدر من أولاد سيدي التاج الابن 13 للجد الأول لسيدي الشيخ، ولد بوعمامة بحوالي 1838 أو 1840 بفيقيق (قصر الحمام الفوقاني) تتلمذ على يد أبي عمارة البوشيخي الدرقاوي والسيد محمد العربي اليعلاوي الفلالي، ثم انكب على دراسة التصوف والطرق الصوفية، تجمع الوثائق على أنه غادر فيقيق نهائيا عام 1875م ليستقر بمغرار التحتاني (45 كلم جنوب عين الصفراء) تزوج ابنة سيدي المنور بن الحرمة السيد ربيعة، عمل الشيخ على تنفيذ وصية جده التي

ضد العدو بالجنوب الوهراني ومما لاشك فيه أن هناك جملة من الأسباب ساهمت بشكل كبير في التعجيل بإشعال فتيل الثورة ومن أهمها:

1- يعتبر مقتل الضابط الفرنسي وانبيرونر (WEINBRENNER) نائب رئيس المكتب العربي لمدينة البيض يوم 22 أبريل 1881 مع أربعة من الصبايحية من حراسه عندما حاول صد نشاط بوعمامة واعتقال مبعوثيه لدى الجرامنة* (30 كلم شرق البيض) ويعد السبب المباشر في اندلاع المواجهة بين الشيخ بوعمامة والإدارة الاستعمارية الفرنسية.

2- تردي الأوضاع الاقتصادية في منطقة الجنوب الوهراني خصوصا بعد انتشار المجاعة التي أهلكت سكان الإقليم، نظرا لتعسف السياسة الاستعمارية في إذلال وتجويع الأهالي والتي تقضي بتحطيم وإفقار الإنسان العربي والخط من قيمته وقد حرمه الاستعمار الفرنسي من جميع وسائل الرزق حتى تسهل عملية إخضاعه للهيمنة الفرنسية.

3- فشل البعثة الرسمية لدراسة مشروع النقل الصحراوي في الجنوب الغربي خلال سنة 1879 فقد أجبرت البعثة بالعودة على أعقابها بعدما تحرش بها سكان قصر تيوت الواقع بجوار مغرار التحتاني¹ (مقر زاوية الشيخ بوعمامة)، لذلك عازمت السلطات الفرنسية على إقامة مركز عسكري للمراقبة، وقد أحدث هذا النبأ قلقا متزايدا لدى بوعمامة والقبائل الصحراوية.

4- تدمير واستيلاء العديد من القبائل الصحراوية وخاصة قبائل آفلو والبيض التي منعت من التنقل بمواشيها إلى الجنوب خلال موسم الترحال وذلك في فصلي الشتاء (1879-1880) و(1880-1881) مما أدى إلى فقدانها العديد من رؤوس الماشية من شدة البرودة بتلك المناطق، فقد بلغت نسبة الخسائر التي لحقت بدائرة آفلو لوحدها والمقدرة بـ 300 رأس إلى 80% (37% في سنة

تتمثل في إحياء تقاليد الطريقة الشيعية القائمة على الورع والتقوى. ينظر: إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، المرجع السابق، ص.ص 272-273.

*. Augustin Bernard, Bouamama in Question Diplomatique et Coloniale, 5^{ème} Année, 1901, Tome 11, p622.

¹. E.Graulle, Insurrection de Bou-amama (Avril 1881), Paris, Charles-Lavauzelle, 1905, p09.

1879-1880 و 43% لسنة 1880-1881) وأرجع السكان الخسائر إلى سوء السياسة الفرنسية المنتهجة ضد الجزائريين¹.

5- بالإضافة إلى الأسباب الداخلية هناك أسباب خارجية أسهمت في تفجير الثورة والتي من أبرزها الغزو الفرنسي لتونس في مطلع سنة 1881، والحوادث التي أعقبت هذا الاحتلال، والتي كان لها صدى عند بوعمامة وقبائل الجنوب الوهراني خاصة بعد توجه جزء ضخم من الجنود المرابطين في الناحية الوهرانية إلى تونس².

6- دور الدعوة السنوسية المنتشرة عبر الصحراء والتي تدعو إلى محاربة الاستعمار الأوروبي في البلاد العربية، والتي بلغت إلى الشيخ بوعمامة عبر مقدم الطريقة السنوسية الشيخ الحاج المهدي باجودا³.

7- بالإضافة إلى دعوة جمال الدين الأفغاني وحركة السلطان عبد الحميد العثماني، الداعيتين إلى جمع شمل المسلمين في إطار الخلافة الإسلامية وإصلاح ما أفسده الاستعمار في البلاد العربية.

- اندلاع ثورة بوعمامة ومراحلها:

مرت مقاومة الشيخ بوعمامة بمرحلتين هامتين أين تمكن أن يرعب القوات الفرنسية المتواجدة في المنطقة، وهي الفترة التي أعقبت تصريح الحاكم العام ألبير قريفي (A. GREVY) "بأن عهد الثورات قد ولى في الجزائر"⁴.

❖ المرحلة الأولى (1881-1883):

تميزت هذه الفترة بالقوة والتنظيم المحكم من قبل بوعمامة الذي قام برص الصفوف ودعوة جميع القبائل للالتحاق به عن طريق مريدي الطريقة الشيعية المتواجدين بالمنطقة، وخاصة قبائل الطرافي والرزائية والأحرار وفرندة وتيارت،

¹. عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة (1881-1908) (جانبها العسكري 1881-1883)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1881، ص47.

². E.Graulle, op.cit, pp13-14.

³. إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص276.

⁴. عبد القادر خليفي، المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص54.

وقد وجدت هذه الدعوة صداها لدى قبيلة حميان والعمور والشعانبة وقد تمكن الشيخ بوعمامة في فترة وجيزة أن يجمع حوالي 2.300 جندي بين فارس ومشاة¹. لقد وقعت أولى المواجهات العسكرية بين الشيخ بوعمامة والقوات الفرنسية في 27 أبريل 1881 بمنطقة سفيشيفة (30 كلم غرب عين الصفراء) أسفرت عن انهزام الجيش الفرنسي واستشهاد بعض رجال الشيخ منهم قائد المعاليف والرزائنة، أمام خطورة الوضع سارعت السلطات الفرنسية إلى إرسال قوات إضافية إلى المنطقة لقمع الثورة والقضاء عليها، وتمثل المدد في:

- ثلاث فيالق من المشاة تحت إمرة راهيد اينوسانتي.
- فرقتين يقودهما القائد قدور ولد عدة.
- فرقة تيارت يقودها الحاج قدور الصحراوي.
- قافلة من 2.500 جمل و 600 جزائري (من القوم).
- قائد شعبة معسكر الجنرال كولونيو ودانسي².

فحدثت المواجهة الثانية بين الطرفين في 19 ماي 1881 بالمكان المسمى (المويلكك) الواقعة قرب قصور الشلالة بجمال القصور، وكانت معركة عنيفة اشتد فيها القتال وفقد خلالها الطرفان خسائر بشرية هامة، تمثلت في 60 قتيلًا و 22 جريحًا بالنسبة للفرنسيين، مقابل 200 شهيد³، وبعد هذه المعركة ظل الشيخ بوعمامة سيد الموقف، فقد توجه إلى الأبيض سيدي الشيخ مما ساعد الثوار في هذه الفترة على قطع خطوط التلغراف الرابطة بين فرندة والبيض ومهاجمة مراكز الشركة الفرنسية-الجزائرية للحلفاء، وقتل العديد من عمالها الإسبان⁴ الأمر الذي دفع بالسلطات الفرنسية إلى اتخاذ إجراءات لحماية مصالحها بتجميع أربعة طوابير قوية، وقامت أعمال شنيعة ضد الثوار والسكان العزل بالمنطقة، حيث قام العقيد نيقريي (DE NEGRIER) بمعاينة جميع القبائل التي شاركت مع بوعمامة في الثورة ثم تلتها المجازر الرهيبة التي ارتكبتها قوات الاحتلال ضد الأهالي العزل من الطرفي وارباوات بمنطقة البيض، ونفس الجرائم ضد أهالي الشلالة

¹. Bezy (le Citoyen) Insurrection du Sud-Oranais, Publié par le Citoyen Bezy, Oran, Collet, 1884, p10.

². إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص.ص 277-292.

³. E.Graulle, op.cit, p48.

⁴. خليفي عبد القادر، المرجع السابق، ص.ص 70-78.

الظهرانية والأبيض سيدي الشيخ، وقام نيقري في 15 أوت بنسف قبة سيدي الشيخ ونش قبره استهزاء منه بالجوانب الروحية للشعب الجزائري¹. ومن التطورات الهامة التي حصلت خلال هذه الفترة كذلك هو التحاق سي سليمان بن حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ الغرابية بالثورة على رأس 300 فارس واتجه بقواته جنوب غرب عين الصفراء ومنها إلى منطقة البكاكرة للضغط على القبائل الموالية للاستعمار الفرنسي².

أمام تزايد الضغط الفرنسي على المنطقة قرر الشيخ بوعمامة الانسحاب إلى فيقيق بالمغرب الأقصى، حيث قل نشاطه وتفرق أتباعه وأنصاره، فقد انضم البعض إلى سي قدور بن حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ الشراقة، وانضم البعض الآخر إلى سي سليمان بن حمزة قائد الغرابية وباقي المجاهدين مكثوا بمنطقة فيقيق وضواحيها³، وفي 16 أبريل 1882 لاحقت قوات الاحتلال الشيخ بوعمامة في الأراضي المغربية، لكنه رد عليها بهجوم عنيف في شط التيقري، كبدوا خلالها العدو خسائر فادحة في الأرواح وأجبره على الانسحاب⁴. لقد كان لهذه الهزيمة وقع كبير في الأوساط العسكرية الفرنسية وزادت من جهة أخرى الثورة صمودا وتحديا وأثبتت تفوقها مرة أخرى على القوات الفرنسية.

❖ المرحلة الثانية (1883-1908):

عرفت مقاومة الشيخ بوعمامة خلال هذه المرحلة فتورا ملحوظا بعد استقراره في مسقط رأسه بالحمام الفوقاني بفقيق التي بلغها في جويلية 1883م، حتى يتمكن من تنظيم صفوفه مستقبلا وهذا ما جعل السلطات الاستعمارية تتخوف من تحركاته الكثيفة، لذلك سارعت في إرسال برقية موقعة من طرف الجنرال سويسسي قائد الفيلق 19 إلى حكومته في باريس يدعوها إلى الضغط على السلطان المغربي لطرد الشيخ بوعمامة من الأراضي المغربية لأنه يشكل خطرا على المصالح الفرنسية بالمنطقة⁵.

¹. E.Graulle, op.cit, pp117.

². إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص300.

³. إبراهيم مياسي، دور ثورة الشيخ بوعمامة في التصدي للتوسع الاستعماري بالجنوب الغربي، مجلة المصادر، العدد 9-10، ماي جوان 2001، ص119.

⁴. A.H.Noel, Document pour Servire à l'Histoire des Hamyan, B.S.G.A d'Oran, N°03, 1916, pp18-20.

⁵. إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص303.

هذا التحرك دفع بالشيخ بوعمامة إلى مغادرة فيقيق واللجوء إلى إقليم توات والاحتفاء بسكان دلدول مع نهاية 1883م، واستقر هناك إلى غاية 1894، فأسس زاوية له وشرع في تنظيم الدروس لمواصلة الجهاد، كما قام بمراسلة جميع القبائل الصحراوية من أقصى شرق الصحراء إلى غربها يحثهم فيها على الجهاد¹، وقام أيضا بمراسلة الحكام الفرنسيين مثل رسالة بوعمامة إلى الحاكم العسكري لدائرة غرداية يوم 26 أفريل 1888م يحثه فيها على إتباع طريق السلم والأمن والصلح بينهما².

وفي نفس الوقت كانت السلطات الفرنسية تعمل على استقرار الوضع بالمنطقة وتثبيت السكان وخاصة الموالين لأولاد سيدي الشيخ، خاصة بعد نجاح توماسين في مصالحة هذه العائلة حتى يسهل عليهم اختراق المنطقة³، وبعدها اهتمت السلطات الفرنسية في إنجاز العديد من المشاريع كخطوط السكة الحديد وإقامة الجسور وإنشاء المراكز التجارية والمؤسسات الاقتصادية وزرع الحصون والمراكز العسكرية في مختلف مناطق الإقليم.

في بداية 1889 لاحت في الأفق فكرة جديدة وهي احتلال الصحراء بالطرق السلمية الهادئة لكن فرنسا لم تتخل عن أسلوبها العنيف في التوسع، ففي سنة 1891 أنشأت مركزا عسكريا دائما بالمنيفة استعدادا للسطو على عين صالح ووحدات توات، وفي سنة 1892 جددت السلطات الفرنسية الاتصال بالشيخ بوعمامة لعرض قضية الأمان ولكن من دون جدوى⁴.

إن الصلات الودية والطيبة بين الشيخ بوعمامة والحكومة المغربية أثارت قلق وتخوف السلطات الاستعمارية خاصة بعد الاعتراف به زعيما لقبائل أولاد سيدي الشيخ ومشرفا على جميع قبائل المنطقة، مما دفع بها مرة ثانية لكسب وده لتسهيل مهمتها في التوسع وبسط نفوذها بالمناطق الصحراوية.

¹. إبراهيم مياشي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص183.

². عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة (1881-1908) الجزء الثاني، جانبها السياسي (1883-1908)، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، صص49-50.

³. Augustin Bernard et M. Lacroix, la Pénétration Saharienne (1830-1906), Alger, Imp. Algérienne, 1906, p95.

⁴. عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص13.

لذلك قرر الوالي العام لافاريار في 16 أكتوبر 1899م منح الشيخ بوعمامة الأمان التام دون قيد أو شرط¹، ومع مطلع القرن العشرين دخل الشيخ بوعمامة المغرب الأقصى واستقر بمدينة وجدة، الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية تتنفس الصعداء بتخلصها من أشد أعدائها، وطيلة السنوات الباقية من حياة الشيخ قضاها في الجهاد تارة والهدوء تارة أخرى، وكل ذلك تحت مراقبة ومحاصرة القوات الفرنسية بقيادة الجنرال ليوتي (LYAUTEY) إلى أن وافته المنية بعين سيدي ملوك في 07 أكتوبر 1908² رحمه الله ودفن هناك.

- نتائج مقاومة الشيخ بوعمامة:

- كانت ثورة الشيخ بوعمامة تحديا كبيرا لسياسة الجمهورية الثالثة والتي كانت ترمي إلى إتمام عمليات الاحتلال الشامل واستطاعت أن تعطل وتعرقل المشاريع الفرنسية بالجنوب الوهراني.
- تمثل المرحلة النهائية من إستراتيجية الزعامات الوطنية في مواجهة الاستعمار الفرنسي عن طريق المقاومات الشعبية التي تعتمد أساسا على العامل الديني.
- تعتبر ثورة الشيخ بوعمامة من أعنف المقاومات الشعبية خلال القرن 19م بعد مقاومة الأمير عبد القادر.
- كشفت عن ضعف الفرنسيين في مواجهة المقاومة مما جعلها تبحث عن الحلول السياسية لإخماد نار الثورة خصوصا المرحلة الثانية (1883-1908) حين ظهرت قضية الأمان من خلال المراسلات والمفاوضات التي كانت تسعى لها فرنسا.
- الخسائر المادية والبشرية الجسيمة التي تعرضت لها المنشآت الاقتصادية للمعمرين بالهضاب العليا خاصة الشركة الفرنسية-الجزائرية لاستغلال حقول الحلفاء.
- عجلت الثورة بإتمام مشاريع السكة الحديدية في المنطقة وربط الشمال بالجنوب.

¹. إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص311.

². عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص40.

- وأخيرا يمكن إقرار الحقائق التالية وهي أن الثورة لم تحقق أهدافها، لأنها تعرضت لعدة عقبات جعلتها تتعثر وفاترة في بعض الأوقات لعدم اتحاد فرعي أولاد سيدي الشيخ وكذلك ضغوط السلطان عبد العزيز على الثورة وحصرها في الحدود.

الخاتمة:

نستخلص من هذه الدراسة أن المشروع الاستيطاني بإقليم عين الصفراء العسكري، لم يكن وليد الصدفة بل كان تخطيطا مبرمجا منذ زمن بعيد، وذلك أن هذه العملية بدأ التمهيد لها منذ القرن السابع عشر عن طريق إرسال جحافل المبشرين ورجال الدين المسيحيين والمغامرين والمستكشفين إلى هذه المناطق الصحراوية الشاسعة أمثال روني كايي وهنري بارث ودوكولومب ودوفرييه، وبول سولييه، فلاترس، فلاموند، وغيرهم، وقد تقمصوا شخصيات عديدة كعلماء جيولوجيين أو أطباء أو قادة عسكريين مسالمين وما إلى ذلك لكي يخفوا نواياهم المبيتة، وقد تعرض الكثير منهم إلى الهلاك بعد أن اكتشف سكان المنطقة أمرهم.

وبعد أن قاموا برحلاتهم وجالوا في أرجاء الصحراء، وقدموا تقاريرهم ومذكراتهم وبحوثهم حولها وبحوثهم حولها وحثوا دولهم الأوروبية عامة وفرنسا خاصة على إخضاع هذه المناطق وتنفيذ مشروعها الاستغلالي لنهب ثرواتها وجعل شعوبها مطية لجميع أعمالهم الشاقة ثم ربط الصحراء بإفريقيا قاطبة.

لذلك عازمت فرنسا على احتلال الجنوب الغربي أو ما عرف بإقليم عين الصفراء العسكري خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، غير أنها اصطدمت بأعنف مقاومة من قبل سكان المنطقة والتي تزعمها أولاد سيدي الشيخ والشيخ بوعمامة ومقاومة أهل توات، قورارة وغيرها.

لكن سرعان ما فشلت هذه المقاومات أمام قوة العدو وتطور إمكانياته القتالية وتنظيماته المحكمة التي بفضلها تمكن من السيطرة على الجنوب الوهراني بداية من سنة 1881.

هذا وقد ابتدأت الإدارة الاستعمارية مشروعها الاستيطاني بالإقليم عن طريق مد خطوط السكة الحديدية لتستعين بها في نهب خيرات وثروات المنطقة وتأمين إمداد قواتها العسكرية المنتشرة في كل مناطق وضواحي الإقليم، عملت على خلق المشاريع الاستعمارية التي تخدم مصالح المعمرين من جهة، وتؤكد تواجدتها واحتلالها من جهة أخرى.

وبإمكاننا القول أن الجزائر خلال هذه الفترة عرفت أقصى درجات الحرمان والبطش فخلقت فرنسا الشروط التشريعية لكي تستولي على كل مظاهر الحياة الاقتصادية في الجزائر وتقوض أركان الاقتصاد الجزائري الوطني تدريجيا ليحل محله الاقتصاد الاستعماري الذي أثقل كواهل سكان المنطقة بفرض الضرائب العربية لنهب ما بقي للأهالي من قوة ووسائل العيش ولتجعلهم أجراد وخماسين يشتري المستعمرون كدهم وعملهم بأجور زهيرة كما حرمتهم من كل الحقوق، وعاملتهم معاملة الأجانب في وطنهم.

وبذلك بدأ السكان الجزائريون عامة وسكان الصحراء خاصة يعانون من المجاعات المتتالية فانتشرت الأوبئة والأمراض، خصوصا المجاعات 1867 و 1868 والمجاعة الخطيرة التي شهدتها إقليم عين الصفراء سنة 1905 ثم 1910 و 1911 والتي أرهقت جميع القبائل المنتشرة بالمنطقة وسلبت ثرواتهم الحيوانية.

وكما هو معروف، فإن البؤس والحرمان قد استفحل بوجود الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ذلك أن الجزائر لم تكن تشكو من الأمراض أو المجاعات أو أي نقص في الإنتاج، بل كانت مطمورة أوروبا قاطبة من القمح.

ونتيجة للسياسة الاستعمارية الفرنسية الخبيثة التي اتبعتها في الجنوب تحول الرخاء إلى شدة وبؤس وفاقه وهذا بسبب نقص الإنتاج، الذي أوعز الاستعمار أسبابه إلى كسل الأهالي والظروف الطبيعية غير الملائمة للزراعة، وذلك من أجل تبرير ظلمه ونهب خيرات البلاد، وأكبر دليل على تكذيب هذه البراهين هو ما نشهده اليوم من ازدهار عمراني حقيقي في منطقة الجنوب الغربي حيث شهدت تحولات جذرية في ظل الاستقلال والحرية، طبقا لتجسيد مبدأ سياسة التوازن الجهوي التي ترمي إلى تحقيق التنمية الشاملة والمستدامة في جميع الميادين.

ففي الميدان الزراعي، كانت معظم أراضي الجنوب الوهراني قاحلة جرداء غير صالحة للزراعة أو الاستقرار، مثلها مثل أراضي الجنوب الكبير، فتحولت اليوم إلى جنات يانعة بفضل المشاريع الاستثمارية التي أنجزها فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في الجنوب، كانجاز سد جرف التربة وإعادة تهيئته لاستصلاح وسقي سهل العبادلة، وحفر الآبار في العديد من المناطق وإنجاز مشروع القرن لنقل المياه الشروب من عين صالح إلى تمنراست، ثم توزيع الأراضي على

الفلاحين لاستصلاحها وتقديم برامج الدعم الفلاحي وتشجيع المستثمرات الفلاحية وذلك بجذب العديد من الفلاحين من المناطق التلية كغليزان، معسكر، سيدي بلعباس، تيزي وزو، حيث استصلحت العديد من الهكتارات، وأعطت التجارب نتائج مشجعة فزرعت الحبوب والخضر والفواكه.

وإلى جانب الزراعة شهدت المنطقة تشجيعا في الميدان الصناعي، حيث فتحت العديد من المصانع على غرار مصنع الآجر والإسمنت الذي سيدخل حيز الخدمة في أفاق 2017 بمنطقة بشار، كما عرف قطاع المواصلات طفرة نوعية من أجل فك العزلة وإلحاق هذه المناطق بركب التنمية الحضارية، حيث تحقق في هذا الميدان ما عجز عن تحقيقه الاستعمار لفترة طويلة، أنجز في الجزائر الحرة المستقلة بسواعد أبنائها من رجال الخدمة الوطنية والمتمثل في طريق الوحدة الإفريقية الممتد من الجزائر إلى غرداية، المنيع، وعين صالح ثم تمناست على مسافة ألفي كيلومتر فضلا عن الطرق الأخرى، كالطريق الرابط ما بين العبادلة وتندوف على مسافة أكثر من مائة كيلومتر، ثم طريق العبادلة-أدرار-تيميمون والمنيع إلى غاية برج باجي مختار على مسافة 282 كلم.

هذا بالإضافة إلى تطوير قطاع السكة الحديدية وتحديث الخطوط القديمة واستعمال القطارات السريعة مثل القطار السريع الذي يربط مدينة وهران ببشار وغيرها من القطارات الأخرى.

أما في الميدان الاجتماعي والعمراني، فقد شهدت المنطقة تطورا واضحا فتحسنت الظروف الحياتية للسكان وارتفع مستواهم المعيشي، وانتشرت المدارس وأعيد تحديثها وعصرنتها وافتتحت العديد من المعاهد والثانويات وأقيمت العديد من المستشفيات، كمستشفى التوأمة الكوبية-الجزائرية ببشار، الذي فك العزلة عن سكان الجنوب الغربي.

وهكذا يمكننا القول أن الاحتلال الاستيطاني بالجنوب الغربي خاصة والجزائر عامة، كان السبب الحقيقي في انتشار الثالوث الأسود الذي اكتوى به الشعب الجزائري كثيرا، والذي ناضل بكل قواه طيلة فترة الاحتلال من أجل طرد جحافل المستعمرين من أرضه الطيبة الطاهرة.

قائمة المصادر والمراجع

- المصادر الأرشيفية:

1. A.O.M Note sur l'Alfa, Rédigée par M.Laporte
Conservateur d'Eaux et Forêts à Oran, Pour Monsieur le
Général Levé, Oran le 13 Mars 1915.
2. A.O.M Lettre du Conservateur des Eaux et Forêts a
Constantine a M.G.G de l'Algérie N° 688 du 21 Février
1915.
3. A.O.M Lettre du G.G.A à Direction des Territoires du Sud
(Avis sue la Proposition de la commission d'Alfa, N°128 du
04 Septembre 1915.
4. A.O.M Lettre du G.G.A à Monsieur le général comandant,
le territoire A.S N° 2014, du 27 Avril 1915.
5. A.O.M Lettre du Président de la Chambre de Commerce
d'Oran à M. le Général Levé Comandant des Territoires du
Sud d'Ain Sefra, N°10.040, du 29 Novembre 1913.
6. A.O.M Lettre adressé à M. le Général Levé Comandant du
Territoire d'Ain Sefra, du 23 Mars 113.
7. Bulletin Officiel de l'Algérie 1908 (Règlementation de la
Zone Alfatière de Cercle de Mécheria et de Géry ville).
8. Ministère des Travaux Publics, Répertoires de Législation
des Chemins de Fer Française, Situation au 31 Décembre
1893, Imp. Nationale, Paris, 1894.

- المصادر باللغة العربية:

9. الإمام العثماني، محمد المكي، السلسلة الوافية والياقوتة الصافية في أنساب أهل البيت المطهر أهله، مخطوط، (ب.ت).
10. ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، مراجعة سهيل زكار، ج6، دار الفكر للطباعة، 1989.
11. ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، مراجعة سهيل زكار، ج6، دار الفكر للطباعة والنشر.
12. بوعزيز يحيى، السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب (1830-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.
13. بن أشنهو عبد اللطيف، تكون التخلف في الجزائر، محاولة لدراسة حدود التنمية الرأسمالية في الجزائر بين عامي 1830 و 1962، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
14. خليفة بن عمار، تاريخ الجنوب الغربي الجزائري، ترجمة بوداود عمير، دار القدس العربي، الجزائر، (ب.ت).
15. عميراوي أميدة، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية، (1844/1916)، دار الهدى الجزائر، 2008.
16. عميراوي أميدة، فواصل من الفكر والتاريخ، دار البعث، قسنطينة، 2002.
17. أبو القاسم عبد الله في كتابه الحركة الوطنية، الجزء الأول، تفاصيل كثيرة، ينظر عنصر الزعامات المدجنة.
18. مخطوط القائد، أربع صفحات، (16×21) مستخرج من دفتر أرشيف أعيان أولاد سيدي بوتخيل، مأخوذ من كتاب خليفة بن عمار.

- المصادر باللغة الفرنسية:

19. A. Duponchel, le Chemin de Fer Transsaharien, l'Algérie et le Soudan, Paris, 1878.
20. A. H. Noel, Documents Pour Servir a l'Histoire des Hamyan, L. Fouquet, Oran.

- 21.A.O.M Rapport du Commission d'Alfa, du 04 septembre 1915.
- 22.Abdallah Laroui, l'Histoire du Maghreb, Tome II, Paris, 1976.
- 23.Anonymes et Schmidt "Histoire du Cercle d'Ain Sefra" Document Relus pas le Père Communard d'Ain Sefra, 1949.
- 24.Antar Michel, Chevachées d'un Futur Styrien à travers les Ksour et Oasis Oranais, Illustration par L.Benett, Collection Hetzel, Paris, 1907.
- 25.Application de la Loi Forestière Algérienne 20 Août 1904, Imp. Pierre Fontana, Alger, 1904.
- 26.Ardouin du Mazt, Etudes Algériennes, l'Algérie Politique et Economique a Travers la Province d'Orans, Lib. Guillaumin, Paris, 1882.
- 27.Benjamin Stora, Histoire de l'Algérie Coloniale 1830-1954, E.N.A.L, Alger, 1996.
- 28.Beri (Capitaine), Monographie du Poste d'Igli, Ministère du Sahara (S.D) (A.W.B).
- 29.C.Meissner, Monographie du Territoire d'Ain Sefra, Imp.- L.Fouque, Oran, 1914.
- 30.C.Trumelet, Histoire de l'Insurrection des Ouled Sidi Ech-Cheikh, Sud Algérien de 1864, Seconde Partie, Adolphe Jourdan, Alger, 1884.
- 31.C.Trumelet, les Français dans le Désert, Garnier Frères, Libraires, Paris, 1863.
- 32.Camille Sabatier, Touat, Sahara et Soudan, Etd.Gego et Militaire Ed, Société Scientifique, Paris, 1891, pp 46-47.

- 33.Capitaine Bert, Monographie du Poste d'Igli, Ministère du Sahara, (S.D).
- 34.Capitaine Meissner Monographie du Territoire d'Ain Sefra Imp. L.Fouque, Oran, 1914.
- 35.Capitaine Meissner, Territoire Militaire d'Ain Sefra (Sud Oranais), S.G.A.O, Tome XXXIV, Imp. L.Fouque, 1914.
- 36.Colombe (Cap.L.de), Exploration des Ksours du Sahara de la Province d'Oran, Paris, 1858.
- 37.De la Martinière et N. Lacroix, Document pour Servira a l'Etude du Nord Ouest Africain, par ordre de M. Jules Cambon, Imp. G.G.A, Tome IV (les Oasis de l'Extrême-Sud), Alger, 1897.
- 38.ED. Déchaud, la population de l'Oranaie d'après le dénombrement de 1911 Imp. L. Fouque , Oran , 1913.
- 39.Eugène Damas, le Sahara Algérien, Etudes Géographique et Historique sur la Région au Sud des Etablissement Français, Paris, 1845.
- 40.Félix Jacquot, Expédition du Générale Cavaignac dans le Sahara Algérien en Avril et Mai 1847, Gide et J. Baudy Lib.Edi, Paris, 1849.
- 41.Félix Jacquot, Géographique des Colonies Françaises, Cours Spécial Imp. Poussielgue Frères, Paris, 1887.
- 42.G.G.A.Territoire du Sud, P.Gode Froy (Lieutenant-colonel), Programme des Chemins de Fer dans les Territoires du Sud, Ed. Adolphe Jordan, Alger, 1916.
- 43.G.Quenard, Monographie du Territoire d'Ain Sefra, 1953, Dactylographiées (A.W.B).
- 44.Henri Duveyrier, Exploration du Sahara, les Touareg du Nord, Challamel, Ainé Libraire-Ed, Paris, 1864.

- 45.Histoire de l'Insurrection des Ouled Sidi Ech-Chikh, Sud Algérien de 1864-1880, Seconde Partie, Addphe Jourdan, Alger, 1884.
- 46.Ju les Cambon, le Gouvernement Général de l'Algérie (1891-1897), Paris, 1918.
- 47.Jules Cambon, le Gouvernement Général de l'Algérie (1891/1897), Librairie Jourdan, Alger, 1819.
- 48.L.Meyson, Monographie de l'Annexe d'Ain Sefra (Mise à Jour 31/12/1957, Dactylographiées, Ain Sefra 1958.
- 49.Louis Josèphe de Colombe, Exploration des Ksours et du Sahara de la Province d'Oran, Paris, Challamel, 1858.
- 50.M.Mathieu et Dr.Trabut, les Hauts-Plateaux Oranais, Rapport de Mission, Imp. Pierre Fontana, Alger, 1891.
- 51.Meyson, Monographie de l'Annex d'Ain Sefra, Mise à Jour 31 Décembre 1957, Dactylogrphiées, Ain Sefra, 1958.
- 52.Noel (A.H), Document Pour Servir à l'Histoire des Hamyan l.Fauque, Oran, 1916.
- 53.Ouenard (Général), Monographie du Territoire d'Ain Sefra 1953, Dactylographiées (1953) 123p, A4 (Archives W.de Béchar).
- 54.Paul Azan, la Frontière Algero-marocaine au début de 1907, Tonnerre, Bally, Puffaces, 1907.
- 55.Paul Soleillet, l'Afrique Occidentale, Algérie, Mzab, Tidikelt, Paris, Callamel, 1877..
- 56.René Caillé, Voyage d'un Faux Musulman a Travers l'Afrique « Eugène Ardant Editeur, paris, (S.D).
- 57.Renou Emilien Jean (1815/1902), Description Géographique de l'Empire de Maroc, Suivie et

- Renseignements Sur le Pays de Sous et Autres Parties méridionales du Maroc, Improyale, Paris, 1846.
- 58.Schimidt et Anonymes, Histoire du Cercle d'Ain Sefra Document Relus par le Père Communardi d'Ain Sefra, 1945.
- 59.Troubad L'Apiculteur-Charles Simond-Van Cleemputte-Paul Adolphe, Au Pays des Sables, Précédé d'une notion, le Trans-saharien, 1897-1899.
- 60.Trumelet (C), les Français dans le Désert, Garnier Frères, Libraires, Paris, 1863.

- المراجع باللغة العربية:

- 61.أندري برينان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة رابح اسطنبولي وآخرون، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
- 62.أندري نوشي وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر. رابح اسطنبولي، المطبوعات الجامعية، 1960.
- 63.أوصيف الطاهر، ثورة 1871، ترجمة جياح مسعود، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
- 64.بن أشنهو عبد اللطيف، تكون التخلف في الجزائر، محاولة لدراسة حدود التنمية الرأس مالية في الجزائر بين عامي 1830 و 1962، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
- 65.بن داهة عدة، الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1962)، ج2، طبع وزارة المجاهدين، الجزائر، 2008.
- 66.بن عمارة خليفة، تاريخ الجنوب الغربي الجزائري، ترجمة بوداود عمير، دار القدس العربي، الجزائر (2013).
- 67.بوسماحة محمد، رحلة بني هلال إلى المغرب و خصائصها التاريخية والاجتماعية، ج1، دار السبيل، الجزائر، 2008.
- 68.بوعزيز يحي، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج1، منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1996.

69. بوعزيز يحي، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية للكتاب، 1830-1954م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
70. جوليان شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير سلامة، تونس، 1978.
71. حامت إسماعيل، الحكومة المغربية واحتلال الجزائر، تقديم وإعداد علي تابليت، ثالة للنشر، الجزائر، 2011.
72. خليف عبد القادر، المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010.
73. خليف عبد القادر، الطريقة الشيعية، دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران 2006.
74. زوزو عبد الحميد، ثورة بوعمامة (1881-1908) جانبها السياسي، ج1، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983.
75. عدي هوارى، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي (1830/1962)، ترجمة جوزيف عبد الله، ط1، دار الحداثة، بيروت، 1983.
76. العربي إسماعيل، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982.
77. عميراوي أميدة، زاوية سليم، قاصري محمد السعيد، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844-1916)، دار الهدى، الجزائر، 2010.
78. قنان جمال، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994.
79. مياسى إبراهيم، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية (1837/1934)، دار هومة، الجزائر، 2002.
80. مياسى إبراهيم، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881/1912)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد الجزائر، 1996.
81. ورطاسي قدور، معالم من تاريخ وجدة، مطبعة الرسالة، الرباط، 1972، تونس.
82. ورطاسي قدور، معالم من تاريخ وجدة، مطبعة الرسالة، الرباط، 1972
- المراجع باللغة الفرنسية:

- 83.A. Perie, les Touareg et les Mission Toutée et el Hourst, B.S.G d'Alger, 1897.
- 84.Achille Fillias, l'Expédition de l'Oued-Guir, Bouyer, Alger, 1880.
- 85.Alfred G.Martin, l'Action Française dans le Sahara, R.A.A Jourdan, Alger, 1893.
- 86.Association Française pour l'Avancement des Sciences, Congrès d'Oran 1888, Oran et l'Algérie en 1887, Notices Historiques, Scientifiques et Economiques, Tome II, Oran, 1888.
- 87.C.P.Zaccone (Chef de Bureau Arabe), le Commerce du Sud, 2^{ème} Edition, Constantine, Imp. De L.Marle, 1876.
- 88.Camille Sabotier, Touat Sahara et Soudan, (S.E.S), Paris, 1891.
- 89.Centenaire de l'Algérie, congrès de la colonisation Rur de Alger, 26-29 Mai 1930, 2^{ème} Partie, les Problèmes Economiques et Sociaux, Alger, 1930.
- 90.Ch.Depincé, Congrès de l'Afrique du Nord, 6-10 octobre 1908, Tome I, Paris, 1909.
- 91.Ch.Mourey, Louis Brunel, l'Année Coloniale, 3^{ème} Année (1901), Paris, 1902.
- 92.Ch.R.Ageron, les Algériens Musulmans et la France, Tome I et II ? Paris, 1968.
- 93.Damas Eugène, le Sahara Algérien Etude Géostatistique et Historique sur la Région du Sud des Etablissements Français en Algérie, Fontin Masson, Paris, 1845.
- 94.Damon, Sous-Intendant Militaire, l'Expédition du Touat, Conférence Fait à la Réunion des Officiers de Sidi Bel Abbés, Paris, 1897.

95. Duc Dalmatie, le Sahara Algérien, Paris, 1845, p248.
96. Duponche 1 (A), le Chemin de Fer Transsaharien, l'Algérie et le Soudan, Paris 1878.
97. Duveyrier (Henri) Exploration du Sahara « les Touareg du Nord » Challamel, Aîné Librairie, Ed, Paris, 1864.
98. F.Gourgeot, Situation Politique de l'Algérie, Et. Challamel, Paris, 1881.
99. Filia Achille, l'Expédition de l'Oued Guir, Bouyer, Alger, 1880. G.G.A les Territoires Sud de l'Algérie, 2ème Partie, l'Œuvre Accomplie, 1 Janvier 1903-31 Décembre 1929, Imp. Algérienne, Alger, 1929.
100. Flamand (G.B.M), Note sur les Stations Nouvelles Oupen Connues de Pierrs, Ecrites du Sud Oranais, Académie des Inscriptions et Belles Lettre, Année 1892.
101. Flatters (Paul), les Deux Mission du Colonel Flatters, en Afrique Libirairie Drey Fous, Paris, 1884.
102. G.B.M.Flamand, Note sur les Stations Nouvelles ou Peu Connues de Pierre Ecrites du Sud-Oranais, Académie des Inscription et Belles Lettres, Année, 1892.
103. G.G.A, Exposé de la Situation Générale des Territoire du Sud de l'Algérie, Année 1903-1929.
104. G.G.A. Exposé de la Situation Général des Territoire du Sud de l'Algérie, Présenté par M.CH.Lutud, Année 1911, Alger, 1912.
105. G.G.A. Territoires de Sud de l'Algérie, 2^{ème} partie, l'Œuvre Accomplie 01 janvier 1903, 31 décembre 1929, Imp. Algérienne, Alger, 1929.
106. G.Tillon, la Conquête des Oasis Saharienne, Ed. Militaire, Paris, 1903.

107. Gerhard Rohlfs, Mein Erster Aufenthalt in Marokko und Reise studliche vom, Atlas Durchidie Oasen Draa Und Tafilet, Verlagvon J.Kuhtmann's Buchaudl Bremen, 1873.
108. Grammont, le Colonel Flatters, Revue Africaine N°26, 1882.
109. Gustave Couput, les laines et l'industrie lainière de l'Algérie à l'exposition de 1889, Alger, 1889.
110. H.Simon, Occupation et Organisation des Régions Sahariennes, R.A.N°49, 1905.
111. Henri Brosselard, les Deux Missions Flatters, au Pays des Touareg Azedjer et Hoggar Librairie Fume, Paris, 1889.
112. Hubert Lyautey, Ver le Maroc, Lettres du Sud Oranais (1903/1906) Librairie Armand Colin, Paris, 1937.
113. Isidore Derrien (commandant), le chemin de Fer Trans-Saharien, d'Orans au Touat par Tlemcen, l'Oued, Messaoura, Oran, 1879.
114. Ismael Hamet, les Musulmans Français du Nord de l'Afrique, Librairie Armand, Paris.
115. Jacques Berque, le Maghreb Enter Deux Guerre, Paris, seuil, 1962.
116. Ju les Renars, les Etapes d'un Petit Algérien dans la province d'Orans, Paris, 1888.
117. Karl Marx, le Système Foncier en Algérie, Dans sur les Sociétés Précapitalistes (Extraits du Cahier de Note Datant de 1879), Paris, Editions Sociales, 1970.
118. L.Baquay, la Pénétration Saharienne (1899/1905), Editeur Militaire, Paris, 1908.
119. L.Rinn, Marabouts et Khouan, Etude sur l'Islam en Algérie A-Jourdan, Alger, 1884.

120. L'ingénieur Getten, les Chemins de Fer aux Colonies et dans les pays neufs, Tome III, Paris, 1900.
121. Le général Colonieu, le Tracé Central du Chemin de Fer Trans-Saharien, 1880.
122. Lieutenant O.de la Bourdonnaye, le Moral Algérien dans le Bled Oranais, Paris, 1908.
123. M. et E.Gouvion: Kitab Aymane el Marhariba, Imp. Orientale Fontana, Alger, 1920.
124. M. Lieutenant-colonel Daumas, le Sahara Algérien, études géographiques statistiques et historiques sur la région au sud de E.F en Algérie, Paris, 1845.
125. M. Petit, Note sur la Tumuli d'Ain Sefra, Imp. L. Fouquet, Oran, 1905.
126. M.A.Massé, Centenaire d'Algérie, comité de l'Afrique Française, congrès de la colonisation Rural, Alger, 25-29 Mai 1930, 2^{ème} partie, les problèmes éco et sociaux posés par la colonisation, Alger, 1930.
127. M.Dal Bouse (Inspecteur des Douanes à Alger), Cours d'Instruction Préparatoire (les Douanes), op.cit, pp13-29.
128. Maurice Maunoury, le Transsaharien et la Pénétration Française en Afrique, Paris, 1901.
129. N. Dal bouse (Inspecteur des Douanes à Alger), les Douanes (Cours d'Instruction Préparatoire au Service des Affaires Indigènes), Alger, (S.D).
130. Nareisse Fancon, Livre d'Or de l'Algérie Tome 1, Challamel, Paris, 1889.
131. O.Meynier, la Pacification du Sahara et la Pénétration Saharienne (1852/1930), Publication du Comite, N.M du Centenaire de l'Algérie, Alger, 1930.

132. P.Gode Frou, Programme des chemins de Fer dans les Territoires du Sud, Alger, 1916.
133. Paul Emile Moucheront, les Douanes en Algérie, Alger, 1907.
134. Paul Flatters, les Deux Missions du Colonel Flatters en Afrique, Librairie Drey fous, Paris 1884.
135. Paul Leroy Beaulieu, l'Algérie et la Tunisie, Libr. Guillaumin, Paris, 1887.
136. Paul Vuillot, l'Exploration du Sahara, Etude Historique et Géographique, Librairie Coloniale, Paris.
137. René Passeron, le Développement Economique des Territoires du Sud, (A.F.a.s), Congrès et Compte-Rendu de la 54^{ème} session, Alger, 1930, Paris.
138. Rinn (L), Marabouts et Khouan, Etude sur l'Islam en Algérie, a Jourdan, Alger, 1884.
139. Rohlf's Gerhard, Meenerster Aufenthalt In Marokko Und Reise Sthrlnd Lichevon Atlas du Rchidie Oasen Draa and Tafilat n ver le Gron, i.Kuhtman's Buchand, Beremen, 1873.
140. Vallat Gustave, A la Conquête du Contient Noire, Mission Militaires et Civiles, de 1892 a 1900, J.Le Fort, Imp. Editeur, Paris, 1901.
141. Yazid ben Hounet, l'Algérie des Tribus, le Fait Tribal dans le Haut Sud-Ouest Contemporain, l'Harmattan, Paris, 2009.

- المجلات والدوريات:

● باللغة العربية:

142. بن داهة عدة، الخلفيات الحقيقية للتشريعات العقارية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1873، ملتقى العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007.
143. بوباية عبد القادر، دور الرحالة والمستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، مجلة عصور، العدد 05/4 ديسمبر، جوان، 2004.
144. بوعزيز يحي، اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه ومدى استفادتهم من طرف القوافل في غزوها، الأصالة، الملتقى الإسلامي الثالث عشر، تمنراست، الجزائر، 2007.
145. بوعزيز يحي، اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء، مجلة الثقافة، العدد 6، الجزائر، 1986.
146. مياسي إبراهيم، دور ثورة الشيخ بوعمامة في التصدي للاستعمار الفرنسي، مجلد المصادر، العدد 09-10، ماي-جوان 2001.
- باللغة الفرنسية:

147. C.Trumelet, Note Pourservire a l'Histoire de l'Insurrection dans le Sud-Oranais en 1864, In R.A, N°20, Alger, 1876.
148. Capitaine Meissner, Territoire Militaire d'Ain Sefra (Sud Oranais), S.G.A.O, Tome XXXIV, Imp. L.Fouque, 1914.
149. G.Rammont, le Colonel Flatters, R.A, N°26, Alger, 1882.
150. J.Canal, les Martyrs du Sahara, In Bul.Soc.Géog, d'Alger et de l'Afrique du Nord N°35, 1930.
151. Jonard.Am Notice Historique sur la Vie et les Voyage de René Caillé, B.S.G. de Paris, 2^{ème} Série, Tome 10, 1838.
152. L.Voinot, la Situation sur la Frontière Algéro-Marocain du Tell Lors de l'Insurrection des Oulad Sidi Cheikh dans le Sud-Oranais (1864/1870) in R.A N°300, Alger, 1919.

- المقالات والمحاضرات:

153. بوعزة بوضرساية، فصل الصحراء في السياسة الفرنسية، سلسلة الملتقيات، المركز الوطني للدراسة والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، الجزائر، 1998.

- الرسائل الجامعية:

154. بليل محمد، تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر وانعكاساتها على الجزائريين (1914/1881)، القطاع الوهراني نموذجاً، رسالة لنيل شهادة الماجستير، معهد وهران، 2006.

155. بن دارة محمد، السياسة الفرنسية في الصحراء ما بين 1952 و1962، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ تخصص تاريخ الثورة، معهد التاريخ، الجزائر 1998/1999.

156. صديقي بلال، المشاريع الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1962/1956)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، معهد وهران (2010/2009).

157. موساوي الطاهر، الاستكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية خلال القرن 19م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، تخصص تاريخ، جامعة بشار، 2011/2012.

- الجرائد:

158. Ain Sefra (Journal), Congrès Colonial N°457, 15 Mars 1890.

159. Ain Sefra, (Journal), Congrès Colonial N°457, 15 mars 1890.

160. Exposé de la Situation des Territoires du Sud de l'Algérie, Présenté par M. Jonnart, Gouverneur Général Année... 1903/01/01-1929/12/31.

161. G.G.A Exposé de la Situation des Territoires du Sud de l'Algérie, Présenté par M.C. Jonnart, Année 1909, Imp. Librairie, Edition, Alger, 1910.

162. G.G.A Exposé de la Situation des Territoires du Sud de l'Algérie, 2^{ème} Partie, l'œuvre Accomplie, 1 Janvier 1903-

- 31 Décembre 1921, Présenté par M.Steeg (G.G.A), Imp. Librairie, Edition.
- 163.G.G.A Exposé de la Situation du Territoire du Sud de l'Algérie, Présenté par C. Jownart, Année 1907, Imp. Administrative Victor Heintz, Alger.
- 164.G.G.A Question diplomatique et Coloniale 16/12/1904.
- 165.L.Voinot, le Retour Incessant des Difficultés des Frontière avec le Maroc (1893/1896) Extrait du B.S.G.A. d'Oran, Tome 52, Oran, 1930.
- 166.L'Echo du Sud (Journal de l'intérêt de Saida et des Hauts-Plateaux), N°09, Vendredi 02 Octobre, 1896.
- 167.L'écho du Sud (Journal de l'Intérêt de Saida et des Hauts Plateaux), N°9, Vendredi 2 octobre 1896.
- 168.Lettre de M. le Gouverneur Général de l'Algérie à Messieurs le Comandant Militaire du Territoires de Ghardaia-Laghouat, Alger, le 30 mars 1908.
- القواميس والموسوعات:
169. G. Malleterre et P. Legendre, Atlas Colonial et des Colonies Françaises, Librairie CH. Delagrave, Paris, 1902.
170. La lettre (G), et Legendre (P), Atlas Colonial et des Colonies Française, Librairie, Ch, de la Grare, Paris, 1902.
171. Mccarthy (M.O), Dictionnaire Géographique, Economique, Politique de l'Algérie, Alger, 1858.
172. MomocCarthy, Dictionnaire Géographique Economique Politique de l'Algérie, Alger, 1858.

I. ملاحق الوثائق:

1- رسالة من مؤسسة خاصة باستغلال الحلفاء في دائرة سعيدة إلى قائد إقليم عين الصفراء بتاريخ 23 مارس 1913.

P. Carrafang
SAÏDA

Saïda, le 23 Mars 1913 ¹⁵⁶

Monsieur le Général Lève
Commandant la Subdivision
Eni Sefra

Monsieur Général,

Tous m'avez demandé de vous remettre une note sur la réglementation de l'alfa au sud des chotts, particulièrement en ce qui concerne la région de Boukhtoub.

Je ne saurais mieux faire qu'en vous donnant copie de la lettre que j'adressai à Monsieur le Gouverneur Général le 8 juillet 1912.

La situation a empiré depuis à la suite de la tolérance donnée.

Il est urgent de mettre un terme à cette dévastation qui tue la paille aux yeux d'or de cette contrée.

La zone de protection doit être reportée à 20 Kil. de Boukhtoub. Interdiction absolue doit être faite d'explorer dans l'intervalle. Les bascules d'achat doivent être placées à 20 Kil. de ce point. C'est le point capital. En effet, les indigènes trouvant des nappes riches à l'avant, à gros rendement, n'ont pas rétrogradé au arrière dans la section appauvrie dont la cueillette serait même rémunératrice.

Les acheteurs ne seront pas lésés non plus, car ils tiennent compte de la distance et paient un prix moindre.

En fin de cueillette, les indigènes trouveront dans le transport de cet alfa en gare de Boukhtoub un surcroît de ressource qui est perdu pour eux en l'état actuel.

Il faut noter aussi que le commerce apprécie les qualités. Quand il le trouve

en présence de produits, comme ceux de ces zones appauvries, il lui fait subir de fortes dépréciations : les cours sont avilis ; qui en supporte le contre coup, c'est l'origine. C'est le résultat d'une observation de toute années pendant lesquelles j'ai fait ce commerce. J'ai acheté aussi dans la région de Bouktoub, mais trouvant la première zone affaiblie, à produits chétifs, de nature à déprécier les qualités, j'avais installé une bascule à 20 et 30 Kilom. de la gare jusqu'à Hassi Cédra.

Pour terminer et afin de mieux vous édifier, je me permettrai de vous donner un conseil ! Il est des sommités techniques qui ont étudié cette région depuis un grand nombre d'années : M. M. Mathieu et Crabut. Le premier est mort. M. Crabut exerce son professorat à Alger. Vous pourriez lui adjointre M. Garnier, Inspecteur des Eaux et Forêts à Ouedj qui a longtemps administré la Subdivision de Mascara et fait plusieurs inspections de ces peuplements.

Ces spécialistes ont vu le mal depuis l'origine ; ils l'ont signalé et ont préconisé les mesures pour l'enrayer.

Un nouvel examen, bien approfondi, leur permettra de comparer la situation actuelle avec l'ancienne, les ruines amoncelées par le défaut d'observation des mesures combinatoires recommandées.

Leurs opinions autorisées vous serviront le meilleur remède à apporter, mieux que ne le saurait faire ma faible expérience.

Quant aux autres zones, je suis d'avis, d'en observer jalousement les condamnations. Dans ces terrains sablonneux, l'alfa tient légèrement, à moins de résistance que dans les parties tuffeuses ; une fois disparu, il ne se reproduit plus.

Permettez-moi, Mon Général, l'expression de ma considération la plus distinguée.



2- رسالة من رئيس مصلحة المياه والغابات بقسنطينة إلى الحاكم العام بالجزائر بتاريخ 21 فيفري 1915.

170

Constantine, le 21 Février 1915

ALGERIE

EAUX ET FORÊTS

CONSERVATION
DE
CONSTANTINE

Le Conservateur des Eaux et Forêts à Constantine,
à Monsieur le Gouverneur Général à Alger.

N° 171

réponse à lettre
n° 688
du 11 Février 1915

OBJET :
alfa-

24 FEV. 1915

Sur la demande de M. le Général Lévi, nous avons bien voulu me procurer l'établissement rapide sur l'histoire de l'alfa et de l'industrie alfatine en ce qui concerne la conservation de l'Constantine.

J'ai l'honneur de vous faire connaître que la question me paraît simple dans le Département. Il n'y a pas, à proprement parler, d'histoire des alfas -

Cette plante se rencontre en abondance au sud d'une ligne que j'ai définie dans différents rapports qui ont été adressés à M. le Préfet en Mars et Mai 1911 pour fixer la limite entre le Tell et les Hauts Plateaux -

Elle se comporte au point de vue de la végétation comme dans les autres départements algériens et en Tunisie.

De tout temps, les indigènes l'ont utilisée pour leurs usages domestiques (nattes - cordes - chaussures - couverture de gourbis - nourriture de bétail - etc.) - Ils l'arrachent sans aucun soin, sans aucun souci de l'avenir, partout où ils séjournent -

L'industrie alfatine européenne représentée

DIRECTION DES EAUX ET FORÊTS
- 1 MARS 15
V° 155

3- رسالة من النقيب Le Capitaine LaGrange قائد دائرة مشرية إلى الجنرال قائد إقليم عين الصفراء حول استغلال الحلفاء بتاريخ 18 نوفمبر 1912.

Commandant Général de l'Algérie
Territoires du Sud
Cercle de M'El-Mecheria
Indigènes
N° 2318
Objet :
de l'exploitation
de l'alfa.
XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

M'El-Mecheria, le 18 Novembre 1912
Le Capitaine Lagrange
XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX
Chef de l'Administration de M'El-Mecheria, à Monsieur
le Général, Commandant le Territoire
Kin-Sefra

En réponse à votre télégramme N° 785, j'ai l'honneur de vous rendre compte que la cueillette de l'alfa n'a pas été faite depuis le 1^{er} Mars 1912 dans la région de Bou-Ktoub appartenant au Cercle de M'El-Mecheria.

La zone exploitable pendant la campagne 1912-1913 est celle du Sud-Est, N° 2 et les alfatiers ne seront pas intéressés légalement, en ce qui concerne le Territoire du Cercle, par l'application de l'arrêté du 11 Avril 1912 avant la campagne 1914-1915.

Toutefois, étant donné la pauvreté des nappes d'alfa dans la région de Bou-Ktoub, l'application immédiate de cet arrêté est nécessaire, car, ~~malgré la surveillance incessante exercée~~ malgré la surveillance incessante exercée, la cueillette est faite tous les ans, en raison de la permanence des chantiers établis dans le centre de Bou-Ktoub:/.
Signé: Lagrange.

- 5- رسالة من قائد الكتيبة بوجي (Pouget) قائد دائرة جرفيل إلى السيد قائد إقليم عين الصفراء حول موضوع تطبيق القرار الحكومي الصادر بتاريخ 11 أبريل 1912 الرسالة مؤرخة في 23 نوفمبر 1912.

Géryville, le ... 23 Novembre 1912. 191
147

Gouvernement Général de l'Algérie
Bureaux du Chef
Territoire d'Alger - Séfia
Cercle de Géryville
Affaires Indigènes
N° 854...

Objet:
A.S. de l'application
de l'arrêté Gouverne-
mental du 11
Avril 1912
xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

le ... Chef de Bataillon POUGET
Commandant Supérieur du Cercle de Géryville
à Monsieur le Général, Commandant le Territoire
Alger - Séfia.

Le 14 Novembre dernier, par télégramme n° 788, vous avez bien voulu me faire connaître que M. le Gouverneur Général désirait être renseigné sur l'état d'avancement de la cueillette de l'alfa dans la région de Bâu-Ktoub, et savoir si les intérêts des alfatiers exploitants ont été suffisamment sauvegardés par la suspension de l'arrêté Gouvernemental du 11 Avril 1912, et me demander un rapport précis sur la question.

J'ai l'honneur de vous rendre compte que les achats d'alfa doivent se continuer jusqu'à la fin de février 1913 c'est à dire pendant trois mois encore. Toute mesure restrictive prise avant la fin de la campagne porterait un gros préjudice aux alfatiers.

Il ne me paraît pas possible, au surplus, de dénoncer les baux intervenus entre la Commune de Géryville et les locataires de chantiers, sans que ces derniers soient en droit de réclamer à la dite commune des sommes considérables à titre de dommages intérêts. En conséquence, je ne pense pas que l'arrêté du 11 Avril 1912 puisse être appliqué avant la campagne de 1913.

Quoiqu'il en soit, il n'y a pas à se dissimuler que la question se posera toujours de la manière suivante:

D'un côté, les alfatiers soucieux d'en être pas obligés à de longs ~~shamix~~ charrois, et défendront en cela leurs intérêts, feront chaque année tous leurs efforts pour s'établir le plus près possible de la voie ferrée. C'est alors la réduction de la zone exploitée à une région d'étendue relativement petite, et la disparition de l'alfa dans cette région en un avenir plus ou moins lointain.

Les exploitants déclarent d'ailleurs à qui veut l'entendre que l'alfa soumise à un arrachage intensif est, pour eux, la meilleure des toîtes.

De l'autre côté il est du devoir de l'Administration de ~~caler~~ signaler le péril, et de faire remarquer que les environs immédiats de Bou-Ktoub ne renferment déjà plus d'alfa, ainsi que l'a constaté l'inspecteur-adjoint des eaux et forêts chargé de faire, en 1910, la visite des peuplements d'alfa dans les Cercles de Méchéria et de Géryville.

Je ne me dissimule pas cependant que l'application de l'arrêté du 11 Avril 1912 entraînera une très forte diminution du nombre des chantiers d'alfa, en raison de l'éloignement de la gare expéditrice, et, par suite, une perte très sensible pour les indigènes du Cercle, et la Commune-mixte de Géryville.

Le problème se pose ~~maintenant~~ nettement pour l'Autorité supérieure de choisir entre cette perte qui ne sera probablement d'ailleurs, que de quelques années, et le danger de la diminution des peuplements d'alfa, qui, elle sera définitive./

Signé: POUGET

6- رسالة من الحاكم العام إلى القائد العسكري لإقليم غرداية-الأغواط تخص مصادرة الأراضي المشاعة من أجل المنفعة العامة بالأقاليم الصحراوية بتاريخ

30 مارس 1908.

Gouvernement Général
de l'Algérie

R e p u b l i q u e F r a n ç a i s e

Territoires du SUD

Inspection des Services
Administratifs et

Alger, le 30 Mars 1908

N° I584

S. de l'aliénation ou
la mise en valeur des
terrains vagues et in-
cultes dans les Terri-
toires du SUD

Le Gouverneur Général de l'Algérie

à Monsieur le Commandant Militaire, au

Territoire de Ghardaia Laghouat

Vous m'avez transmis le 26 Février dernier, sous le
N° 405, avec diverses pièces à l'appui, une délibération par
laquelle la djemaa de la tribu de Mekhalif Lazreg (Annexe de
Laghouat) cède au nommé Si Mohamed ben Amar, la jouissance d'un
terrain vague d'une superficie de 50 hectares environ, situé
à Rechag, sur la rive gauche de l'Oued M'zi.

L'intervention de la djemaa dans cette affaire donne
lieu aux observations suivantes :

A diverses reprises, j'ai pu constater que les auto-
rités locales ont une tendance marquée à considérer les tribus
comme propriétaires des terrains vagues et incultes situés
sur leur territoire, et invitent, par suite, les djemaas à
statuer sur toutes les demandes d'aliénation ou d'amodiation
de ces terrains? Il convient, au contraire, de remarquer que,
dans les régions du Sud qui n'ont pas été soumises aux opéra-
tions du Sénatus-Consulte et où, par conséquent, il n'existe
encore aucun classement légal du sol, rien n'établit en prin-
cipe, les droits des tribus à la propriété de ces vastes su-
perficiées incultes. Il existe, au contraire, une présomption
très forte pour que, sous réserve de certains droits de par-
cours pouvant être exercés par les tribus, ces terrains appar-
tiennent à l'Etat, soit à titre de biens vacants et sans maître,
soit en vertu du droit de souveraineté.

L'Etat a donc seul qualité pour consentir s'il y a lieu l'aliénation ou la concession de parcelles de ces terrains aux particuliers désireux de les mettre en valeur.

Non seulement des interventions de ~~Ajemass~~ dans les questions de cette nature sont abusives, mais elles peuvent aboutir à des conséquences fâcheuses, elles ~~peuvent~~ servir de base à des prétentions injustifiées de la part des collectivités indigènes lorsqu'il est procédé à la constitution définitive de la propriété dans une région par application du Sénatus-Consulte. C'est ce qui s'est produit il y a quelques années pour certaines tribus du Sud et notamment dans les Zibans. Il importe donc de prévenir le retour de faits semblables. -

Vous voudrez bien, en conséquence, attirer sur ces divers points l'attention de M.M. les Commandants Supérieurs et Chefs d'Annexe de votre Territoire, avant de saisir les ~~Ajemass~~, ils devront me transmettre toute demande d'attribution, à un titre ~~quelconque~~ quelconque, de terrain non effectivement occupé. Ils y joindront un rapport contenant tous renseignements utiles sur la situation et l'état actuel des terrains et leur avis personnel sur la requête présentée. Un plan des terrains en double exemplaire, devra toujours être annexé au dossier.

Une première application de cette règle peut-être faite pour le règlement de la question qui a fait l'objet de votre transmission du 26 Février dernier, N° 405.

Le dossier communiqué est ci-joint./.

P. Le Gouverneur Général
Le Secrétaire Général du Gouvernement
Signé: Maurice VARNIER.

Copie conforme adressée à Monsieur le Général Commandant le Territoire d'Ain-Séfra, avec prière de vouloir bien porter les instructions contenues dans la présente

dépêche, à la connaissance de M.M. les Commandants Supérieurs
Chefs d'Annexe et de Poste de votre Territoire en les invi-
tant à s'y confirmer à l'avenir, pour l'instruction de tou-
tes les demandes d'acquisitions de terrains vagues et incul-
tes dont ils viendraient à être saisis ./.

Alger, le 30 Mars 1908

Le Conseiller de Gouvernement chargé des
Territoires du Sud
Signé: de Saint-Germain.

Territoire d'Ain-Séfra

Affaires Indigènes

N° 696

Copie conforme notifiée à Monsieur le Chef de l'An-
nexe de

Beni-Sefra
B E N I - O U N I F

Ain-Séfra, le 3 Avril 1908

Le Général Commandant le Territoire

P.O. Le Capitaine, Chef du Bureau

des Affaires Indigènes

Signé : Illisible

Pour copie certifiée conforme

Le Capitaine Chef d'Annexe



II. ملاحق الجداول:

1- جدول يوضح شجرة العائلة لأولاد سيدي التاج وأولاد الحرمة¹.

DE L'ALGÉRIE.

349

SIDI TADJ		OUHAD EL HEURMA (Heurem)	
fils du grand SIDI CHEIKH et d'une femme d'El Oudar'ir (Figuig), enterré à El Abiod Sidi Cheikh.			
BEN ABDERRAHMAN BOU SMAHA enterré à El Abiod Sidi Cheikh	BRAHIM enterré à Moghrar taitani	Tadj.....	Mohammed
	BRAHIM enterré aux Beni Smiel (Lanoficère)	Ben Zian....	Bou Allèle V
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	Bou Smaha V	sans enfants
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	El Arbi ..	Mohammed, dit Bou Amama, le chef de l'insurrection de 1881 (a un frère de mère Mohammed bou Zian qui vit à El Hammam foukani)
M'HAMMED enterré à Chellala Dahrania près de la Kouba de Si Mohammed ben Sliman	BRAHIM enterré à El Hammam foukani		Tulob (45 ans) } un fils El Arbi (6 à 7 ans) né à Deldoni
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	Mohammed el Heurma V.	sans enfants
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	El Heurma V	Mohammed
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	Cheikh V ...	sans enfants
BOU SMAHA	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	El Menouar.	Mohammed V — pas d'enfants Ahmed V — pas d'enfants Tadj V — un fils en bas âge Maamar M — 2 filles
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	Ahmed	pas d'enfants
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	Mohammed .	pas d'enfants
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	El R'azi....	un fils
CHEIKH enterré à Moghrar taitani	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	Kaddour....	Mohammed M'hammed
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	El Menouar.	Bou Hafs M Ben Dahman M
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	Ben Sliman..	Chellali M
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	Maamar	El Bachir M Kaddour Ahmed
Bou Hafs	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	El Amouri...	Mohammed Cheikh Kaddour Sliman
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	Cheikh	Maamar Miloud V
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	El Amouri...	Bou Hafs } Bou Douia M chef de douar de 1888 à 1891
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	Kaddour....	Tadj M Sliman M
Bou Hafs	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	Ben Sliman.	Mohammed M.. } Cheikh nommé caïd en 1858 tué en 1891
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	El Habib....	El Habib M Kaddour M
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	Bekkouch...	Brahim M
	BRAHIM enterré à El Hammam foukani	M'hammed..	Cheikh El Arbi Brahim El Hadj Ahmed..... } El Medjdoub, caïd actuel (1895) Maamar M

¹. De La Martinière et Lacroix, op.cit, p349.

5- قائمة الخيام من القبائل الجزائرية التي هاجرت إلى مناطق الجنوب الشرقي للمملكة المغربية في الثلاثي الأول من عام 1895¹.

D'ORIGINE ALGÉRIENNE.

929

RELEVÉ DES TENTES D'ORIGINE ALGÉRIENNE

RÉFUGIÉES DANS LES TRIBUS DU SUD-EST DU MAROC
OU DANS DES LOCALITÉS DU SUD EN DEHORS DE NOTRE ACTION IMMÉDIATE,
au premier semestre 1895.

TRIBUS ou LOCALITÉS où elles résident actuellement.	NOMBRE de tentes algériennes qui y résident.	ANNÉE de leur émi- gration.	TRIBUS ALGÉRIENNES d'où elles sont originaires.	CIRCONSCRIPTIONS administratives algériennes auxquelles elles appartiennent.			OBSERVATIONS.
				Cercles ou annexes.	Subdivi- sions.	Divi- sions.	
Beni Guil.....	1	1881	Rezaïna Cheraga.....	Saïda.	Mascara.	Oran.	Toutes les tentes du cercle d'Aïn Sefra en dissidence qui sont mentionnées ici, campent indifféremment avec les Beni Guil et les autres tribus marocaines voisines suivant l'intérêt du moment. La plupart étaient récemment encore, par exemple, avec les Oulad Djerir comme il a été montré dans le travail consacré aux tribus d'Aïn Sefra au cours de cet ouvrage. Quelques-unes de ces tentes, presque toutes des Oulad Abdallah et principalement la fraction des Oulad El Aouer ne quittent guère le Djebel Beni Smir. La plupart des Oulad Gottib (40 tentes environ) viennent d'aller rejoindre Bou Amama.
	1	1864	Rezaïna R'araba.....	D°	D°	D°	
	7	1881	D°	D°	D°	D°	
	1	1881	Oulad Zian R'araba.....	Tiaret.	D°	D°	
	52	1881	M'rabtîn R'araba.....	D°	D°	D°	
	5	1864	Oulad Ziad Cheraga	Géryville.	Aïn Sefra.	D°	
	3	1881	Oulad Ziad R'araba.....	D°	D°	D°	
	1	1881	Oulad Maallah	D°	D°	D°	
	2	1864	Rezeïgat.....	D°	D°	D°	
	2	1864	Oulad Moumen.....	D°	D°	D°	
	3	1864	Oulad Aïssa ou Gueraridj	D°	D°	D°	
	1	1864	Oulad Sidi Tifour.....	D°	D°	D°	
	2	1864	Arbaouat	D°	D°	D°	
	9	1864	Oulad Abdallah	Aïn Sefra.	D°	D°	
	6	1885	D°	D°	D°	D°	
	2	1886	D°	D°	D°	D°	
	5	1887	D°	D°	D°	D°	
	43	1888	D°	D°	D°	D°	
	6	1889	D°	D°	D°	D°	
	3	1894	D°	D°	D°	D°	
A reporter..	1	1885	Oulad Gottib.....	D°	D°	D°	
	10	1888	D°	D°	D°	D°	
	3	1889	D°	D°	D°	D°	
	17	1891	D°	D°	D°	D°	
	30	1894	D°	D°	D°	D°	
A reporter..		216					

¹. De La Martinière et Lacroix, op0cit, pp929-935.

TRIBUS ou LOCALITÉS où elles résident actuellement.	NOMBRE de tentes algériennes qui y résident.	ANNÉE de leur émi- gration.	TRIBUS ALGÉRIENNES d'où elles sont originaires.	CIRCONSCRIPTIONS administratives algériennes auxquelles elles appartiennent.			OBSERVATIONS.
				Cercoles ou annexes.	Subdivi- sions.	Divi- sions.	
<i>Report...</i>	216						
	62	1884	Medabiah.....	Aïn Sefra.	Aïn Sefra.	Oran.	
	1	1888	D°	D°	D°	D°	
	4	1884	Oulad Selim.....	D°	D°	D°	Contumax appartenant à une des trois fractions: Merinat, Oulad bou Cha- reb, Oulad Chahmi, qui cons- tituaient l'ancienne tribu des Oulad Selim.
	2	1885	D°	D°	D°	D°	
	1	1886	D°	D°	D°	D°	
	3	1887	D°	D°	D°	D°	
	10	1888	Merinat.....	D°	D°	D°	
	7	1889	D°	D°	D°	D°	
	39	1888	Oulad bou Chareb.....	D°	D°	D°	
	44	1888	Oulad Chahmi	D°	D°	D°	
	3	1888	Oulad Aneur	D°	D°	D°	
	1	1888	Oulad Sliman.....	D°	D°	D°	
	63	1888	Oulad Aliat	D°	D°	D°	
Beni Guil (suite).	16	1894	Cheurfia.....	D°	D°	D°	
	2	1886	Oulad Sidi Tadj.....	D°	D°	D°	Sont allés rejoindre tout récemment Bou Amama.
	13	1893	D°	D°	D°	D°	
	1	1889	Akerma.....	Méchéria.	D°	D°	Cette tente originaire de Laghout habitait depuis plus de 20 ans les Akerma.
	1	1889	Oulad Mansoura.....	D°	D°	D°	
	2	1881	R'iatra Oulad Ahmed...	D°	D°	D°	Aux Oulad Ali bel Hassen (Beni Gull).
	2	1893	D°	D°	D°	D°	Aux Oulad Farès (Beni Gull)
	4	1893	Mer'aoulia	D°	D°	D°	D°
	3	1894	D°	D°	D°	D°	Aux Oulad Brahim (Beni Gull).
	7	1874	Oulad Farès.....	D°	D°	D°	Aux Oulad Farès (Beni Gull)
	1	1889	Frahda	D°	D°	D°	
	2	1890	D°	D°	D°	D°	D°
	4	1894	D°	D°	D°	D°	D°
	4	1874	Oulad Toumi.....	D°	D°	D°	
Total.....	518						

D'ORIGINE ALGÉRIENNE.

931

TRIBUS ou LOCALITÉS où elles résident actuellement.	NOMBRE de tentes algériennes qui y résident.	ANNÉE de leur émi- gration.	TRIBUS ALGÉRIENNES d'où elles sont originaires.	CIRCONSCRIPTIONS administratives algériennes auxquelles elles appartiennent.			OBSERVATIONS.
				Cercles ou annexes.	Subdivi- sions.	Divi- sions.	
Oulad Sidi Cheikh R'araba (Zoua R'araba).	1	1881	Oulad Ziad R'araba.....	Géryville.	Aïn Sefra.	Oran.	Avec Si Allal.
	3	1881	Derraga R'araba.....	D°	D°	D°	D°
	1	1884	Rezeïgat.....	D°	D°	D°	D°
	3	1884	Oulad Moumen.....	D°	D°	D°	D°
	21	1894	El Abiod Sidi Cheikh (Mohabda).....	D°	D°	D°	D°
	6	1895	D°	D°	D°	D°	D°
	1	1889	Akerma.....	Méchéria.	D°	D°	Aux Oulad Sidi Mohammed cette tente originaire de La- ghouat habitait depuis plus de 20 ans avec les Akerma.
	6	1889	Oulad Mansoura.....	D°	D°	D°	Aux Oulad Sidi Mohammed
	4	1895	D°	D°	D°	D°	
	4	1885	Oulad Toumi.....	D°	D°	D°	
	9	1880	D°	D°	D°	D°	
	7	1881	Oulad Embarek.....	D°	D°	D°	Aux Oulad Sidi el Hadj Abdelhakem.
	2	1894	D°	D°	D°	D°	Aux Oulad Sidi el Hadj Brahim.
	1	1889	Akerma.....	D°	D°	D°	Cette tente originaire de Laghout habitait depuis plus de 20 ans avec les Akerma.
	4	1887	Oulad En Nehar R'araba.	El Aricha	Tlemcen.	D°	Avec Si Allal.
Total.....	73						
Avec Bou Amama.	1	1881	Akerma.....	Géryville.	Aïn Sefra.	Oran.	Bou Amama a en outre avec lui 40 tentes des Oulad Gottib (Amour) et 15 des Oulad Sidi Tad qui ont quitté tout récemment les Bent Guil chez lesquelles elles s'étaient primitivement réfugiées. A ces chiffres il faut ajouter une quarantaine de tentes des Oulad Sidi Cheikh R'araba (Oulad Sidi ben Aïssa et Oulad Sidi El Hadj Brahim), une centaine de tentes des Oulad Djerir et environ 150 des Doui Menia; soit au total 500 tentes pouvant fournir environ 6 à 700 fusils.
	1	1888	Oulad Moumen.....	D°	D°	D°	
	1	1889	Beni Thour.....	Ghardaïa.	Laghout	Alger.	
	1	1880	Mekhadma.....	D°	D°	D°	
	1	1890	D°	D°	D°	D°	
	4	1894	D°	D°	D°	D°	
	1	1884	Chaanba Oulad Smail...	D°	D°	D°	
	5	1890	D°	D°	D°	D°	
	1	1891	D°	D°	D°	D°	
A reporter..	2	1892	D°	D°	D°	D°	
	18						

D'ORIGINE ALGÉRIENNE.

935

TRIBUS ou LOCALITÉS où elles résident actuellement.	NOMBRE de tentes algériennes qui y résident.	ANNÉE de leur émi- gration.	TRIBUS ALGÉRIENNES d'où elles sont originaires.	CIRCONSCRIPTIONS administratives algériennes auxquelles elles appartiennent.			OBSERVATIONS.
				Cercles ou annexes.	Subdivi- sions.	Divi- sions.	
Aït Khebbach (Aït Atta)	1	1864	Rezaïna R'araba.....	Saïda.	Mascara.	Oran.	
	1	1881	D°	D°	D°	D°	
	2						
Reteb (oued Ziz).....	2	1864	Oulad Abdelkerim	Géryville.	Aïn Sefra.	Oran.	
Total.....	2						
Oulad El Hadj.....	1	1864	Rezaïna R'araba.....	Saïda.	Mascara.	Oran.	
	1	1881	D°	D°	D°	D°	
	2						
Merakech.....	1	1864	Rezaïna R'araba.....	Saïda.	Mascara.	Oran.	
	1	1876	D°	D°	D°	D°	
	2	1881	D°	D°	D°	D°	
	13	1864	El Abiod Sidi Cheikh...	Géryville.	Aïn Sefra.	D°	
Total.....	17						
Meknas.....	1	1874	Bou Semr'oun.....	Géryville.	Aïn Sefra.	Oran.	
	1	1877	D°	D°	D°	D°	
	2						
Résidence inconnue..	1	1881	Kaabra.....	Tiaret.	Mascara.	Oran.	
	1	1881	Oulad Sidi En Nasseur..	Aïlou.	D°	D°	
	17	1864	Oulad Ziad R'araba....	Géryville.	Aïn Sefra.	D°	
	3	1888	Bekakra.....	Méchéria.	D°	D°	
	3	1889	D°	D°	D°	D°	
	6	1895	R'iatra Oulad Messaoud.	D°	D°	D°	
Total.....	31						

6- جدول يوضح أسماء الحكام العامون الذين تولوا قيادة عين الصفراء وإقليم عين الصفراء¹.

القائد الأعلى	دائرة عين الصفراء
الرائد مارمي commandant Marmet	1887-1882
الرائد دومونتولون commandant de Montholon	1889-1887
المقدم دو برويل Lieut.Colo de Breuil	1893-1889
الرائد ريليون commandant Reuillon	1895-1893
الرائد كالي دو سانت بول com.Calley de St Paul	1895-1894
الجنرالات الذين حكموا الشعبة	شعبة عين الصفراء
الجنرال مارمي Général Marmet	1897-1895
الجنرال دوسانت جرمان Général de St Germain	1900-1897
الجنرال بيرترونند Général Bertrand	1901-1900
الجنرال كوشماز Général Cauchemez	1903-1901
الجنرال بروت Général Prot	1903
الجنرال ليوتي Général Lyautey	1906-1903
الجنرالات الذين قادوا الإقليم	إقليم عين الصفراء
الجنرال ليوتي Général Lyautey	1907-1906
الجنرال فيجي Général Vigy	1908-1907
الجنرال أليكس Général Alix	1909- 19

¹. La Présentation Saharienne (1830-1907), Documents manuscrits, S.A, Edit, I.F, Paris, London, S.D.

7- جدول يوضح تطور رؤوس الأبقار بالإقليم ما بين 1900 إلى 1912¹.

السنوات الدوائر	1900	1901	1902	1903	1904	1905	1906	1907	1908	1909	1910	1911	1912
عين الصفراء	439	424	739	903	603	574	823	637	644	643	739	736	866
مشرية	254	454	505	435	147	171	399	552	620	717	980	1105	2052
البيض	1429	1924	2629	4283	2533	2655	2464	3657	4182	3946	5045	5394	5894
المجموع	2162	2802	3873	5621	3283	3400	3686	4846	5443	5356	6764	5394	5894

¹. Mesnier, p197.

8- جدول يوضح القيادات والوحدات الإدارية التي تتكون منها الأقاليم الجنوبية والتعديلات التي طرأت عليها من 1902 إلى 1905¹.

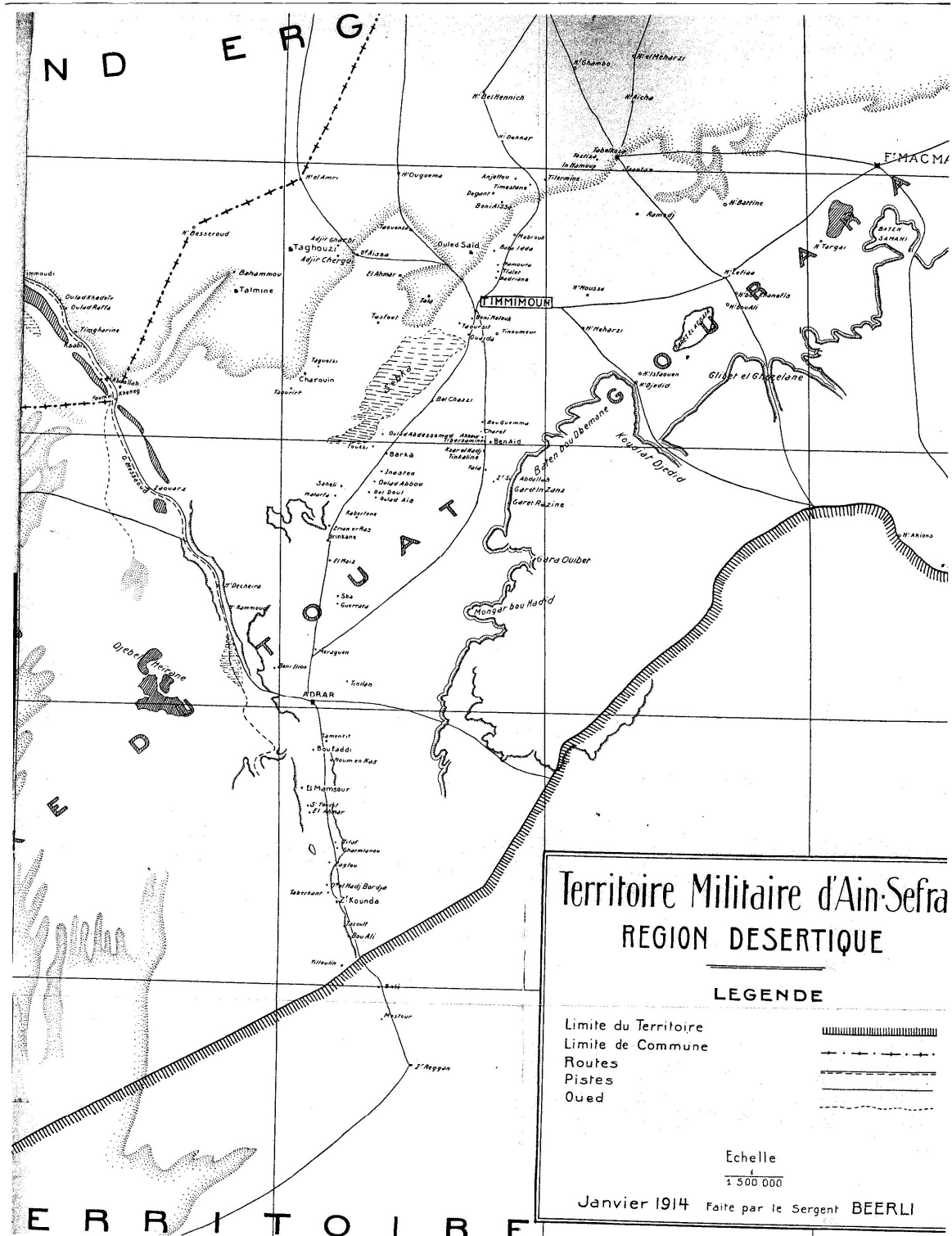
— 33 —

1902		1908	
ORGANISATION DES TERRITOIRES DE COMMANDEMENT AVANT LA LOI DE 1902		DECRETS DU 14 AOUT ET DU 12 DECEMBRE 1905	
Territoire de Commandement de la Division d'ORAN	Cercle de Tiaret. Cercle de Marnia... Annexe d'Aflou. Annexe de Saïda. Annexe d'El-Aricha. <i>Cercle de Méchéria.</i> <i>Cercle d'Ain-Sefra.</i> <i>Cercle de Géryville.</i> <i>Annexe de Djénan-Ed-Dar.</i> <i>Annexe de la Zousfana</i> <i>Annexe de la Saoura.</i>	Territoire d'AIN-SEFRA Chef-lieu AIN-SEFRA	Cercle de Méchéria. Annexe d'Ain-Sefra. Annexe de Béni-Ounif. Cercle de Colomb-Béchar et poste de Taghit et Talzaza. Annexe de Béni-Abbès. Cercle de Géryville.
Territoire de Commandement de la Division d'ALGER	Cercle de Boghar. Annexe de Chellala. Cercle de Bou-Saada. Annexe de Sidi-Aïssa. <i>Cercle de Djelfa.</i> <i>Cercle de Laghouat.</i> <i>Cercle d'El-Goléa.</i> <i>Annexe de Ghardaïa.</i> <i>Annexe d'Ouargla.</i>	Territoire de GHARDAIA Chef-lieu provisoire DJELFA	Annexe de Djelfa. Cercle de Laghouat. Cercle de Ghardaïa et poste d'El-Goléa. Annexe d'Ouargla.
Territoire de Commandement de la Division de CONSTANTINE	Annexe de Barika. Cercle de Tébessa. Cercle de Khenchela. <i>Cercle de Biskra (et poste de Tkout).</i> <i>Cercle de Touggourt.</i> <i>Annexe d'El-Oued.</i>	Territoire de TOUGGOURT Chef-lieu provisoire BISKRA	Annexe de Biskra. Cercle de Touggourt. Annexe d'El-Oued.
		Territoire des OASIS Chef-lieu ADRAR	Annexe du Touat. Annexe de Timimoun. Annexe d'In-Salah

N.B. — Les circonscriptions écrites en italique sont celles qui ont constitué les Territoires du Sud.

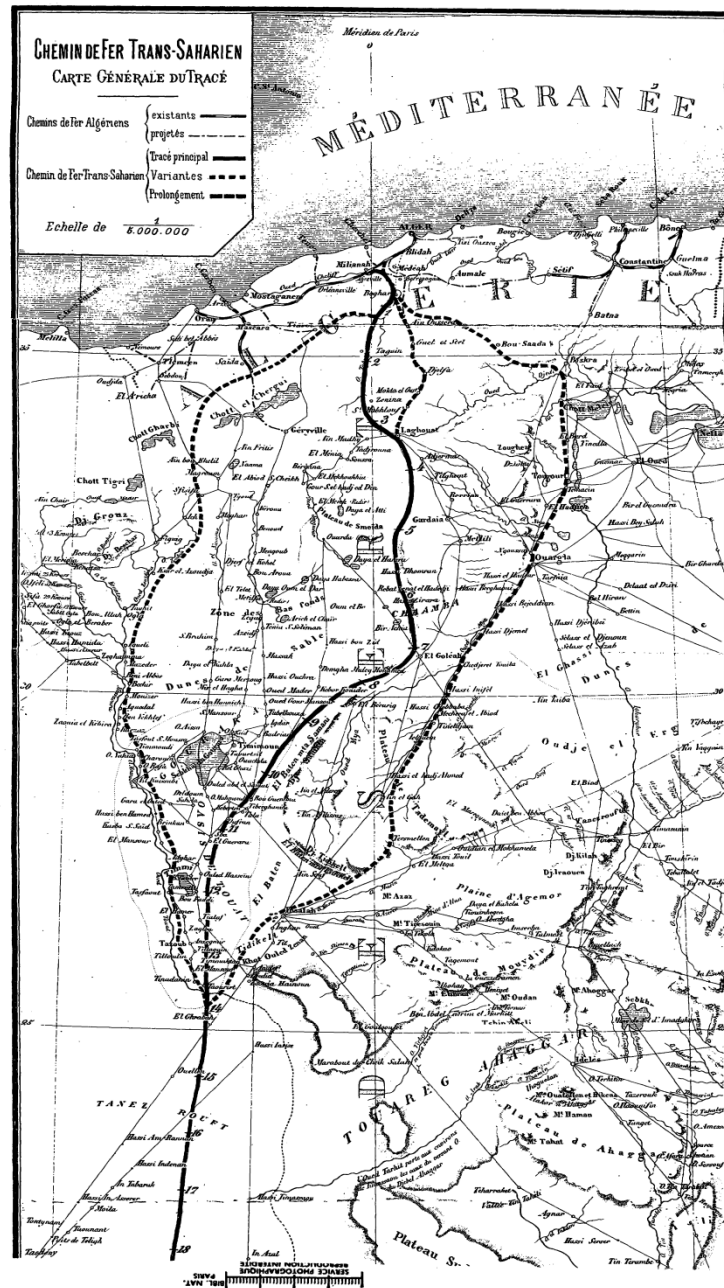
¹. G.G.A Exposé de la Situation du Territoire du Sud Année 19.3-1929, op.cit, p38.

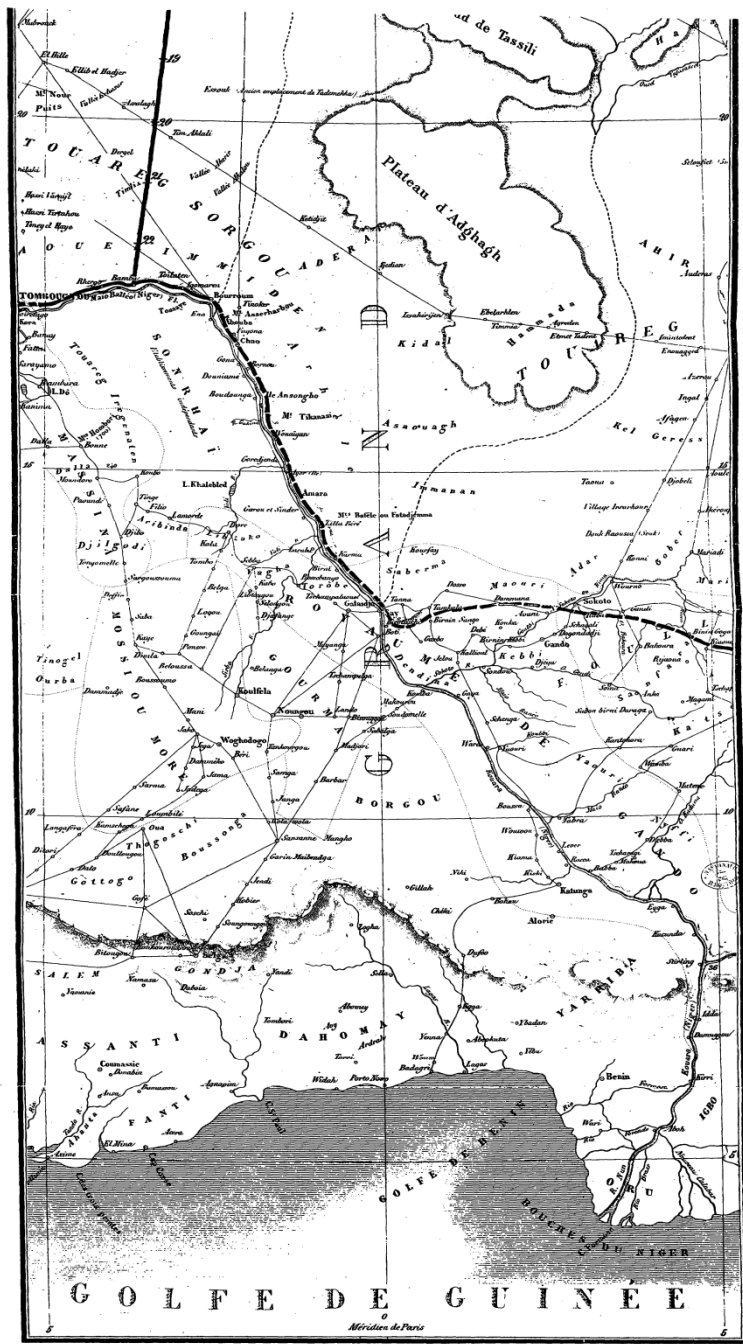
6- خريطة المنطقة الصحراوية بإقليم عين الصفراء¹.



¹. C. Meissner, Monographie du Territoire d'Ain Sefra, op.cit, p274.

7- سكة حديد النقل الصحراوي خريطة عامة للخط من إنجاز دوبونشال.

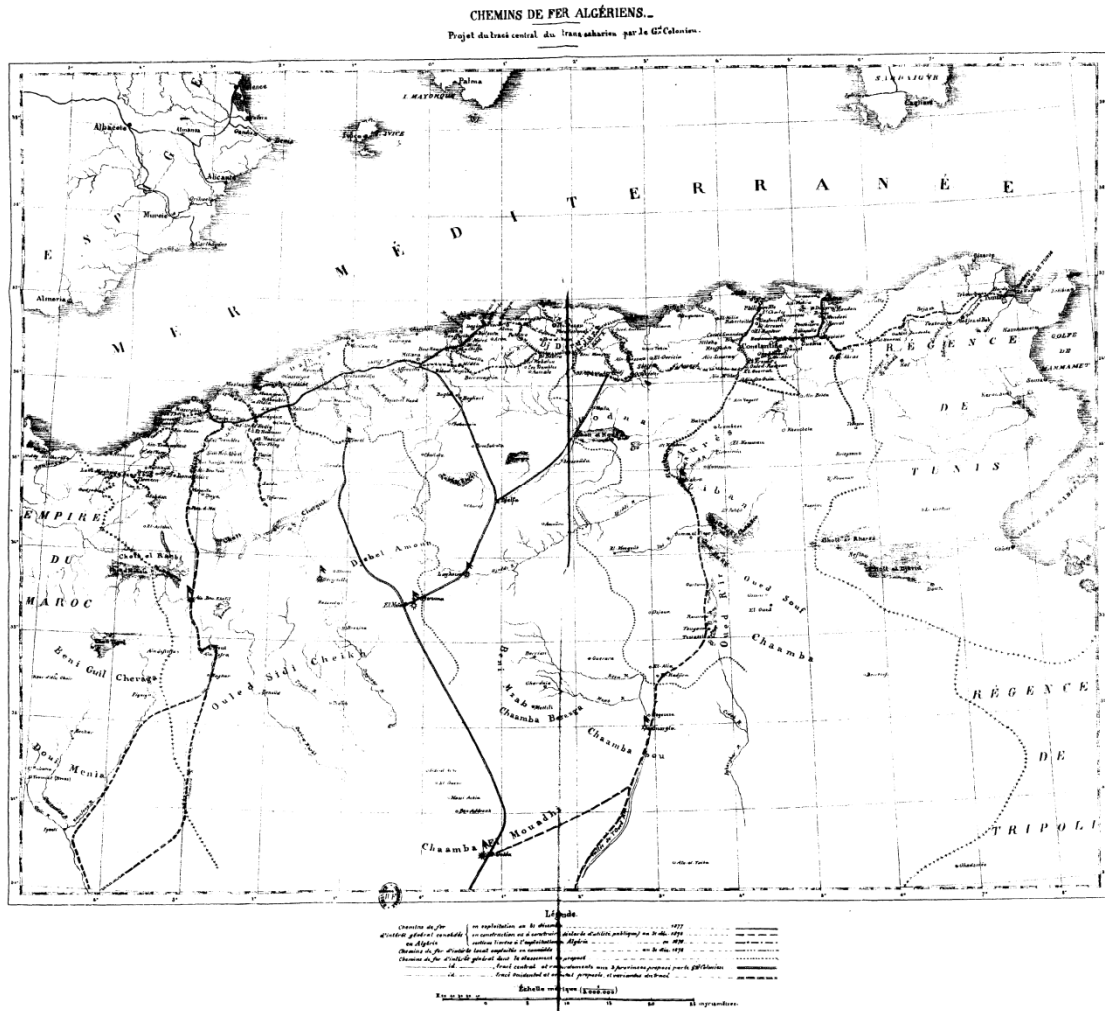




Lith. BOEHM & FILS, Montpellier

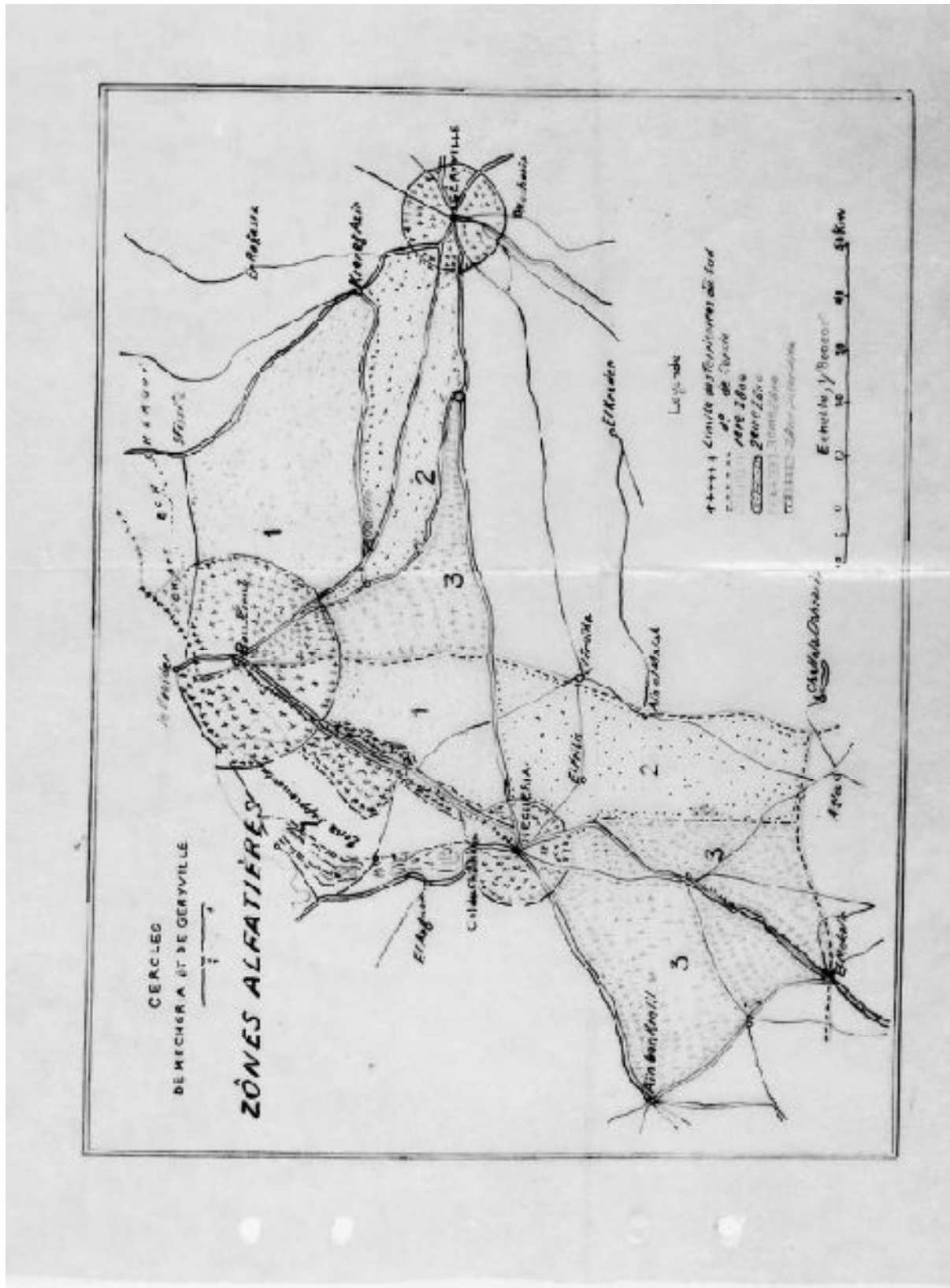
REPRODUCTION INTERDITE
SANS AUTORISATION
PARIS, 1900

8- سكك حديد الجزائر مشروع الخط الأوسط للنقل الصحراوي من إنجاز كولونيو¹.



¹. Colonieu, le Tracé Centrale du Chemin de Fer Trans-saharien, op.cit, p33.

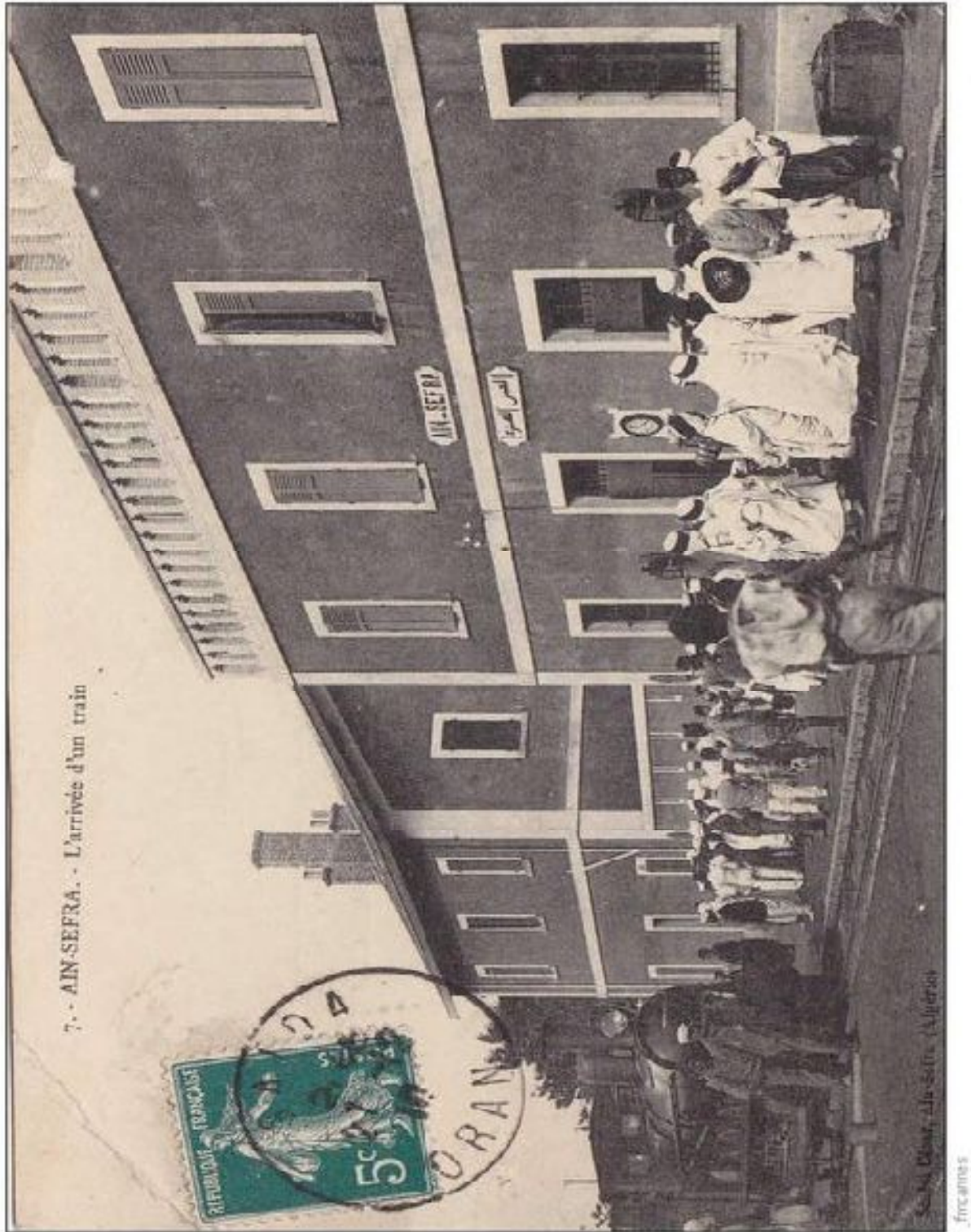
9- مناطق استغلال الحلفاء بإقليم عين الصفراء (دائرتي البيض ومشرية)¹.



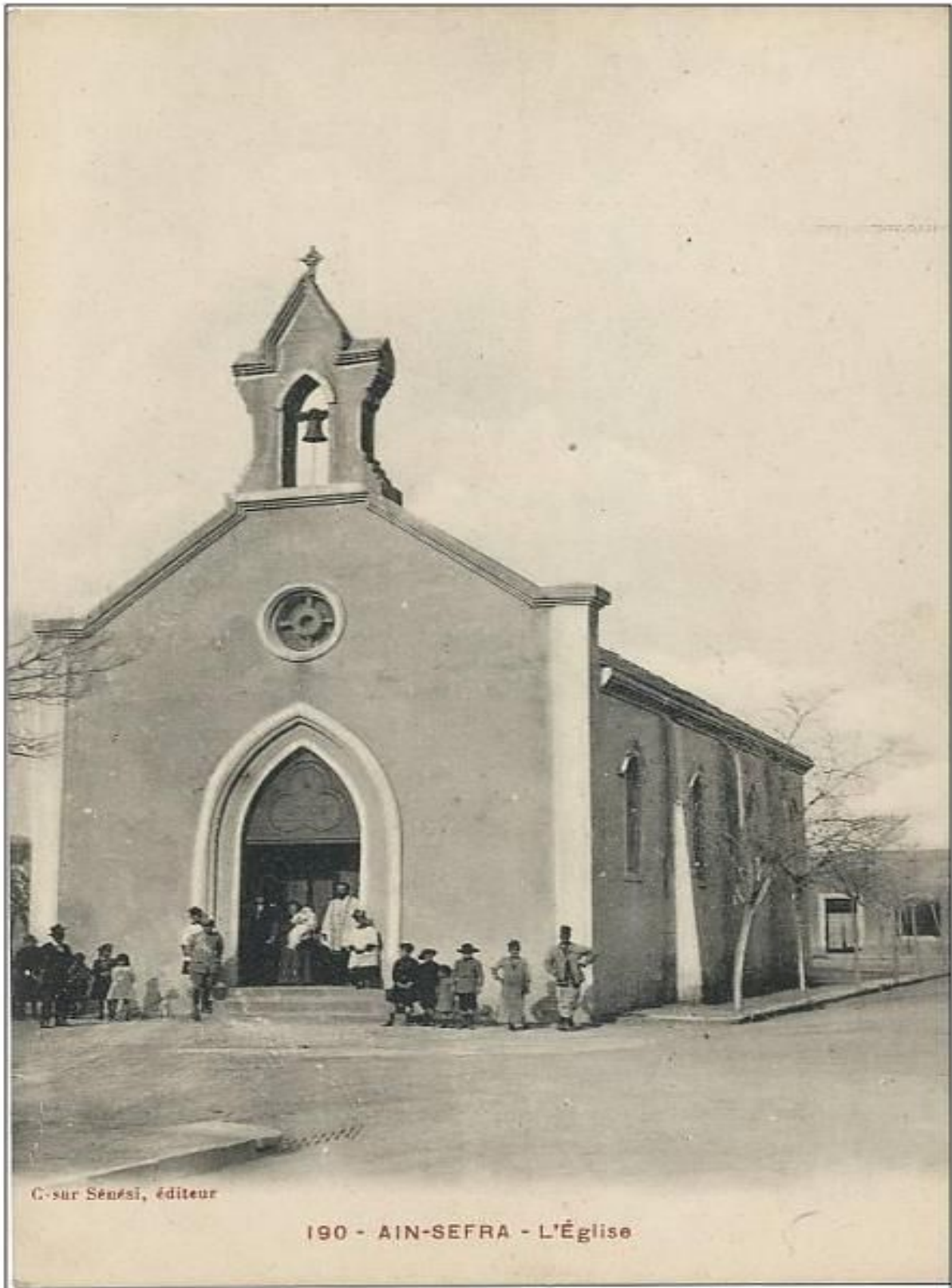
¹. أرشيف ولاية بشار.

IV. ملاحق الصور:

1- صورة لمحطة قطار عين الصفراء.

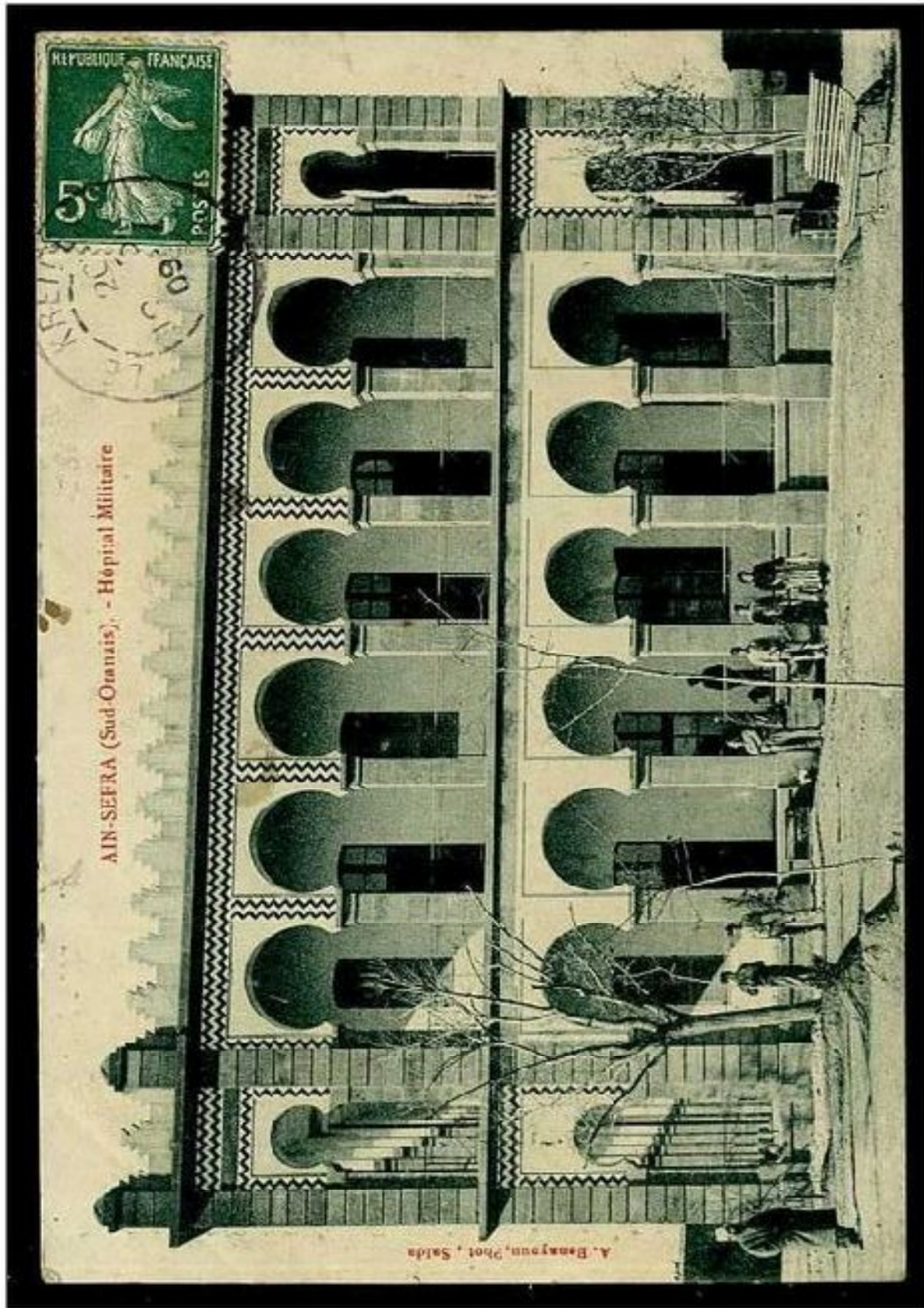


2- الكنيسة المسيحية بدائرة عين الصفراء.

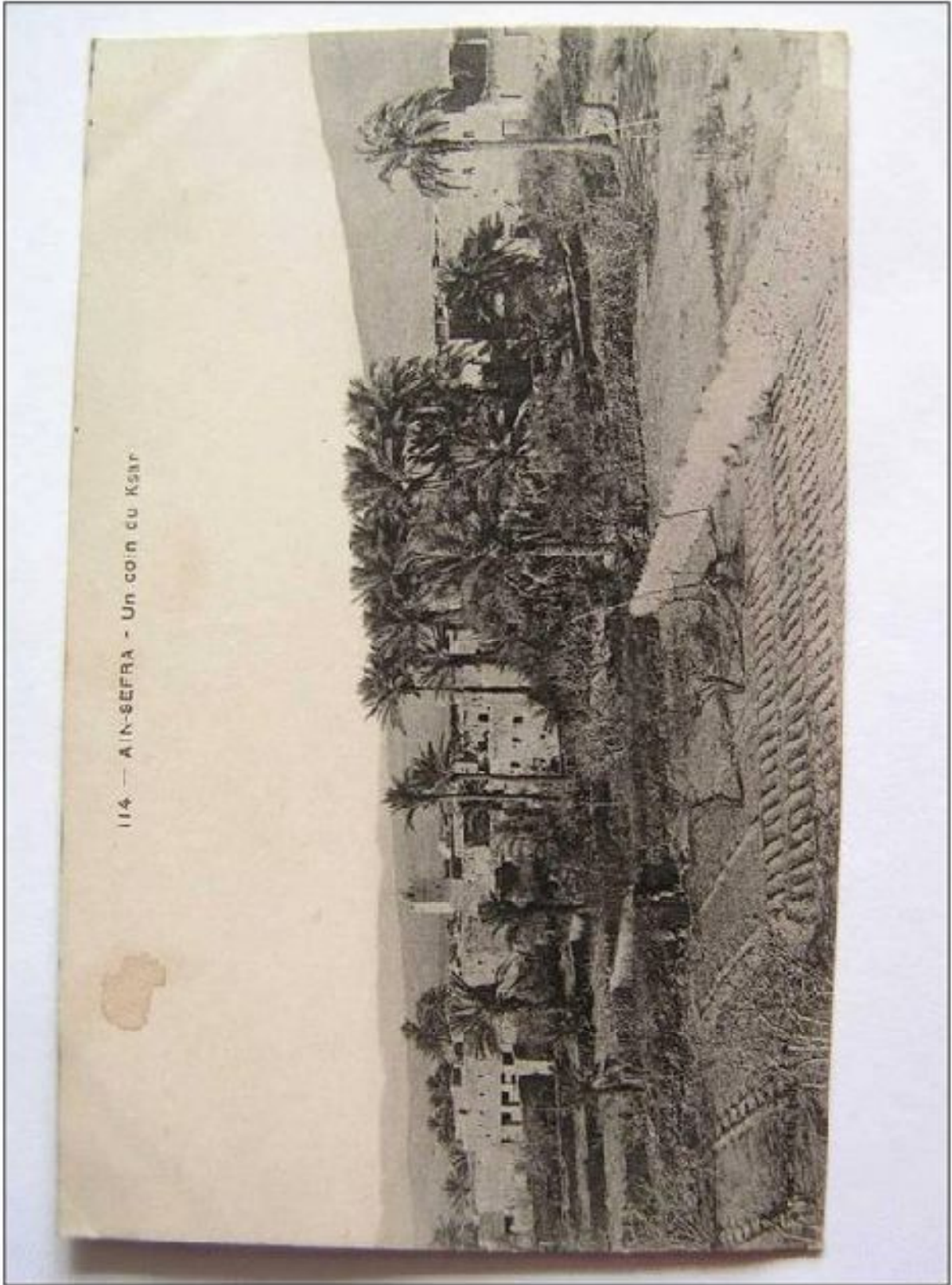


Asiacard

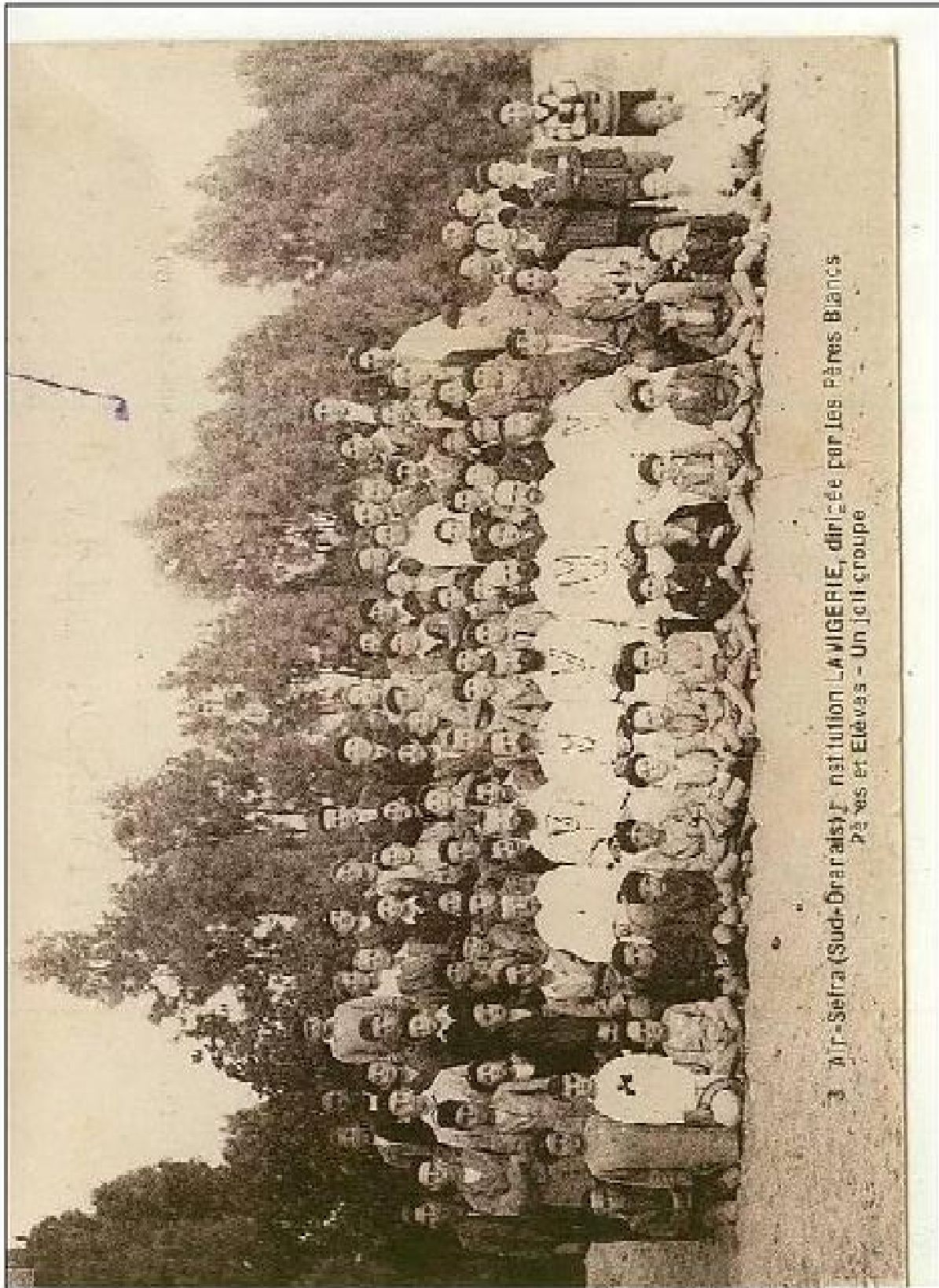
3- المستشفى العسكري بالجنوب الوهراني (عين الصفراء).



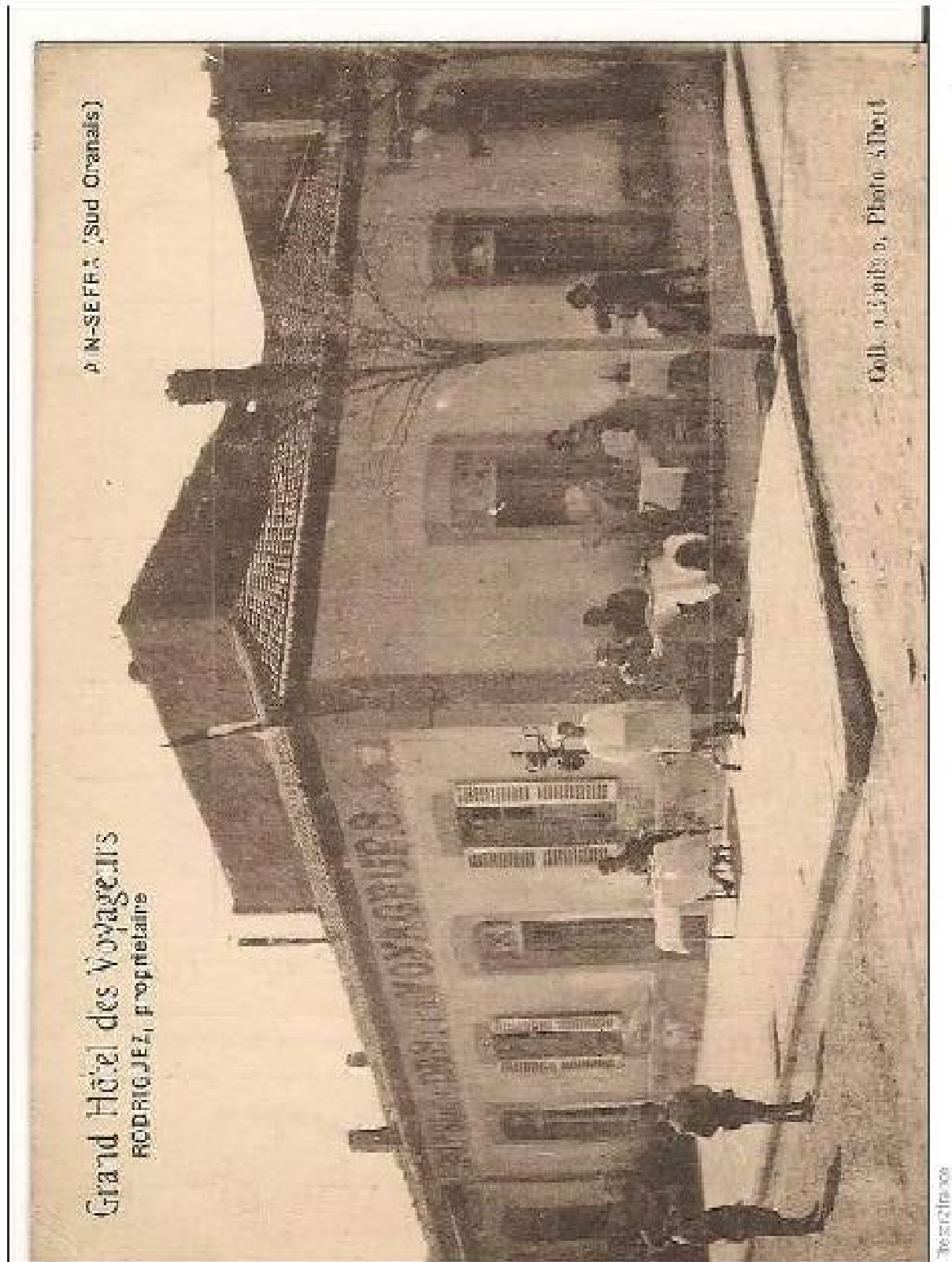
4- جزء من قصر عين الصفراء.



5- مؤسسة لافيجري الدينية التي يديرها الآباء البيض ومجموعة من التلاميذ (عين الصفراء).



6- أكبر فندق لاستقبال المسافرين تابع لملكية أحد الكولون المدعو (Rodriguez).



7- صورة هزلية لدعاء الاستعمار الفرنسي نحو الصحراء.



أ	المقدمة	01
الفصل الأول: نبذة تاريخية وحدود عين الصفراء		
1- الإطار	الجغرافي	14
2- نبذة تاريخية عن المنطقة	والحدود	01
3- الاهتمام	الفرنسي	14
الغربي	27	بالجنوب
الفصل الثاني: المشروع الاستيطاني بإقليم عين الصفراء		
1- تشكيل	الإقليم	في
العسكرية	40	ظلال
2- التنظيم الإداري	55	المناطق
3- التفكك الاقتصادي والاجتماعي	65	
الفصل الثالث: استغلال الثروات		
1- الثروة الحيوانية	78	
2- الثروة النباتية	88	
3- طرق ووسائل الاستغلال	99	
الفصل الرابع: نتائج وردود الأفعال تجاه السياسة الاستيطانية		
1- النتائج الاقتصادية	109	
2- النتائج الاجتماعية	123	
3- ردود الأفعال	141	
الخاتمة		
المراجع والمصادر	149	
الملاحق	153	
فهرس البحث	169	
	170	

ملخص

يتناول الموضوع المشروع الاستيطاني الفرنسي بإقليم العين الصفراء العسكري (1882-1914)، ويحدد طرق ووسائل تحقيق هذا المشروع وأهداف الاستعمار الفرنسي من احتلال منطقة الجنوب الغربي، وكذلك المخططات التي انتهجتها في بداية التوسع والتي اختلفت حسب اختلاف القادة العسكريين المعينين من طرف الحاكم العام، كما تعالج إشكالية البحث نتائج وانعكاسات المشروع الاستيطاني الفرنسي على المنطقة التي أدت إلى تفكيك البنية الاجتماعية والاقتصادية وأزلت بعض الروابط التي كانت تجمع بين أفراد القبيلة داخل النمط القبلي السائد بالمنطقة.

كما بينا ردود أفعال القبائل التي ثارت ضد هذا الواقع المفروض، و المتمثلة في أكبر مقاومة في الجنوب الغربي ألا وهي مقاومة الشيخ بوعمامة (1881-1908) والتي أرقت السلطات الفرنسية، وأثخنت من جراحها كما أعاق تنفيذ مشروعها الاستيطاني لمدة طويلة، بالرغم من النقائص في العدة و العتاد.

الكلمات المفتاحية :

الملكية العقارية؛ الاستيطان؛ الأقاليم الجنوبية؛ الاستكشافات الأوروبية؛ الجنوب الوهراني؛ أولاد سيدي الشيخ؛ قبائل الحميان؛ ثورة بوعمامة؛ الإخضاع؛ عين الصفراء.

نوقشت يوم 10 فبراير 2015